

# **الطريق إلى صدام الحضارات** **(مع دراسة لتاريخ الصراع فى العالم)**

**انور محمود زناڤى**  
**جامعة عين شمس**



**مكتبة الأنجلو المصرية**

## بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق  
القومية ، إدارة الشئون الفنية .

زناتى ، أنور محمود

الطريق إلى صدام الحضارات (مع دراسة لتاريخ الصراع فى  
العالم ) / أنور محمود زناتى . - ط ١ . -

القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، ٢٠٠٦ .

٢٥٣ ص ، ١٧ × ٢٤ سم

١- العالم - تاريخ أ- العنوان

رقم الإيداع : ١٤٤٠٣

ردمك : ١-٢٢٤٨-٠٥-٩٧٧ تصنيف ديوى : ٩٠٩

المطبعة : محمد عبد الكريم حسان

الناشر : مكتبة الانجلو المصرية

١٦٥ شارع محمد فريد

القاهرة - جمهورية مصر العربية

ت : ٣٩١٤٣٣٧ (٢٠٢) ؛ ف : ٣٩٥٧٦٤٣ (٢٠٢)

E-mail : [angloebs@anglo-egyptian.com](mailto:angloebs@anglo-egyptian.com)

Website : [www.anglo-egyptian.com](http://www.anglo-egyptian.com)

# الإهداء

إلى أستاذي العلامة الدكتور اسحق عبيد

العالم الإنسان

حب عميق

وإجلال أعمق

أنور زيناتى





## المحتوى

٣	الإهداء .....
١٤-٧	مقدمة (كلمة التاريخ) .....
	<b>الفصل الأول</b>
٢٣-١٧	(الطريق إلى صدام الحضارات)
١٩	- مفهوم الحضارة .....
٢٢	- العنصرية أداة للصدام .....
	<b>الفصل الثاني</b>
٦٣-٢٧	(الجنود)
٣٠	- بروتوكولات حكماء صهيون .....
	<b>الفصل الثالث:</b>
٨٢-٦٧	(الغرب وجذور الصدام)
٦٨	- العصر اليوناني .....
٧١	- حرب البلويونيز .....
٧٦	- العصر الروماني .....
	<b>الفصل الرابع</b>
٩١-٨٥	(الحروب الصليبية)
٨٧	- الحملة الصليبية الأولى .....
	<b>الفصل الخامس</b>
١٠٧-٩٥	(الأندلس)
١٠١	- مأساة نهاية المسلمين في الأندلس .....
١٠٥	- محنة الموريسكيين .....
	<b>الفصل السادس</b>
١٦٤-١١١	(الشرق والغرب)
١١٣	- اللقاء الحضاري بين الشرق الإسلامي والغرب الأوروبي .....
١٢٨	- شذرات من دور المسلمين في تكوين الفكر العلمي الأوروبي .....

**الفصل السابع**  
**(أوروبا عصر النهضة)**

١٦٩-١٦٧

١٦٧ ..... عصر النهضة

**الفصل الثامن**  
**(العصر الحديث)**

١٩٥-١٧٣

١٧٣ ..... - الكشف الجغرافية

١٧٤ ..... - العنصرية

١٧٧ ..... - الحركة الاستعمارية

**الفصل التاسع**  
**(القرن العشرين)**

٢٢١-١٩٩

٢٠٥ ..... - أساتذة الصدام

٢٠٥ ..... - ماكيافيللي

٢١١ ..... - برنارد لويس

**الفصل العاشر**  
**(نهاية التاريخ)**

٢٤٦-٢٢٥

٢٢٩ ..... - نظرية صدام الحضارات

٢٤٤ ..... - مستقبل النظام الإقليمي العربي

٢٥٣-٢٤٩

..... المراجع

## مقدمة (كلمة التاريخ)

إن الإشكالية التي يطرحها موضوع "صدام الحضارات" the clash of civilizations ليست جديدة، فهي مسألة تتدرج في حقيقة الأمر ضمن مرحلة معينة في مسار سياسات موعلة في القدم.

إن منطق الصراع والحرب<sup>(١)</sup> كان عبر كل الأزمنة هو المنطق السائد في الفكر العالمي والغربي بصفة خاصة، فساد الفكر اليوم في علم العلاقات الدولية الذين تنفذ توجهياتهم على أرض الواقع في المؤسسات الغربية هم ورثة اتجاهات فكرية سادت عبر القرون ورسمت طريق الحرب والمؤامرة للقادة ومشعل الحروب.

والمقيدة البراجماتية<sup>(٢)</sup> التي لا يهمها في تفسير مفهوم الحقيقة إلا ما تعلق بسياسة الأمر الواقع والمنفعة والمصلحة أولاً وقبل كل شيء - والتي تتميز بها السياسة الأمريكية - اليوم ما هي إلا تكييف عصري لمفهوم للغاية تبرر الوسيلة التي أوصى بها أصحاب مصنفات "فن الحرب".

من أمثال نيكولاس ماكيافيللي<sup>(٣)</sup> (Nicholas Machiavel) الذي يقول: "إن الحرب هي الفن الوحيد الذي يحتاجه الأمراء"

لما فولتير<sup>(٤)</sup> (Voltaire) فيرى: "إن السلام مفهوم طوبولي<sup>(٥)</sup>"

- ١- الحرب War في علم السياسة تعني: اعتداء منظم يقصد منه إجبار دولة أو جماعة على الخضوع لإرادة دولة أخرى .
- ٢- كسليمة البراجماتية في أصلها اللغوي مشتقة من كلمة يونانية تعني العمل النافع، أو المحاولة الجدية، ويصبح المقصود منها هو "المذهب العملي" أو "المذهب الفهمي" وهو مذهب فلسفي مؤسسه تشارلز ساندرو يوم ١٨٣٩-١٩١٤ وهو فلسفة عملية انبثقت من الروح المادية للقرن العشرين ... وهي أمريكية الشأق، وأصلية الانحياز.
- ٣- ماكيافيللي (١٤٦٩-١٥٢٧) فيلسوف إيطالي صاحب المقولة السياسية الشهيرة "الوسيلة" وكتابه الأشهر "الأمور" يسه النضال الصريح لكل حاكم أن يستخدم الخداع والقتل والكذب والجرأة للسيطرة على شعبه ويعد من مؤسسي الفكر السياسي الحديث.
- ٤- فرانسوا-ماري أرويه (١٦٩٤-١٧٧٨) عرف باسمه الشعاري فولتير فيلسوف وصحفي فرنسي. أكد في مجمل فلسفته أنه لا يمكن لنا كأفراد، أن نكون لنا حريات فردية أساسية كحرية التعبير، إذا لم نصنع من المبادئ والوثائق على معتقداتنا الشخصية. له مسرحية تدعى العصب عام ١٧٤٢ يهيم فيها الإسلام بخلف النساء حملهن على الإيمان ويشكك فيها عن حديث الرسول ص إلى جبريل عليه السلام وقد صودرت بعد عام بسبب تحفظ الكنيسة عليها وأخر إصدار في القرن ١٩.
- ٥- الطوباوية من اليونانية to-topos، أي "ليس في أي مكان" - وهو التعبير الذي استخدمه بالكنيسة نفسه توماس مور (في كتابه يوطوبيا: أو حول الدستور الأمثل للجمهورية، ١٥١٦) ليصف مدينة مثالية وعالمية في نفس الوقت.

وقد رأى روجر بيكون<sup>(٦)</sup> أن "العالم منقسم إلى كتلتين متصارعتين مؤمنون مسيحيون وهراطقة كفار لا يتميزون بأى طابع".

أما توما الإكويني<sup>(٧)</sup> في كتابه "خلاصة اللاهوت" فيرى ضرورة إخضاع غير المسيحيين بالقوة القاهرة لمنعهم من عرقلة الدين المسيحي فقال "إن عرقلة دين المسيح من جانب غير المؤمنين يجب منعها بالقوة" ونجد أنه عرف العرقلة هذه تعريفاً واسعاً بحيث أصبح الدفاع عن المسيحية طريقاً له طابع حربي وكان يستند إلى ازدراء الدين والآراء الشريرة وهما ما يبررا إشعال الحروب وعندما يتعلق الأمر بالكفار أياً كان الأمر فإن الكنيسة تملك الحق في إلغاء القانون البشري وشن الحرب عليهم!!<sup>(٨)</sup>.

أما ريموند لول<sup>(٩)</sup> (١٢٣٥-١٣١٦م) فكان يرى أن وجود المسلمين هو أعظم عقبة في طريق الوحدة السلمية وهم من يعترضون سبيل العالم ووجودهم خلل في بنيته وتجسيد للباطل في وجه الحقيقة وهم الظلم مجسد ويجب إبادتهم تماماً.

ويرى لول أن المسيحيين لا يمكنهم أن يسالموا أولئك الذين يحض وجودهم يهددون وحدة الكون!! وإذا كان هناك سلام ضروري مع المسلمين هناك شرط مسبق وهو أنه يجب عليهم أن يتخلوا عن عدم إيمانهم بالمسيح ويعتقوا المسيحية!.

٦- روجر بيكون Roger Bacon فيلسوف وعالم إنجليزي عاش في القرن ١٣ الميلادي. اهتم بالرياضيات والتجارب العلمية، ولذا فهو يعتبر من أكبر مؤسسي العلوم الحديثة. تلقى علومه الجامعية في باريس ثم درس في جامعاتها لمدة سبع سنوات غادر بعدها إلى جامعة أوكسفورد في إنجلترا. في عام ١٢٦٧ م كتب ثلاثة أعمال قُدمت إلى إصلاح، كما أصدر كتابين انتقد فيهما بشدة التعاليم الدينية والفلسفة.

٧- توما الإكويني (١٢٢٥-١٢٧٤) فيلسوف إيطالي معروف صاحب كتاب الاعترافات الشهير ومن واضعي أسس الديانة الكاثوليكية ويطلق عليه الطيب الملائكي وأمير المتقين.

٨- لمزيد من التفاصيل أنظر توماش ماستاك: السلام الصليبي، ترجمة بشر السباعي، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة، رقم ٦٢٠، ٢٠٠٣م.

٩- قضى لول تسع سنوات ١٢٦٦-١٢٧٥م في تعلم العربية ودراسة القرآن وقصد بابا روما وطالبه بإنشاء جامعات لتدرس العربية لتخريج مستشرقين قادرين على محاربة الإسلام. ووافق البابا. وفي مؤتمر فيينا سنة ١٣١٢م تم إنشاء كراس للغة العربية في خمس جامعات أوروبية هي: باريس، أكسفورد، ويولونيا بإيطاليا، وسلمنكا بأسبانيا، بالإضافة إلى جامعة البابوية في روما.

ويذكر يوحنا من سالسبوروي أن المهنة العادية لفرسان الهيكل المسيحية قد تمثلت في سفك الدم البشري وإحراز العنف المقدس مستوى عالياً من القبول العام.

أما بطرس المبجل Peter the Venerable (١٠٩٢-١١٥٦) <sup>(١٠)</sup>.

رئيس دير كلوني cluny <sup>(١١)</sup> فقد آتهم المسلمين بالعنف وأن نبيهم لم يعتمد علي العقل بل علي السلاح ومنذ ذلك الحين واتباعه إخلاصاً منه لشريعته يخنفون الحوار بالسيوف والحجارة!!

وكان برنار من كليرفو قبله مؤمن بأن الحرب الصليبية ضد المسلمين شيئاً سامياً وروحياً. كل تلك الأفكار تخدم مقولة محو الخطايا بدم الكفار.

وجاء المفكرون والعلماء الأوروبيون في أواخر القرن التاسع عشر وفي النصف الأول من القرن العشرين، فبلوروا فكرة الصراع conflict، وأقاموا نظرياتهم سواء في مجال العلوم البحتة أو في حقل العلوم الإنسانية.

وقد سعى الفلاسفة وعلماء اللاهوت عبر السنين لتفسير عدوانية الآدميين اعتماداً على تفسير طبيعة البشرية ووصف الفيلسوف الإنكليزي في القرن السابع عشر توماس هوبز (١٥٨٨م-١٦٧٩م) <sup>(١٢)</sup> في كتابه (لاوثيان) الأحوال المعيشية في حالة الطبيعة يعني في المجتمعات البدائية قبل ظهور الحكومات (كحرب يشنها كل آدمي ضد آدمي الآخر) ولقد انبثق الصراع المستمر تماشياً مع ما قاله هوبز من طبيعة البشرية فالإنسان مشغولون بأنفسهم وأنانيون وطامعون ولا يهتمون بغير إشباع شهواتهم فالدافع الأساسي للإنسان هو الكسب الشخصي والمجد ولاحظ

١٠- بطرس المبجل: فرنسي من الرهبانية البندكتية، رئيس دير كلوني، قام بتشكيل جماعة من المترجمين للحصول أكبر قدر من المعرفة عن الإسلام. وقد كان هو ذاته وراء أول ترجمة لمعاني القرآن الكريم إلى اللغة اللاتينية ١١٤٣م التي قام بها الإنكليزي روبرت أوف كيتون R.of Ketton.

١١- ساسي سالم الحاج: نقد الخطاب الاستشراقي، ج١، دار المدار الإسلامي، بيروت، ٢٠٠٢، ص ٤٣. أما دير كلوني فقد تم تأسيسه في منطقة اللوار في فرنسا من قبل الرهبنة البندكتية، واطلقت منه حركة إصلاح دينية رهبانية امتدت في القرن الحادي عشر والثاني عشر إلى كل المسيحية الأوروبية.

١٢- ولد توماس هوبز في إنجلترا عام ١٥٨٨ ودخل أكسفورد وهو في الخامسة عشرة، واتضح معالم فلسفة هوبز عام ١٦٤٠ خلال نشره كتاب (مبادئ القانون الطبيعي السياسي)، بعدها بعشر سنوات نشر هوبز كتاب (لاوثيان) أو المجتمع الكنسي والموتى مادته وصورة وسلطة تأثرت فلسفة هوبز بالفترة البرجوازية في القرن السابع عشر، فمن خلالها يرى البعض إن هوبز فيلسوفاً مادياً إنكليزياً. فضلاً عن ذلك كان هوبز معلماً للملك شارل الأول، وقد دافع في كتابه المشار إليه (لاوثيان) عن الحكم المطلق وكان يؤيد بذلك حكم آل ستوارت في إنجلترا.

القديس أوغسطين<sup>(١٣)</sup> أيضا القدرة الفائقة للإنسان على الحاق الأذى بالآخرين والاعتداء عليهم وبدأ هذا الميل للبشر لأوغسطين في حاجه في تفسير لاهوتي يعني إرجاعه للخطيئة الأزلية إذ ترتبط الطبيعة العدوانية للإنسان ارتباطا مباشرا بالسقطه من عنابة الميثينة الإلهية في جنة عدن وجاء الفيلسوف الهولندي اسبينوزا في القرن السابع عشر يقول تضمن القول بوجود صراع هائل داخل الإنسان بين قوي الهوي والقوي العاقلة ومن سوء الطالع أن الهوي غالبا ما ينتصر على العقل. ولاحظ علماء النفس أن القتال والحرب يشبعان احتياجات ممتدة الجذور عند الأفراد والمجتمعات وأنها احتياجات من المفروض أنها فطرية عند البشر وليس بالإمكان قمع هذا الدافع العدواني ولكن بالاستطاعة ترويضه وإعادة توجيهه وتحويله صوب أنشطة أكثر انسابا بالمسالمة.

واعتقد سيجموند فرويد<sup>(١٤)</sup> أيضا بنوع السلوك العدواني للبشر من دوافع لا شعورية بعيدة الغور في النفس الإنسانية والحق أن العدوان يبدو ككلمة صفة سلوكية عند جميع الأدميين ورأى فرويد أن تفسير مثل هذا العدوان قد يكون مرتبطا بوجود غريزة الحياة في الإنسان وهي الغريزة التي تسعى للحفاظ على البشرية وتحقيق وحدتها وهناك أيضا غريزة الموت ويفترض أن غريزة الموت تهدف إلى إزالة كل توتر وإثارة لتباه الفرد وتتركز هذه الغريزة الخاصة بالموت في أعماق الإنسان وعندما تسيطر على نفوسنا فإن ما يتمخض عن ذلك هو الانتحار.

١٣- القديس أوغسطين عالم لاهوت في الكنيسة اللاتينية. وقد ولد في تاغست (سوق أهراس في الجزائر حاليا) سنة ٣٥٤م وتوفي في هيبون (الطالما) سنة ٤٣٠م. تبع هوام في مرحلة شبابه المصاحب في قرطاج. واعتنق المانوية: ثم ارتد متأثر من أتباع مونيك والقديس امبروسيوس، وتحول إلى اللاهوت فصار أسقفا في مدينة هيبون سنة ٣٩٦م وحارب المانوية المقاتلة مجتاهدين: مبدأ الخير ومبدأ الشر، النور والظلام. كما حارب الميلاجوسية (نظرية الراهب يلاجوس في القرن الرابع والذي أنكر الخطيئة الأصلية وقال بحرية الإرادة التامة، وكذلك الميلاجوسية (مدعة دونا، وهو أسقف قرطاج في القرن الرابع الميلادي: وقد أدى إلى انقسام الكنيسة في شمال أفريقيا). حاول القديس أوغسطين التوفيق بين العقل والإيمان وجمع بين الأدب واللاهوت والفلسفة فترك تأثرا واسعا في علم اللاهوت العربي وأثرى الأدب اللاتيني. وترك مؤلفات منها: "في النعمة" و"مدينة الله" و"الاعتقالات". وضع القديس أوغسطين اعتراضاته حولي العام ٤٠٠م وهي تقدم لوحة للحياة كما كانت في نهاية القرن الرابع وتطفي فكرة عن الصراعات الروحية بين الشك والإيمان والتي حركت ذلك القرن بالخصوص.

١٤- سيجموند فرويد (١٨٥٦-١٩٣٩) عالم نمساوي شهير مؤسس علم التحليل النفسي PSYCHOANALYSIS حصل على شهادة الدكتوراه من جامعة فيينا ١٨٨١، واضطرم الحكم النازي الخطري على ترك النمسا ١٩٣٨ هجرش في لندن وتوفي بها ١٩٣٩.

ويرى فرويد أنه من الواجب ليس فقط انطلاق العدوان علي نحو أو آخر ولكن يتعين أن يجني الإنسان قدر من الإشباع من هذا الانطلاق. وبعبارة أخرى يحتاج الإنسان إلى إشباع هذه الدوافع العدوانية.

وفي القرن العشرين نجد آرون (Aron) يقول: "إن الحرب هي عمل عنيف يسمح لنا بفرض إرادتنا على الخصم" ويقول "لقد بحثت في ما يشكل خصوصية العلاقات الدولية ويبدو لي أنني لمست ذلك في شرعية استعمال القوة وهانس مورجانثو (Hans Morgenthau) الذي يمثل رمزا بارزا للبراجماتية الأمريكية في مجال العلاقات الخارجية يقول بدون مواربة "إن السياسة الخارجية ليست إلا صراعا من أجل امتلاك القوة، وغلبت فكرة الصراع على الفكر الأوروبي في جميع المراحل التي مرّ بها، وأدت الشعوب الأوروبية ثمناً فادحاً لهذه الغلبة القسرية، حيث عانت أشد المعاناة من الحروب الأهلية فيما بينها، كانت آخرها الحرب العالمية الثانية التي أضرمت شرارتها عقيدة عنصرية ونزعة استبدادية اصطبغت بالصبغة الصراع القاتلة.

ويذكر محمد كرد علي أن: "لوبون وميشو ورامبو وسنيوبوس وبتي يؤكدون أن الحروب عادت علي الغرب بخيرات لا تحصى، ولو لم يكن منها غير تحطيم قيود التعصب الكنسي وما رآه الصليبيون عياناً من تسامح المسلمين لكفي في فائدها وانتشرت التجارة بعد الحروب الصليبية وأخذت أوروبا عن العرب عادات الفضيلة والمدنية"<sup>(١٥)</sup>.

والمدرسة الواقعية تذهب مذهباً مؤيداً لذلك حين تستنتج أن الصراع الدولي هو القاعدة التاريخية التي تحكم العلاقات الدولية، أما الاستقرار أو السلام فهو الظاهرة العرضية في التاريخ الإنساني.

إن هذه الظاهرة ليست جديدة على التاريخ الأوروبي إذن، بل هي جزء من حركته المتعددة الاتجاهات والمضامين والتاريخ مملوء بالنماذج الكثيرة من الصراعات الكبرى عبر التاريخ والمسئول الأكبر فيها هو الغرب الأوروبي. ويرى البعض أن القانون الذي اتخذته الحضارة الغربية لحكم الصراع، هو قانون كراهية الآخر... ويستشهد هنتجتون نفسه بما ورد في رواية (ديبون)

١٥ - محمد كرد علي: بين المدنية العربية والأوربية "سلسلة الألف كتاب الثاني"، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٢، ص ١١٤.

البحيرة الميتة. بالقول (لا يمكن أن يكون هنالك أصدقاء حقيقيون دون أعداء حقيقيين. إن لم نكره ما ليس نحن فلن يمكننا أن نحب ما هو نحن) (١٦).

وفي الوقت الحالي نجد الحضارة المحددة المعالم هي الحضارة الغربية. وذلك أننا حين نتحدث عن الحضارة الغربية وهناك عدة دول قائمة تتمثل فيها هذه الحضارة: فهناك دول أوروبا الغربية، والولايات المتحدة، وكندا، وأستراليا يجمع بين هذه الدول كونها كلها ذات نظام سياسي واحد هو الديمقراطية الليبرالية العلمانية، وأن بينها علاقات وتعاون، وأن لها تاريخاً واحداً مشتركاً. بل إن هذه الدول لتتشارك شعوبها حتى في أزياء رجالها ونسائها، وفي كثير من أذواقها الأدبية والفنية. هذه الدول في مجموعها هي أقوى دول العالم اقتصاداً، وسلاحاً، وتأثيراً إعلامياً. وحضارتها هذه هي الحضارة الغالبة المهيمنة على العالم اليوم.

إن مشكلتنا هي أن الحضارة الغربية ليست راضية حتي بالقليل الذي تبقى لنا من الحضارة الإسلامية، بل تريد لنا ولغيرنا أن لا نكون عقبة في طريق مصالحها القيمية أو المادية، بل أن نكون تابعين في كل ذلك لها. والحضارة الغربية ذات حساسية بالغة من أية بادرة بعث لتلك الحضارة لسبب تاريخي وهو أن قادة الفكر الغربي لا ينسون، كما أن كثيرين منا لا ينسون، أن الحضارة الإسلامية كانت هي الحضارة العالمية حتى القرن السابع عشر الميلادي. استمع إلى المستشرق اليهودي برنارد لويس وهو يقول:

"ظل الإسلام لقرون طويلة أعظم حضارة على وجه الأرض وأغنى حضارة، وأقواها، وأكثرها إبداعاً في كل حقل ذي بال من حقول الجهد البشري عسكرياً، أساتذتها وتجارها كانوا يتقدمون في موقع أمامي في آسيا وأفريقيا وأوروبا، ليحملوا ما رأوه من الحضارة والدين للكفار البرابرة الذين كانوا يعيشون خارج حدود العالم الإسلامي".

ثم تغير كل شيء مشاعر الإحباط والغضب لما عدوه مخالفاً للقانون الطبيعي والشرعي ظلت تنتامي لمدة قرون، ووصلاً قمتها في أيامنا.

فقيادة الحضارة الغربية يخشون على حضارتهم من كل بادرة إحياء لتلك الحضارة التي كانت سائدة. ومما يزيد من خوفهم قول المختصين منهم في التاريخ

١٦ - صامويل هنتنجتون - صدام الحضارات (إعادة صنع النظام العالمي) - ترجمة طلعت الشايب منشورات - سطور - مصر - ١٩٩٨، ص ٢٤.



الإسلامي، إن للإسلام مقدرة عجيبة على العودة كلما هُزم. فالتصادم بين الحضارات يتم إعداده في كواليس السياسة الغربية على يد ساسه وقواد ومفكرين وفلاسفة، وببساطة يوجهون الاتهام للإسلام والمسلمين ثم نصدق نحن ذلك ووجدنا من بيننا من يروج لأفكارهم تلك.

والعجيب أن الغرب بكل ما أوتى من تكبر وتجبر وعنف دموى على مدار تاريخه نجده يصف المسلم بأنه "الإنسان الذي لا إنسانية فيه"<sup>(١٧)</sup> كما قال بذلك ولیم جلدستون<sup>(١٨)</sup>.

ويقول لوفنيان في كتابه التبشير والاستعمار وهو يقوم بنوع من أنواع الإسقاط<sup>(١٩)</sup> Projection "إن تاريخ الإسلام كان سلسلة مخيفة من سفك الدماء والحروب والمذابح!!

ولكن يرد على تلك الافتراءات من بنى جنسهم اللورد المنصف هدلي<sup>(٢٠)</sup> في كتابه المثل الأعلى في الأنبياء قائلاً:

"إن مدبجي وناسجي هذه الافتراءات لم يتعلموا حتى أول مبادئ دينهم، وإلا لما استطاعوا أن ينشروا في جميع أنحاء العالم تقارير معروفة لديهم أنها محض كذب واختلاق".

والغرب لا يزال ينظر إلى نفسه باعتباره الجنس الأبيض المتميز وأن بقية الشعوب فريسة مستباحة له وبات يخشي مسيرة التاريخ بعد أن بدأت الشعوب المستضعفة تحتل مكانتها على الساحة العالمية ويحاول الغرب بما يمارسه من قوة وغطرسة وما يروجه من فكر أن يواصل إحكام قبضته على فكر وعقل وعمل هذه الشعوب.

وتاريخ أوروبا زاهر بالحروب والمجازر ملئ بالصراع المسلح والدماء السائلة مفعم بأعمال العنف والتخريب وهو تاريخ يكشف إلى حد كبير عن عقلية تؤمن بسياسة العنف وتتفر من سياسة السلام والمحبة بين الشعوب ولا تعتقد إلا

١٧- شوقي أبو خليل: الإسقاط في مناهج المستشرقين والمبشرين، ط١، دار الفكر المعاصر، بيروت ١٩٩٥، ص ٩.

١٨- ولیم جلدستون (١٨٠٩ - ١٨٩٨) سياسي بريطاني شهير ولد في ليفربول، زعيم حزب الأحرار.

١٩- الإسقاط Projection: حيلة لا شعورية تلجأ إلى أن ينسب الشخص عيوبه ونقائصه إلى غيره من الناس.

٢٠- اللورد هدلي: Lord Hedly "ت ١٩٣٥" تخرج في جامعة كامبريدج وعمل بالتعليم والصحافة، أعلن إسلامه وعمل على نشر الإسلام، له: مقدمة لكتاب المثل الأعلى في الأنبياء لخوجة كمال الدين.

بسياسة القوة كوسيلة لحل المشاكل الدولية، على عكس ما يدعوه تماماً، والأحداث الواقعة خير شاهد، ويرى فريدريك ليست<sup>(٢١)</sup> "أن القوة أكثر أهمية من الثروة لأن الضعف يؤدي إلى فقدان الثروة" مما يؤكد على أن النظرة المادية دون غيرها هي التي لها الكلمة العليا في علم العلاقات الدولية، ولو جاء أسامة بن لادن نفسه وأعلن استثماره لمليارات الدولارات في الغرب في مجالات السياحة أو ما شابه لأصبح في نظرهم حامى حمى الديمقراطيات في العالم الغربى والشرقى بل والشمالى الجنوبى أيضاً!! فهى ازدواجية اتسم بها الغرب بصورة فجأة بل وقييحة.

ومن الواضح أن أوروبا في تاريخها الحديث لم تتجح في حل أمر من أمورها المحلية أو الدولية عن طريق المفاوضة أو التفاهم السلمى أو المناقشة المنطقية وإنما لجأت طوال هذا التاريخ إلى صراع مسلح عنيف دام بين الدول الأمريكية نفسها أو بين الدول الأوروبية وبقية العالم فهل من مزيد؟!!

٢١- فريدريك ليست (١٧٨٩-١٨٤٦) اقتصادى المائى ينسب إليه أنه أول من وضع فكرة الضرائب.

## الفصل الأول الطريق إلى صدام الحضارات



## الفصل الأول الطريق إلى صدام الحضارات

ضمير الكافر له حرمة أما حياته فلا !!

القديس توما الاكوينى

إن مفهوم "الصراع" conflict، هو أحد أبرز المفاهيم المتداولة التي طفت على سطح النقاش المحتدم بعد انتهاء الحرب الباردة، وتفكك مفاصل الخصم التاريخي للبرالية الديمقراطية، ومنذ تمادي حمى التبشير بنهاية التاريخ، وفقاً لأطروحة فرانسيس فوكوياما<sup>(١)</sup>، إثر "استبعاث" أطروحة الصدام الاستراتيجي بين الحضارات، وحروب المستقبل على يد صمويل هنتجتون. الذي يرى أن الصدام بين "الحضارات" نتيجة حتمية.

وهناك مقولة مفادها أنه:

(عندما يوجد فرد يسود السلام وعند وجود اثنين ينشأ الصراع وعند وجود أكثر تبدأ التحالفات).

هذه الحكمة تشير إلى القانون التاريخي الذي يحكم حياتنا بشكل عام، وسواء تعلق الأمر بالمجتمعات الوطنية أو على المستوى الدولي فقانون الصراع هو الذي يحكم الكون<sup>(٢)</sup>.

ومهما كان شكل الوحدة الإنسانية، أسرة، قبيلة، أمة فإنها محكومة بقانون الصراع تلك قاعدة تاريخية... لا تحتاج إلى إثباتات مجعدة.

إن حياة الإنسان محكومة بصراعه مع قوى الطبيعة ومع أمثاله أيضاً،

١- فرانسيس فوكوياما كاتب ومفكر أمريكي الجنسية من أصول يابانية ولد في مدينة شيكاغو الأمريكية عام ١٩٥٢م من كسبه كتاب (نهاية التاريخ والإنسان الأخير) والانهيار أو التصدع العظيم). عمل بوظائف عديدة أكسبته الكثير من الخبرة والثقافة، فقد عمل مستشاراً في وزارة الخارجية الأمريكية كما عمل بالتدريس الجامعي. أفكاره قريبة من أفكار تيار المحافظين الجدد وفكرة هيمنة أمريكا على العالم في القرن الجديد، في نفس الوقت يحذر ويؤشر إلى أمور لها خطورة وتشاؤمية. كان أحد مطالبي حكومة بيل كلنتون إلى قلب نظام صدام حسين إلا أنه لم تعجبه طريقة تنفيذ جورج بوش الابن في غزو العراق فقد دعا إلى وجوب استقالة وزير الدفاع دونالد رامسفيلد.

٢- إبراهيم أبو خزام، علاقة الحضارات، مجلة دراسات، العدد ٢٠، لسنة ٢٠٠٥.

(فروبينسون كروزو)<sup>(٣)</sup> في جزيرته المعزولة احترق الصراع مع قوى الطبيعة رغم عزلته المؤلمة.

وإذا أردنا للحديث عن صدام الحضارات the clash of civilizations أن يكون حديثاً تبنى عليه مواقف فكرية وعملية ينبغي النظر في جذور ذلك الصراع وخلفيته الإيديولوجية<sup>(٤)</sup>.

يرى الكثير من مفكرى الغرب أن الصراع ظاهرة طبيعية في حياة الإنسان وفي حياة المؤسسات جميعاً فبدءاً من الأسرة وإلى مستوى الإنسانية مروراً بالقبيلة والدولة والأمة فإن قانون الصراع هو ما يحكم المؤسسات جميعاً. غير أن أشكال الصراع ليست واحدة في هذه المؤسسات كما أن نتائجه مختلفة فهو يتدرج في شدته فيبدأ صراعاً ناعماً في مستوى الأسرة ويصل ذروته على مستوى الإنسانية فقد يصل إلى حد الحروب والصدام.

فالحضارة الغربية التي يصفها الفيلسوف الألماني (ألبرت أشفيتز) بأنها حضارة (ثنائية) تجردت من المفهوم الأخلاقي حسب رأي الفيلسوف نفسه، فقد كتب يقول: (نحن نعيش اليوم في ظل انهيار الحضارة، وهذا الواقع ليس نتيجة الحرب؛ إنما الحرب مجرد مظهر من مظاهره. ولقد تجمد الجو الروحي في وقائع فعلية ينعكس أثرها عليها انعكاساً له نتائج مدمرة من ناحية. وهذا التفاعل بين ما هو مادي وما هو روحي قد اتخذ طابعاً مضرراً كل الإضرار. إننا أبحرنا بالسفينة في تيار مليء بالأمواج العاتية تحت شلال هائل، ولا بد من مجهودات جبارة لإنقاذ السفينة، سفينة مصيرنا، من المجرى الجانبي الخطير الذي سمحنا لها بالانطلاق فيه، ومن إعادتها إلى المجرى الرئيسي إن كان ثم أمل في ذلك أبداً)<sup>(٥)</sup>.

٣- أشهر الروايات العالمية كتبها دانيال ديفو وهي حكاية رجل عاش وحيداً في إحدى الجزر النائية، فبنى له بيتاً صغيراً من أغصان الأشجار وصنع زورقاً من أحد الجذوع الكبيرة وعاش بعيداً عن بني البشر، لا يؤنسه أحد غير حيوانات الغابة المتوحشة حيث ألفته تلك الوحوش حتى صار واحداً منها.. يرضى معها ويتنقل من مكان إلى آخر من دون أن تفر منه أو تخشاه ويقال أنه اقتبسها من رواية (حي بن يقظان) للفيلسوف العربي الشهير ابن طفيل الذي عاش في القرن الثاني عشر الميلادي.

٤- آيديولوجيا Ideology هي مجموعة من الآراء والمعتقدات وأصاليب التفكير المميزة لمجموعة معينة من الأفراد كالأمة والطبقة والطائفة وأرباب المهنة المعينة والفرقة الدينية والحزب السياسي وما يشبه ذلك.

٥- إبراهيم أبو خزام، المرجع السابق.

فدعاة الحرية في الغرب هم الذين يروجون لنظرية صدام الحضارات وهذا من أوضح الدلائل على سعي الحضارة الغربية المعاصرة إلى إفناء الجنس البشري وتدميره وانحداره، وقد سعي الغرب للصراع المسلح مع كافة شعوب الأرض وإلغاء المبادئ الإنسانية وتبرير الإفساد في الأرض بالقتل والوحشية والدمار الذي تتسبب به الدول الغربية في أصقاع العالم، فمن استنزاف لخيرات وثروات البلدان المتخلفة تقنياً إلى استعباد شعوبها والاستهانة بدمائها وإثارة الاضطرابات في كل مكان لأهداف سياسية واقتصادية دون مبالاة بسفك دماء الأبرياء والاعتداء على كرامتهم وإنسانيتهم فمن الذي أشعل الحروب الصليبية قديماً ومن أشعل الحروب العظمى الأولى والثانية وغيرها وهو ما سنتناوله عبر تلك الدراسة.

وهناك تساؤل نطرحه أولاً: ما الحضارات التي يقال أنها تتصارع الآن؟ لكي نجيب عن هذا السؤال يحسن أن نتفق على ما نعنيه بكلمة الحضارة؟

#### الحضارة civilization :

لقد انحرفنا عن مجرى الحضارة لأننا لم نقم بالتفكير الجدي في معنى الحضارة.

#### صمويل هنتجتون

كان أول من حاول تعريف الحضارة تعريفاً علمياً في العصر الحديث هو العالم الألماني جوستاف كالم فعرّفها كالأتي "هي العادات والمعلومات والمهارات والحياة العامة والخاصة في السلم والحرب والدين والعلم والفن وتتمثل في نقل تجارب الماضي للجيل الجديد"<sup>(١)</sup>.

والحضارة مكونة من جوهر ومظهر. أما الجوهر فهو معتقداتها وقيمتها وأنماط السلوك الشائعة فيها، وأما مظهرها فهو إنجازاتها المادية من قوة عسكرية واقتصادية، ونظم سياسية وعمران. والحضارة بهذا المعنى مفهوم محايد، لا يدل بنفسه على مدح أو ذم.

٦- كلايد كلوكهون: الإنسان في المراه، ترجمة شاكرو مصطفى سليم، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر بغداد، نيويورك ١٩٦٤، ص ٧١.

وهناك تعريف آخر للحضارة وهو الإنتاج الفكري والمادي والسلوك العام لمجموعة معينة من الناس في حقبة زمنية معينة. ويشمل الإنتاج الفكري كافة النشاطات العلمية والأدبية والفلسفية بينما يشمل المادي إنشاء البنى التحتية والفوقية والثراء المادي للفرد والمجتمع، أما السلوك العام فيمثل العادات والتقاليد والقيم الفكرية والأخلاقية والمفاهيم الاجتماعية للمجتمع والسلطة الحاكمة لهذا المجتمع. ويستنتج من التعريف السابق ضرورة وجود مصادر مادية وفكرية لتكوين وبناء الحضارة في بلد ما. بالنسبة للمصادر المادية تمثل الثروات الطبيعية كالماء بكافة أشكاله الطبيعية والنفط والمعادن والتربة الصالحة للزراعة بالإضافة للقوى البشرية الضرورية لاستثمار تلك الثروات في إنشاء البنى التحتية والفوقية وفي التبادل التجاري. أما المصادر الفكرية فيمثل الدين والفلسفة والعلوم التجريبية والترجمة أهمها بالإضافة - بالطبع - إلى العقول البشرية اللازمة لحفظ وتطوير ونشر تلك المصادر في المجتمع وفي المجتمعات المجاورة.

والحضارة في نظر صمويل هنتجتون هي كيانات ثقافية وسوف يكون لها أهمية زائدة باطراد في النزاعات الراهنة والمقبلية فالحضارة هي أرقى تجمع ثقافي لشعب ما وأوسع مستوي للهوية الثقافية والتي يتميز بها البشر وتميزهم عن غيرهم من الأنواع ويتحدد معناها على أساس كل من عناصر موضوعية مثل اللغة والتاريخ والدين والأعراف والمؤسسات أو على أساس التعريف الذاتي بالنفس ويعتقد هنتجتون أن الحضارة الغربية هي الحضارة الكونية بينما غيرها حضارات إقليمية<sup>(٧)</sup>.

وقد عرفت البشرية على مر تاريخها الطويل الذي يقدر بملايين السنين أشكالاً مختلفة من الحضارة، لكن كانت هنالك محطات رئيسية ومفصلية في مسيرة قطارها حيث أحدثت تلك المحطات تغييرات جذرية في الحضارة الإنسانية وأعطتها دفعات كبيرة إلى الأمام كماً ونوعاً. أهم هذه المحطات هي: "اكتشاف النار"، "اكتشاف وتصنيع أدوات الصيد"، "اكتشاف الزراعة والري"، "اكتشاف العجلة"، "اكتشاف الكتابة" وتطور أدواتها وأسلوبها، "اكتشاف الرقم صفر" والكشوفات الرياضية والفيزيائية والكيميائية الأخرى، والكشوفات الجغرافية والفلكية الكبرى، الثورة الفكرية والصناعية وأخيراً - وليس آخراً - "المعلوماتية".

٧- أنظر صامويل هنتجتون - صدام الحضارات (إعادة صوغ النظام العالمي) - ترجمة طلعت الشايب منشورات - سطور - مصر - ١٩٩٨.



وهذا غييض من فيض من فترات حاسمة أعطت للنتاج الحضاري الإنساني دفعات كبيرة للأمام، وبمنظرة سريعة وشاملة لسلم تطوّر الحضارة نلاحظ أنّ شعوباً وأمماً عدّة ساهمت في صنعها وأدلت بدلوها فيها بغضّ النظر عن انتمائها الجغرافي أو العرقي أو الطائفي.

ولذلك يقول هنتجتون لقد انحرفنا عن مجرى الحضارة لأننا لم نقم بالتفكير الجدي في معنى الحضارة<sup>(٨)</sup>.

وقال بول فاليري في هذا الصدد: "نحن الحضارات نعلم أننا نتعرض للموت". وتاريخ الصراع الفكري بين الغرب والإسلام وخصوصاً في العصر الحديث يوضح أنّ الغرب قدّم عدة مصطلحات ولدت في بيئته، وتحمل معاني ومفاهيم خاصة بالغربيين ولها خلفية تاريخية لديهم قدموها إلى المسلمين لتسقط على بعض جوانب حياتهم، مع البون الشاسع بين الدين والدين، وبين التاريخ والتاريخ، وبين الظروف والظروف، ولعل من الأمثلة الواضحة على ذلك مصطلحات مثل: الأصولية Fundamentalism، والرجعية الخ.

فكل هذه المصطلحات ترمز إلى مذهب أو حالة معينة، ولكن يأبى الغربيون إلا أن تنقل هذه المصطلحات إلى المسلمين؛ لأسباب تتعلق بفرض الهيمنة وترسيخ الاستعمار، وفتح أبواب الغزو الفكري، ومحاربة الأفكار المقابلة.

إن الخلفية التاريخية الموجودة في أذهان الغربيين تجعلهم إذا سمعوا عن الأصولية (Fundamentalism) تمتلئ أذهانهم رعباً ونفراً بسبب المعاملات الهمجية التي اقترفها إخوانهم النصاري باسم الدين حيث حوربت الإنسانية والتقدم العلمي والتطور، فاخترار هذا المصطلح وإسقاطه على المسلمين أو على طائفة منهم لا يخلو من غرض.

إن المقارنة المتأنية لكل مفردات هذا المصطلح بين تاريخنا العربي الإسلامي، وبين التاريخ الأوروبي لكفيلة بإظهار مدى تهافت استعمال هذا المصطلح في واقعنا العربي.

لقد تفجرت الحضارة الإسلامية، وأبدعت منطلقاً من تلك الروح التي أوجدها دين الإسلام، في حين ولدت الحضارة الأوروبية الحديثة في واقع صراعها ضد

جمود رجالات المسيحية، ثم إن عصور الظلام الأوروبي التي أطلق عليها وصف (القرون الوسطى Medieval) هي زمنياً العصور نفسها التي كانت أنوار الحضارة الإسلامية فيها تشرق على العالم.

ومن أدوات الغرب التي تمهد للصدام هي أداة العنصرية ولذا نتناولها فيما يلي:

#### العنصرية أداة للصدام :

##### تعريف العنصرية Racism :

ويقدم الدكتور فواز الجابري تعريفاً للعنصرية قائلاً: العنصرية هي تعصب فرد أو فئة من الناس لجنس أو عرق أو قبيلة أو عشيرة أو دين أو طائفة أو معتقد أو حتى لون بشرة وإباحة قتل أو اضطهاد أو حتى ازدراء الفئات الأخرى بدون وجه حق أو سبب واضح سوى أنها تختلف عنه في جنسها أو عرقها أو طائفتها أو لون بشرتها (زنوج وهنود أمريكا، فكرة الحروب الصليبية، الحركة الصهيونية<sup>(٩)</sup>، النازية، الستحزب والحزبية، الصدامات العرقية والطائفية المعاصرة، مصطلح محاربة الإرهاب).

وهو أيضاً الاعتقاد بأن أعضاء جنس أو سلالة أو مجموعة من السلالات أعلى أو أدنى درجة من أعضاء السلالات الأخرى. والفكر العنصري يعد أهم أدوات الصدام لأنه مناف للعقل والحضارة، ولا بد من وجود مستفيدين وأصحاب مصلحة في وجوده ثم استمراره في مكان وزمان معينين وذلك عبر استخدامه كستار لخدمة وتحقيق مصالحهم الفردية والمادية فقط.

لذا، يمكن اعتبار الفكر العنصري كأداة فعّالة في يد أصحاب طموح السلطة والنفوذ والجاه على مرّ العصور واختلاف الأمكنة ويقتضي التتويه للأهمية البالغة هنا بأن أصحاب الفكر العنصري والمستفيدين منه ليسوا مجموعة واحدة متجانسة

٩- الصهيونية Zionism حركة سياسية يهودية تدعو إلى تكوين أمة يهودية وتنادي بحق هذه الأمة بتكوين كيان لها على أرض إسرائيل التاريخية أو كما ذكرت في التوراة. تأسست هذه الحركة في ١٨٩٧ وتألّفت من أفكار عديدة عند نشأتها في مكان بقعة الأرض لإقامة الدولة التي سحطن هذه الأمة. تركّزت الجهود ابتداءً من العام ١٩١٧ (وعد بلفور) على فلسطين لإنشاء كيان يحتضن الأمة اليهودية ومن العام ١٩٤٨ دأبت الصهيونية على إنشاء وتطوير دولة إسرائيل المقتصة للحق العربي وتنسب الصهيونية إلى جبل صهيون جنوب بيت المقدس والبعض يرجع أنها عربية الأصل وأنها من مادة الصون والتحصين والبعض يرجعها إلى صهيون الذي قاد البابليين في المنفى تحت سور بابل لكي يعيدوا بناء المعبد المزعوم.

يورثون فكرهم وسلطتهم لأحفادهم أو منتسبي مجموعتهم فقط، بل هم موجودون ومنتشرون في كافة البلدان وعلى مرّ العصور، والشواهد التاريخية كثيرة سنتعرض لها تباعاً.

وحيثما تتوافر التربة الملائمة لنمو الفكر العنصري ويتواجد من يستفيد منه كما تقدّم، يبدأ البحث عن وسائل لنشره وترويجه وتشريعه بين أكبر عدد ممكن من الناس على أنه المعيار الحقيقي لأسباب الصدمات بين المجتمعات الشريفة. هنا، يبدأ تشويه التاريخ ومنتشاً مصطلحات جديدة مغلوطة، ويتغير تفسير أخرى معروفة منذ قدم التاريخ المكتوب لتلائم هذا الفكر الخطير.

والعنصرية تفشت وما زالت متفشية في الغرب وبخاصة الولايات المتحدة الأمريكية (وسوف نتناوله في حينه بشيء من التفصيل) والتعصب العنصري هو أساس وركيزة وراء نظرة أمريكا للعالم وخاصة النامي منه وهو الذي يجعل الفرد الأمريكي يقف صامتاً وأحياناً باسماء عندما يطلق كل أنواع أسلحة الدمار الشامل على العرب والمسلمين في كل أرجاء المعمورة بل ويساعد ويشجع على ذلك وللمسألة جذور.



## الفصل الثاني الجنود



## الفصل الثاني الجدور

### المعنى اللفظي :

جاء في لسان العرب<sup>(١)</sup> (الصرع: الطرح بالأرض، وخصه في التهذيب بالإنسان، صَارَعَهُ صِرَاعاً وَصِرْعاً، فهو مصروع وصريع، والجمع صرعى، والمصارعة والصراع معالجتهم أيهما يصرع صاحبه. والصرع علة معروفة، والصرع المجنون، ومصارع القوم حيث قُتلوا، وفي الحديث: الصُرْعَة (بضم الصاد وفتح الراء مثل الهمزة)، الرجل الحليم عند الغضب، وهو المبالغ في الصراع الذي لا يُغلب).

وقد شغلت مشكلة تعريف العدوان والحكام والفلاسفة على مدى القرون العديدة. وقد انبثق مفهوم العدوان منذ أيام روما القديمة، ويعيد مؤرخو القانون مصطلح العدوان إلى الكلمة اللاتينية "Aggressio" أي الاعتداء. وكان من أقدم تعاريف الظاهرة "اعتداء من دولة أقوى على دولة أضعف لتحقيق مكاسب ومصالح والتوسع في حدود وثرورات المعتدي"، نجد في قواميس علم الإناسة (الأنثروبولوجيا) تعبير جماعة بدل دولة باعتبار العدوان قد سبق الدول<sup>(٢)</sup>.

وعلى مستوى المعتقد الديني، فإن (العهد القديم) لا يخلو من روح الصراع، وتعكس التوراة، هذه الروح التي تسري في كتاب يعد وحياً من الله. وقد تغلغت هذه الروح في المعتقدات الدينية، وفي العقائد الفلسفية، وفي الأعمال الأدبية والفنية، حتى صار الفكر الديني والفلسفي واقعاً تحت تأثير هذه الفكرة التي أصبحت جزءاً لا يتجزأ من الفكر الأوروبي، ومن الحضارة الغربية بصورة عامة. وحين يلتقي الفكر الصهيوني بالفكر التوراتي، يجد فيه النصير والملاذ، يصبح النص التوراتي قاعدة تربوية، ومحرضاً ثميناً على إنجاز كل مجازر الماضي والمجازر القادمة.

١- لمزيد من التفاصيل أنظر عبد العزيز بن عثمان التريجيري: صراع الحضارات في المفهوم الإسلامي، من منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة.

٢- هيثم مناع: محاضرة على هامش المؤتمر التأسيسي الأول للحملة العالمية ضد العدوان.

وفى التوراة جاء " امحقوهم عن آخرهم، أبيدوا حرثهم ونساءهم " ويقول تيودور هرتزل<sup>(٣)</sup> "إن التآخي العام بين الناس لا يعتبر حتى جميلاً، فالعدو شرط ضرورى لأرفع مجهودات الإنسان وأسماءها إن الإنسان الذى يخترع مادة شديدة الانفجار يعمل لأجل السلام أكثر من ألف داعية إلى اللطف والرفق واللين"<sup>(٤)</sup>.

جاء في سفر يشوع: "فهتف الشعب، وضربوا بالأبواق، وكان حين سمع الشعب صوت البوق أن هتف هتافاً عظيماً، فسقط السور في مكانه. وصعد الشعب إلى المدينة... وحزوا كل ما في المدينة، من رجل وامرأة، ومن طفل وشيخ، حتى البقر والغنم والحمير بحد السيف" سفر يشوع ٢/٢٠.

وجاء أيضاً: "وأخذها يشوع مقيدة في ذلك اليوم، وضربها بحد السيف، وحرّم ملكها، هو وكل نفس بها. ولم يبق شارد. وفعل بملك مقيدة كما فعل بملك أريحا، ثم اجتاز يشوع من مقيدة وكل إسرائيل معه إلى لينة، فضربها بحد السيف، وكل نفسه بها، ولم يبق شارداً. وفعل بملكها كما فعل بملك أريحا. "سفر يشوع ١٠/٢٨".

كما جاء في سفر التثنية ذلك النص البالغ الخطورة "حين تقترب من مدينة لكى تحاربها استدعها إلى الصلح فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك، وإن لم تسألك بل عملت معك حرباً فحاصرها وإذا دفعها الرب الهك الي يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف، وأما النساء ولأطفال والبهائم وكل ما فى المدينة كل غنيمتها فتغنمها لنفسك وتأكل غنيمة أعدائك التى أعطاك الرب إلهك، هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جداً التى

٣- تيودور هرتزل (١٨٦٠-١٩٠٤) صحفى يهودي نمساوي، ومؤسس الصهيونية السياسية المعاصرة. اسمه العبري الشخصي: بنيامين زليف. ولد في بودبست في ٢ مايو ١٨٦٠ وتوفي في إدلاخ (Edlach) بالنمسا في ٣ يوليو ١٩٠٤ التحق هرتزل بكلية القانون حتى حصل على الدكتوراه سنة ١٨٨٤ ثم اشغل بعدها فترة قصيرة في محاكم فيينا وسالزبورغ (Salzburg) ثم توجه إلى الأدب والتأليف. بداية من سنة ١٨٨٥.

وضع حجر الأساس لظهور الصهيونية السياسية وتأسس الحركة الصهيونية بعد العقد المؤتمر الصهيوني الأول في مدينة بازل السويسرية بين ٢٩ و ٣١ أغسطس ١٨٩٧ وانتخاب هرتزل رئيساً للمنظمة الصهيونية العالمية. بعد ذلك بدأ هرتسل عدة محادثات مع شخصيات عديدة من دول مختلفة، مثل القصر الألماني فيلهلم الثاني (Wilhelm II) الذي التقى به سنة ١٨٩٨ مرتين في ألمانيا وفي القدس أو السلطان العثماني عبد الحميد الثاني سنة ١٩٠١، بحثاً عن مؤيدين للمشروع الصهيوني. لكن جهوده فشلت وترك المجال مفتوحاً لمواصلة العمل على تأسيس الدولة.

٤- سليمان إبراهيم العسكوى: تربية العنصرية وازدواجية المعايير، مجلة العربي، عدد ٥٧٠ سنة ٢٠٠٦، ص ١٠.



ليست من مدن هؤلاء، أما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب الهك نصيباً فلا تستبق منها نسمة ما" (٥) !!!

وكانت حرب داود كلها حروب إبادة جماعية (٦) "وخرب داود الأرض ولم يستبق رجلاً ولا امرأة وأخذ غنماً وبقراً وحميراً وجمالاً وثياباً" (٧) .

هذه النصوص النموذجية التي تمجد العنف وحد السيف لا تقبع صامتة في صفحات كتاب قديم، بل هي المادة الأولية لتربية الشباب في المدارس "الإسرائيلية". وقد جسدت حياة السيد المسيح (عليه السلام) القصيرة ووصاياه نضالاً لا سابق له ضد منطق العدوان، حيث قامت أركان دعوته على منطق التماسك والتكامل بين الحقيقة والعدالة والحب والسلام. رغم ذلك بقيت الاتجاهات السلمية في التاريخ، داخل وخارج الأديان أضعف من تلك المناصرة لتجريم الحرب بكل أشكالها، "عادلة" كانت أم جائرة (٨) . ولعل خير ما يجسد هذه الروح ما جاء في إنجيل متى: "سمعت أنه قيل لكم: أن تحب قريبك وتبغض عدوك. أما أنا فأقول لكم: أحبوا أعداءكم، وباركوا لا عنيكم، وأحسنوا معاملة الذين يبغضونكم، وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطغدونكم" (٩) .

ولذلك لم تكن الحروب الصليبية تمت لتعاليم السيد المسيح (عليه السلام) بصله وما عجزت عنه الحروب الصليبية قديماً لا بد من تحقيقه الآن بشكل آخر. وهذه المرة سيتولى الشعب العبراني المهمة. فاليهود الذين اعتبر وجودهم في أوروبا غير مرغوب فيه لدى الكثير من الساسة والحكام الغربيين منذ القدم يمكن تهجيرهم بإرادتهم واستعمالهم وقوداً للمعركة الدائمة مع العالم الإسلامي من أجل إقامة دولة إسرائيل وبناء هيكل سليمان كشرط لعودة المسيح. وهذه العقلية هي التي أفرزت بروتوكولات (١٠) حكماء صهيون الشهيرة، فما هي بروتوكولات حكماء صهيون.

٥- سفر النضية ٢٠ (١٠-١٦).

٦- جمعة الجندی: ملامح العنف والإرهاب الصليبي في بلاد الشام، مكتبة مدبولي، ط١، ١٩٠٦، ص ١٩.

٧- صمويل الأول ٢٧ (٨-١٢).

٨- هبعم مناع، المرجع السابق.

٩- متى ٤٣: ٥.

١٠- البروتوكول وثيقة تحوي على محضر محادثات يجريها ممثلون دبلوماسيون. توضح الوثيقة أن الدبلوماسيين قد اتفقوا على مسائل مهمة.

### بروتوكولات حكماء صهيون<sup>(١١)</sup> :

"إن المكتوب في هذه البروتوكولات ينبغي أن يقنع من لهم آذان للسمع"  
ولذا سنورد بعضاً من تلك البروتوكولات التي تعد الزبد في تهيئة العقول  
والأمم للصدام الحضاري .

### البروتوكول الأول :

سنكون صرحاء، ونناقش دلالة كل تأمل. ونصل إلى شروح وافية بالمقارنة  
والاستنباط. وعلى هذا المنهج سأعرض فكرة سياستنا وسياسة الجوييم<sup>(١٢)</sup> .  
يجب أن يلاحظ أن ذوي الطبائع الفاسدة من الناس أكثر عدداً من ذوي الطبائع  
النبيلة. وإن فخير النتائج في حكم العالم ما ينتزع بالعنف والإرهاب، لا  
بالمناقشات الأكاديمية. كل إنسان يسعى إلى القوة، وكل واحد يريد أن يصير  
دكتاتورا، على أن يكون ذلك في استطاعته. وما أندر من لا ينزعون إلى إهدار  
مصالح غيرهم توصلا إلى أغراضهم الشخصية.  
ماذا كبح الوحوش المفترسة التي نسميها الناس عن الافتراس؟ وماذا حكمها  
حتى الآن؟ لقد خضعوا في الطور الأول من الحياة الاجتماعية للقوة الوحشية  
العمياء، ثم خضعوا للقانون، وما القانون في الحقيقة إلا هذه القوة ذاتها مقنعة  
فحسب. وهذا يتأدى بنا إلى تقرير أن قانون الطبيعة هو: الحق يكمن في القوة.

١١ - بروتوكولات حكماء صهيون: عبارة عن مجموعة من النصوص تتمحور حول خطة لسيطرة اليهود على العالم. تم نشر  
هذه النصوص لأول مرة في الإمبراطورية الروسية في جريدة زناميا في مدينة سانت بطرسبرغ عام ١٩٠٣ م. يرى العديد  
من المؤرخين أن هذه الكتابات هي مجرد خدعة وعصاة بعد إجراء تحقيق صحفي عام ١٩٢١ م حول مصداقية هذه  
الكتابات قامت به صحيفة التايمز اللندنية واستخلص إلى أن المقالات هي تزوير أدي لكتاب فرنسي (١) وتم نشر  
سلسلة من المقالات التي وصفت عملية التزوير. في نفس السنة - أي عام ١٩٢١ - تم طبع النص الكامل  
للبروتوكولات في الولايات المتحدة وفي عام ١٩٣٤ قام الطبيب السويسري زاندر Dr. A. Zander بنشر سلسلة  
من المقالات يصف فيه البروتوكولات حقيقة تاريخية ولكنه تعرض للمحاكمة لنشره تلك المقالات. هناك تيار فكري  
على كناعة بأن البروتوكولات هي حقيقة لأن تاريخ الحركة الصهيونية والنقود الاقتصادي اليهودي في العالم وإنشاء  
دولة إسرائيل ونقود اليهود على القرار السياسي في عدد من دول العالم ما هي إلا تطبيقات عملية بصورة أو بأخرى لما  
ورد في تلك البروتوكولات وهناك تيار آخر يصف البروتوكولات جزءاً من نظرية المؤامرة ومعاداة السامية ومعاداة  
الصهيونية وأن البروتوكولات في الأساس تم نشرها والدعاية لها من قبل الشيوعيين المعارضين لحكومة الإمبراطورية  
الروسية حيث بدأت بعد الثورة البلشفية عام ١٩١٧ م وعلى يد البلاشفة نشر أفكار مفادها أن اليهود يحاولون  
السيطرة على العالم.

١٢ - الجوييم هم غير اليهود.

أن الحرية السياسية ليست حرية حقيقية، بل فكرة. ويجب أن يعرف الإنسان كيف يسخر هذه الفكرة عندما تكون ضرورية، فيتخذها طعاما ليجتنب العامة إلى صفه، إذا كان قد قرر أن ينتزع سلطة منافس له. وتكون المشكلة يسيرة إذا كان المنافس موبوءاً بأفكار الحرية التي تسمى التحررية، ومن أجل هذه الفكرة يتخلى عن بعض سلطته. وبهذا يصير انتصار فكرتنا واضحاً؛ فإن أزمة الحكومة المتروكة خضوعاً لقانون الحياة ستقبض عليه يد جديدة. وما على الحكومة الجديدة إلا أن تحل محل القديمة التي أضعفتها التحررية، لأن قوة الجمهور العمياء لا تستطيع البقاء يوماً بلا قائد.

لقد طغت سلطة الذهب على الحكام المتحررين، ولقد مضى الزمن الذي كانت الديانة فيه هي الحاكمة. وأن فكرة الحرية لا يمكن أن تتحقق؛ إذ ما من أحد يستطيع استعمالها استعمالاً سديداً. يكفي أن يعطى الشعب الحكم الذاتي فترة وجيزة؛ لكي يصير هذا الشعب رعاعاً بلا تمييز، ومنذ تلك اللحظة تبدأ المنازعات وتندلع النيران في الدول ويزول أثرها كل الزوال.

وسواء أنهكت الدول القلائل الداخلية أم أسلمتها الحروب الأهلية إلى عدو خارجي، فإنها في كلتا الحالتين تعد قد خربت نهائياً كل الخراب، وستقع في قبضتنا. وأن الاستبدال المالي كله في أيدينا وسيمد للدولة عوداً لا مفر لها من التعلق به، لأنها إذا لم تفعل ذلك ستغرق في اللجة لا محالة.

ومن يكن متأثراً ببواعث التحررية فتخالجه الإشارة إلى أن بحثاً من هذا النمط منافية للأخلاق، فأسأله هذا السؤال: لماذا لا يكون منافياً للأخلاق لدى دولة يهددها عدوان؟ أحدهما خارجي والآخر داخلي أن تستخدم وسائل دفاعية ضد الأول تختلف عن وسائلها الدفاعية ضد الآخر، وأن تضع خطط دفاع سرية، وأن تهاجمه في الليل أو بقوات أعظم؟

ولماذا يكون منافياً للأخلاق هذه الدولة أن تستخدم هذه الوسائل ضد من يحطم أسس حياتها وسعادتها؟

هل يستطيع عقل منطقي سليم أن يأمل في حكم الغوغاء حكم ناجحاً باستعمال المناقشات والمجادلات، مع أنه يمكن مناقضة مثل هذه المناقشات والمجادلات بمناقشات أخرى، وربما تكون المناقشات الأخرى مضحكة غير أنها تعرض في صورة تجعلها أكثر إغراء في الأمة لجمهرتها العاجزة عن التفكير العميق، والهائلة وراء عواطفها التافهة وعادتها ونظريتها العاطفية.

أن الجمهور الغريير الغبي ومن ارتفعوا من بينه، لينغمسون في خلاقات حزبية تعوق كل إمكان للاتفاق ولو على المناقشات الصحيحة، لكن قرار الجمهور قد يتوقف على مجرد فرصة، أو أغلبية ملفقة تجيز لجهلها بالأسرار السياسية حلولاً سخيفة، فتبذر بذور الفوضى في الحكومة. أن السياسة لا تتفق مع الأخلاق في شيء. والحاكم المقيد بالأخلاق ليس بسياسي بارع، وهو لذلك غير راسخ على عرشه.

لا بد لطالب الحكم من الالتجاء إلى المكر والرياء، فإن الشرائع الإنسانية العظيمة من الإخلاص والأمانة تصير رذائل في السياسة، وأنها لتبلغ في زعزعة العرش أعظم مما يبلغه ألد الخصوم. هذه الصفات لا بد أن تكون صفات البلاد الأممية (غير اليهودية) ولكننا غير مضطرين إلى أن نقنطد بهم على الدوام.

أن حقنا يكمن في القوة. وكلمة الحق فكرة مجرد قائمة على غير أساس فهي كلمة لا تدل على أكثر من ((أعطني ما أريد لتمكيني من أن أبرهن لك بهذا على أنني أقوى منك)). أين بدء الحق وأين ينتهي؟ أي دولة يساء تنظيم قوتها، وتتسكن فيها هيبة القانون وتصير شخصية الحاكم بتراء عقيماً من جراء الاعتداءات التحررية المستمرة فإنني أأخذ لنفسني فيها خطأ جديداً للهجوم مستقيماً بحق القوة لتحطيم كيان القواعد والنظم القائمة، والإمساك بالقوانين وإعادة تنظيم الهيئات جميعاً. وبذلك أصبح ديكتاتوراً على أولئك الذين تخلوا بمحض رغبته عن قوتهم، وانعموا بها علينا.

وفي هذه الأحوال الحاضرة المضطربة لقوى المجتمع ستكون قوتنا أشد من أي قوة أخرى، لأنها ستكون مستورة حتى اللحظة التي تبلغ فيها مبلغاً لا تستطيع معه أن تتسلفها أي خطة مأكرة. ومن خلال الفساد الحالي الذي نلجئ إليه مكرهين ستظهر فائدة حكم حازم يعيد إلى بناء الحياة الطبيعية نظامه الذي حطمه التحررية. أن الغاية تبرر الوسيلة وعلينا ونحن نضع خططنا ألا نلتفت إلى ما هو خير وأخلاقي بقدر ما نلتفت إلى ما هو ضروري ومفيد.

وبين أيدينا خطة عليها خط استراتيجي موضح، وما كنا لننحرف عن هذا الخط إلا كنا ماضين في تحطيم عمل قرون. أن من يريد إنقاذ خطة عمل تتاسبه يجب أن يستحضر في ذهنه حقارة الجمهور وتقلبه، وحاجته إلى الاستقرار، وعجزه عن أن يفهم ويقدر ظروف عيشته وسعائته. وعليه أن يفهم أن قوة الجمهور عمياء خالية من العقل المميز، وأنه يعير سمعه ذات اليمين وذات الشمال.

إذا قاد الأعمى أعمى مثله فسيسقطان معا في الهاوية. وأفراد الجمهور الذين امتازوا من بين الهيئات ولو كانوا عباقرة لا يستطيعون أن يقودوا هيئاتهم كزعماء دون أن يحطموا الأمة. ما من أحد يستطيع أن يقرأ الكلمات المركبة من الحروف السياسية إلا من ينشأ تنشئة للملك الأوتقراطي (الأوتوقراطية) نظام الحكم الفرد المستبد المطلق) وأن الشعب المتروك لنفسه، أي للممتازين من الهيئات لتخطمه الخلافات الحزبية التي تنشأ من التهالك على القوة والأمجاد، وتخلق الهزاهز والفتن والاضطراب.

هل في وسع الجمهور أن يميزوا بهدوء ودون ما تحاسد، كي يديروا أمور الدولة التي يجب ألا تقتحم معها الأهواء الشخصية؟ وهل يستطيع أن يكون وقاية ضد عدو أجنبي؟ هذا محال. أن خطة مجزأة أجزاء كثيرة بعدد ما في أفراد الجمهور من عقول لهم خطة ضائعة لا محالة وغير قابلة للتنفيذ.

أن الجمهور بربري، وتصرفاته في كل مناسبة على هذا النحو، فما أن يضمن الرعاع الحرية، حتى يمسخوها لفوضى، والفوضى في ذاتها قمة البربرية. وحسبكم فانظروا إلى هذه الحيوانات المخمورة التي أفسدها الشراب، وأن كان لينظر لها من وراء الحرية منافع لا حصر لها فهل نسمح لأنفسنا وأبناء جنسنا بمثل ما يفعلون؟

ومن المسيحيين أناس قد أضلّتهم الخمر، وأنقلب شبانهم مجانين بالكلاسيكيات والمجون المبكر الذي أغراهم به وكلائنا ومعلمونا، وخدمنا، وكتبتنا، ونساؤنا في أماكن لهوهم. يجب أن يكون شعارنا ((كل وسائل العنف والخديعة)).

أن مبادئنا في مثل قوة وسائلنا التي نعدّها لتنفيذها، وسوف ننتصر ونستعبد الحكومات جميعا تحت حكومتنا العليا لا بهذه الوسائل فحسب بل بصرامة عقائدنا أيضا، وحسبنا أن يعرف عنا أننا صارمون في كبح كل تمرد.

كذلك كنا قديما أول من صاح في الناس ((الحرية والمساواة والإخاء))، كلمات ما انفكت ترددها ببيغاوات جاهلة متجمهرة من كل مكان حول هذه الشعائر، وقد حرمت بتردها العالم من نجاحه، وحرمت الفرد من حريته الشخصية التي كانت من قبل في حمي يحفظها من أن يخنقها السفلة.

أن صيحتنا ((الحرية والمساواة والإخاء)) قد جلبت في صفوفنا فرقا كاملة من زوايا العالم الأربع عن طريق وكلائنا المغفلين وقد حملت هذه الفرق ألويتنا في نشوة، بينما كانت هذه الكلمات تلتهم سعادة المسيحيين وتحطم سلامهم واستقرارهم ووحدهم ((ملاحظة: إقراء رواية الأخوة كرامازوف لدستوفسكي وستلمس صحة الكلام المذكور)) مدمرة بذلك أسس الدول وقد جلب هذا العمل النصر لنا كما سنرى بعد. ويتعبير آخر مكننا من سحق كيان الأرستقراطية الأممية التي كانت الحماية الوحيدة للبلاد ضدنا.

أن تجرد كلمة الحرية جعلها قادرة على إقناع الرعايا بأن الحكومة ليست شيئا آخر غير مدير ينوب عن المالك الذي هو الأمة. وأن في المستطاع خلعها كقفازين باليين. وأن الثقة بأن ممثلي الأمة يمكن عزلهم قد أسلمت ممثليهم لسلطاننا، وجعلت تعيينهم عمليا في أيدينا.

#### البروتوكول الثاني :

لا يلزم لغرضنا أن لا تحدث أي تغييرات إقليمية عقب الحروب، فبدون التعديلات الإقليمية ستتحول الحروب إلى سباق اقتصادي، وعندئذ تتبين الأمم تفوقنا في المساعدة التي سنقدمها، وأن اطراد الأمور هكذا سيضع الجانبين كليهما تحت رحمة وكلائنا الدوليين ذوي ملايين العيون الذين يملكون وسائل غير محدودة على الإطلاق. وعندئذ ستكتسح حقوقنا الدولية كل قوانين العالم. وسنحكم البلاد بالأسلوب ذاته الذي تحكم به الحكومات الفردية رعاياها.

وسنختار من بين لعامة رؤساء إداريين ممن لهم ميول العبيد، ولن يكونوا مدربين على فن الحكم، ولذلك سيكون من اليسير أن يمسخوا قطع شطرنج ضمن لعبتنا في أيدي مستشارينا العلماء الحكماء الذين دربوا خصيصا على حكم العالم منذ الطفولة السبكرة. وهؤلاء الرجال كما علمتم من قبل قد درسوا علم الحكم من خططنا السياسية، ومن تجربة التاريخ، ومن ملاحظة الأحداث الجارية. والأمميون (غير اليهود) لا يستفهمون بالملاحظات التاريخية المستمرة بل يتبعون نسقا نظريا من غير تفكير فيما أن تكون نتائجه. ومن أجل ذلك لسنا في حاجة إلى أن نقيم للأمميين وزنا.

دعوهم يتمتعوا ويفرحوا بأنفسهم حتى يلاقوا يومهم. أو يعيشوا ذكرياتهم للأحلام الماضية. دعوهم يعتقدوا أن هذه القوانين النظرية التي أوحينا إليهم بها إنما

القدر الأسمى من أجلهم. وبتقيد أنظارهم إلى هذا الموضوع، وبمساعدة صحافتنا نزيد ثقته العمياء بهذه القوانين زيادة مطردة. أن الطبقات المتعلمة ستختال زهوا أمام نفسها بعلمها، وستأخذ جزافا في مزاولة المعرفة التي حصلتها من العلم الذي قدمه إليها وكلائنا رغبة في تربية عقولها حسب الاتجاه الذي توخيناها.

لا تتصوروا أن تصريحاتنا كلمات جوفاء. ولاحظوا هنا أن نجاح دارون وماركس ونيثشه<sup>(١٣)</sup> قد رتبناه من قبل. والأثر غير الأخلاقي لاتجاهات هذه العلوم في الفكر الأممي سيكون وضحا لنا على التأكيد. ولكي نتجنب ارتكاب الأخطاء في سياستنا وعلما الإداري، يتحتم علينا أن ندرس ونعي في أذهننا الخط الحالي من الرأي، وهو أخلاق الأمة وميولها.

ونجاح نظريتنا هو في موافقتها لأمزجة الأمم التي تتصل بها، وهي لا يمكن أن تكون ناجحة إذا كانت ممارستها العلمية غير مؤسسة على تجربة الماضي مقترنة بملاحظات الحاضر.

أن الصحافة التي في أيدي الحكومة القائمة هي القوة العظيمة التي بها نحصل على توجيه الناس. فالصحافة تبين المطالب الحيوية للجمهور، وتعلن شكاوي الشاكين، وتولد الضجر أحيانا بين الغوغاء. وأن تحقق حرية الكلام ولد في الصحافة، غير أن الحكومات لم تعرف كيف تستعمل هذه القوة بالطريقة الصحيحة، فسقطت في أيدينا، ومن خلال الصحافة أحرزنا نفوذا، وبقينا نحن وراء الستار، وبفضل الصحافة كدسنا الذهب، ولو أن ذلك كلفنا أنهار من الدم: فقد كلفنا التضحية بكثير من جنسنا، ولكن كل تضحية من جانبنا تعادل آلاف من الأممين أمام الله.

#### البروتوكول الثالث :

أستطيع اليوم أن أؤكد لكم أننا على مدى خطوات قليلة من هدفنا، ولم تبقى إلا مسافة قصيرة كي تتم الأفعى الرمزية (شعار الصهيونية) دورتها. وحينما تغلق الدائرة ستكون كل دول أوربا محصورة فيها بأغلال لا تكسر.

١٣- فريدريك فيلهلم نيثشه (١٨٤٤-١٩٠٠) فيلسوف ألماني، عالم نفس، و عالم لغويات متميز. تميز بشخصية عدوانية جداً، وكونه ناسقدا حاداً للمبادئ الأخلاقية، و النفعية، والفلسفة المعاصرة، المادية، المثالية الألمانية، الرومانسية الألمانية، والحدادة عموماً. يعتبر من بين الفلاسفة الأكثر شيوعاً وتداولاً بين القراء. كثيراً ما توصف أعماله بأنها حامل أساسي لأفكار الرومانسية الفلسفية والعدمية ومعاداة السامية وحق النازية، يعتبر نيثشه في أغلب الأحيان إمام للمدارس الوجودية وما بعد الحدادة. وروح لأفكار اللاعقلانية والعدمية، استخدمت بعض آرائه فيما بعد من قبل الفكر النازي والقاشي.

أن كل الموازين البنائية القائمة ستتهار سريعا، لأننا على الدوام نفقدها توازنها كي نبليها بسرعة أكبر، ونمحق كفايتها.

لقد ظن الأمميون أن هذه الموازين قد صنعت ولها من القوة ما يكفي، وتوقعوا أن تزن الأمور بدقة، ولكن القوامين عليها أي رؤساء الدول كما يقال مرتبكون بخدمهم الذين لا فائدة لهم منهم، مقدودون كما هي عاداتهم بقوتهم المطلقة على المكيدة والدس بفضل المخاوف السائدة في القصور.

والملك لم تكن له سبل إلى قلوب رعاياه، ولهذا لم يستطع أن يحصن نفسه ضد مدبري المكائد والدسائس الطامحين إلى القوة، وقد فصلنا القوة المراقبة عن قوة الجمهور العمياء، ففقدت القوتان معا أهميتهما، لأنهما حين انفصلتا صارتا كأعمى فقد عصاه. ولكي نخزي الطامحين إلى القوة بأن يسيئوا استعمال حقوقهم وضعنا القوى: كل واحدة منها ضد غيرها، بأن في هذه الاتجاه ووضعنا أسلحة في أيدي كل الأحزاب، وجعلنا السلطة هدف كل طموح إلى الرفعة. وقد أقمنا ميادين تستجر فوقها الحروب الحزبية بلا ضوابط ولا التزامات. وسرعان ما ستتطلق الفوضى، وسيظهر الإفلاس في كل مكان.

لقد مسخ السثنارون الوقحاء المجالس البرلمانية والإدارية مجالس جدلية. والصحفيون الجريئون، وكتاب النشرات الجسورون يهاجمون القوى الإدارية هجوما مستمرا. وسوف يهيئ سوء استعمال السلطة تفتت كل الهيئات لا محالة، وسينهار كل شئ صريعا تحت ضربات الشعب الهائج. إن الناس مستعدون في عرق جباههم للفقير بأسلوب أفضح من قوانين رق الأرض. فمن هذا الرق يستطيعون أن يحرروا أنفسهم بطريقة أو بأخرى، على حين أنه لا شئ يحررهم من طغيان الفقر المطبق. ولقد حرصنا على أن نقحم حقوقا لهيئات خيالية محضة، فإن كل ما يسمى ((حقوق البشر)) لا وجود له إلا في المثل التي لا يمكن تطبيقها عمليا.

أن الحقوق الشعبية سخرية من الفقير، فإن ضروريات العمل اليومي تقعد به عن الظفر بأي فائدة على شاكلة هذه الحقوق، وكل حظها هو أن تتأى به عن الأجور المحدودة المستمرة، وتجعله يعتمد على الإضرابات والمخدومين والزملاء. وتحت حمايتنا أباد الرعاع الأرستقراطية التي عضدت الناس وحمتهم لأجل منفعتهم.



والآن يقع الشعب بعد أن حطم امتيازات الأرستقراطية تحت نيل الماكريين من المستغلين والأغنياء المحدثين.

أن الأرستقراطية التي تقاسم الطبقات العامة عملها قد أفادها أن هذه الطبقات العاملة طيبة الغذاء، جيدة الصحة، قوية الأجسام، غير أن فائدتنا نحن في ذبول الأمميين وضعفهم. وأن قوتنا تكمن في أن يبقى العامل في فقر ومرض دائمين، لأننا بذلك نستطيع عبدا لأرادتنا، وأن الجوع سيخول رأس المال حقوقا على العامل أكثر مما تستطيع سلطة الحكم الشرعية أن تخول الأرستقراطية من الحقوق. أن علم الأحوال الاجتماعية الصحيح الذي لا نسلم أسرار له للأميين سيقنع العالم أن الحرف والأشغال يجب أن تحصر في فئات خاصة كي لا تسبب متاعب إنسانية تنشأ عن تعليم لا يساير العمل الذي يدعي الأفراد إلى القيام به. وإذا ما درس الناس هذا العلم فسيخضعون بمحض إرادتهم للقوى الحاكمة وهيئت الحكومة التي رتبها. وفي ظل الأحوال الحاضرة للجمهور والمنهج الذي سمحنا له باتباعه يؤمن الجمهور في جهله إيماننا أعمى بالكلمات المطبوعة وبالأوهام الخاطئة التي أوحينا بها إليه كما يجب، وهو يحمل البغضاء لكل الطبقات التي يظن أنها أعلى منه، لأنه لا يفهم أهمية كل فئة. وأن هذه البغضاء ستصير أشد مضاء حيث تكون الأزمان الاقتصادية مستحكمة. لأنها ستوقف الأسواق والإنتاج، وسنخلق أزمة اقتصادية عالمية بكل الوسائل التي في قبضتنا، وبمساعدة الذهب الذي هو كله بأيدينا.

لقد أقنعنا الأمميون بأن مذهب التحررية سيؤدي بهم إلى مملكة العقل. وسيكون استبدادنا من هذه الطبيعة لأنه سيكون في مقام يقيم كل الثورات ويستأصل بالعنف اللازم كل فكرة تحررية من كل الهيئات.

تذكروا الثورة الفرنسية التي نسميها (الكبرى)، أن أسرار تنظيمها التمهيدي معروفة لنا جيدا لأنها من صنع أيدينا. ونحن من ذلك الحين نقود الأمم قدما من خيبة إلى خيبة، حتى أنهم سوف يتبرءون منا، لأجل الملك الطاغية من دم صهيون، وهو المالك الذي نعهده لحكم العالم. ونحن الآن كقوة دولية فوق المتناول، لأنه لو هجمتنا إحدى الحكومات الأممية لقامت بنصرنا أخريات. أن المسيحيين من الناس في خستهم الفاحشة ليساعدونا على استقلال حينما يخرؤا راكمين أمام القوة.

أن كلمة الحرية تزج بالمجتمع في نزاع مع كل القوى حتى قوة الله. وذلك هو السبب في أنه يجب علينا حين نستحوذ على السلطة أن نمحق كلمة الحرية من معجم

الإنسانية باعتبار أنها رمز القوة الوحشية الذي يمسخ الشعب حيوانات متعطشة للدماء. ولكن يجب أن نركز في عقولنا أن هذه الحيوانات تستغرق في النوم حينما تشبع من الدم، وفي تلك اللحظة يكون يسيرا علينا أن نسخرها وأن نستعبدوها.

#### البروتوكول الرابع:

كل جمهورية تمر خلال مراحل متنوعة: أولاها فترة الأيام الأولى لثورة العميان التي تكتسح وتخرب ذات اليمين وذات الشمال. والثانية هي حكم الغوغاء الذي يؤدي إلى الفوضى، ويسبب الاستبداد. أن هذا الاستبداد من الناحية الرسمية غير شرعي، فهو لذلك غير مسئول. وأنه خفي محجوب عن الأنظار ولكنه مع ذلك يترك نفسه محسوسا به. وهو على العموم تصرفه منظمة سرية تعمل خلف بعض الوكلاء، ولذلك سيكون أعظم جيرونا وجسارة. وهذه القوة السرية لن تفكر في تغيير وكلائها الذين تتخذهم ستارا، وهذه التغييرات قد تساعد المنظمة التي ستكون قادرة على تخليص نفسها من خدمها القداماء الذين سيكون من الضروري عندئذ منحهم مكافآت أكبر جزاء لخدمتهم الطويلة.

من ذا وماذا يستطيع أن يخلع قوة خفية عن عرشها؟ هذا هو بالضبط ما عليه حكومتنا الآن. أن المحفل الماسوني المنتشر في كل أنحاء العالم ليعمل في غفلة كقناع لأغراضنا. ولكن الفائدة التي نحن دائبون على تحقيقها من هذه القوة في خطة عملنا وفي مركز قيادتنا ما تزال على الدوام غير معروفة للعالم كثيرا. يمكن ألا يكون للحرية ضرر. وأن تقوم في الحكومات والبلدان من غير أن تكون ضارة بسعادة الناس، لو أن الحرية كانت مؤسسة على العقيدة وخشية الله، وعلى الأخوة والإنسانية، نقية من أفكار المساواة التي هي مناقضة مباشرة لقوانين الخلق. والتي فرضت التسليم. أن الناس محكومين بمثل هذه الإيمان سيكونون موضوعين تحت حماية كنائسهم\* (المقصود بكنائسهم الهيئات الدينية المختلفة) وسيعيشون في هدوء واطمئنان وثقة تحت إرشاد أئمتهم الروحيين، وسيخضعون لمشيئة الله على الأرض. وهذا هو السبب الذي يحتم علينا أن ننزع فكرة الله ذاتها من عقول المسيحيين، وأن نضع مكانها عمليات حسابية وضرورات مادية. ثم لكي نحول عقول المسيحيين عن سياستنا سيكون حتما علينا أن نبقيهم منهمكين في الصناعة والتجارة، وهكذا ستتنصرف كل الأمم إلى مصالحها. ولن

تفطن في هذا الصراع العالمي إلى عدوها المشترك. ولكن لكي تزلزل الحرية حياة الأمميين الاجتماعية زلزالا، وتدمرها تدميرا يجب علينا أن نضع التجارة على أساس المضاربة.

وستكون نتيجة هذا أن خيرات الأرض المستخلصة بالاستثمار لن تستقر في أيدي الأمميين بل ستعبر خلال المضاربات إلى خزائنا. أن الصراع من أجل التفوق. والمضاربة في عالم الأعمال ستخلق مجتمعا أنانيا غليظ القلب منحل الأخلاق. هذا المجتمع سيصير منحل كل الانحلال ومبغضا أيضا الدين والسياسة. وستكون شهوة الذهب رائده الوحيد. وسيكافح المجتمع من أجل الذهب متخذا الذات المادية التي يستطيع أن يمد بها الذهب مذهبا أصيلا. وحينئذ ستتضم إلينا الطبقات الوضيعة ضد منافسينا الذين هم الممتازون من الأمميين، دون احتجاج بدافع نبيل، ولا رغبة في الثورات أيضا بل تنقيسا عن كراهيتهم المحضة للطبقات العليا.

#### البروتوكول الخامس :

ما نوع الحكومة الذي يستطيع المرء أن يعالج به مجتمعات تفشت الرشوة والفساد في كل أنحاءها: حيث الغنى لا يتوصل إليه إلا بالمفاجآت الماكرة، ووسائل التدليس، وحيث الخلافات متحكمة على الدوام، والفضائل في حاجة إلى أن تعززها العقوبات والقوانين الصارمة، لا المبادئ المطاعة عن رغبة، وحيث المشاعر الوطنية والدينية مستغرقة في العقائد العلمانية. ليست صورة الحكومة التي يمكن أن تعطى هذه المجتمعات بحق ألا صورة الاستبداد التي سأصفها لكم.

إننا سننظم حكومة مركزية قوية، لكي نحصل على القوى الاجتماعية لأنفسنا. وسنضبط حياة رعايانا السياسية بقوانين جديدة كما لو كانوا أجزاء كثيرة جداً في جهاز. ومثل هذه القوانين ستكبح كل حرية، وكل نزعات تحررية يسمح بها الأمميون (غير اليهود)، وبذلك يعظم سلطاننا فيصير استبداداً يبلغ من القوة أن يستطيع في أي زمان وأى مكان سحق الساخطين المتمردين من غير اليهود. سيقال أن نوع الاستبداد الذي اقترحه لن يناسب تقدم الحضارة الحالي، غير أنى سأبرهن لكم على أن العكس هو الصحيح. إن الناس حينما كانوا ينظرون إلى ملوكهم نظرهم إلى إرادة الله كانوا يخضعون في هدوء لاستبداد ملوكهم. ولكن منذ

اليوم الذى أوحينا فيه إلى العامة بفكرة حقوقهم الذاتية - أخذوا ينظرون إلى الملوك نظراً إلى أبناء الفناء العاديين. ولقد سقطت المسحة المقدسة (أى زالت عنهم مسحة القداسة وأنكر الناس على الملوك الحق الإلهى المطلق فى حكم الشعوب) رعوس الملوك فى نظر الرعايا، وحينما انتزعنا منهم عقيدتهم هذه انتقلت القوة إلى الشوارع (أى صارت السلطة للشعوب لا الملوك وصارت الأمم مصدر السلطات) فصارت كالمملك المشاع، فاخترطناها. ثم إن من بين مواهبنا الإدارية التى نعدّها لأنفسنا موهبة حكم الجماهير والأفراد بالنظريات المؤلفة بدهاء، وبالعبارات الطنانة، وبسنن الحياة وكل أنواع الخديعة الأخرى. كل هذه النظريات التى لا يمكن أن يفهمها الأمميون أبداً مبنية على التحليل والملاحظة ممتزجين بفهم يبلغ من براعته ألا يجارينا فيه منافسونا أكثر مما يستطيعون أن يجارونا فى وضع خطط للأعمال السياسية والاقتصادية. وإن الجماعة المعروفة لنا ويمكن أن تتأقنا فى هذه الفنون ربما تكون جماعة اليسوعيين Jesuits، ولكننا نجحنا فى أن نجعلهم هزواً وسخرية فى أعين الرعايا الأغبياء، وهذه مع أنها جماعة ظاهرة بينما نحن أنفسنا باقون فى الخفاء محتفظون بمنظمتنا سراً.

ثم ما الفرق بالنسبة للعالم بين أن يصير سيده هو رأس الكنيسة الكاثوليكية،

وأن طاغية من دم صهيون؟

و لكن لا يمكن أن يكون الأمراء سواء بالنسبة إلينا نحن ((الشعب المختار)).

قد يتمكن الأمميون فترة من أن يسوسونا ولكننا مع ذلك لسنا فى حاجة إلى الخوف من أى خطر مادامنا فى أمان بفضل البذور العميقة لكرايتهم بعضهم بعضاً، وهى كراهية متأصلة يمكن انتزاعها.

لقد بذرنا الخلاف بين كل واحد وغيره فى جميع أغراض الأمميين الشخصية والقومية، بنشر التعصبات الدينية والقبلية خلال عشرين قرناً. ومن هذا كله تنقصر حقيقة: هى أن أى حكومة منفردة ان تجد لها سنداً من جارتها حين تدعوها إلى مساعدتها ضدها هو نكبة على كيانها الذاتى (هذه محنة من شر المحن التى تقاسيها الشعوب التى عظم فيها نفوذ اليهود، لأن هذا النفوذ غالباً يستعمل ضد مصلحة الشعوب، وإذا أرادت الأمة التخلص منه لم تستطع إلا بتضحية كثير من مصالحها لشدة الترابط بين مصالحها ومصالح اليهود، كما حدث فى ألمانيا بعد الحرب العالمية الأولى).

نحن أقوىاء جداً، فعلى العالم أن يعتمد علينا وينيب إلينا. وإن الحكومات لا تستطيع أبداً أن تبرم معاهدة ولو صغيرة دون أن نتدخل فيها سراً.  
(بحكمى فليحكم الملوك Per me reges regunt إنا نقرأ فى شريعة الأنبياء أننا مختارون من الله لنحكم الأرض، وقد منحنا الله العبقريّة، كى نكون قادرين على القيام بهذا العمل. إن كان فى معسكر أعدائنا عبرى فقد يحاربنا، ولكن القادم الجديد لن يكون كفواً لأيد عريقة كأيدنا (أى أن العبرى الجديد - كما يرون - لن يبلغ فى المقدرة على الحكم مبلغ حكماء صهيون الذين تدربوا على سياسة الجماهير منذ قرون يورث خلالها السابقون منهم اللاحقين أسرار السياسة ويدربونهم على الحكم).

إن القتال بيننا سيكون ذا طبيعة متهورة لم ير العالم لها مثيلاً من قبل. والوقت متأخر بالنسبة إلى عباقرتهم. وإن عجالات جهاز الدولة كلها تحركها قوة، وهذه القوة فى أيدينا هى التى تسمى الذهب.  
وعلم الاقتصاد السياسى الذى محصه علماؤنا الفحاطل قد برهن على أن قوة رأس المال أعظم من مكانة التاج.

ويجب الحصول على احتكار مطلق للصناعة التجارة، ليكون لرأس المال مجال حر، وهذا ما تسعى لاستكمالها فعلاً يد خفية فى جميع أنحاء العالم. ومثل هذه الحرية ستمنح التجار قوة سياسية، وهؤلاء التجار سيظللمون الجماهير بانتهاز الفرص.

وتجريد الشعب من السلاح هذه الأيام (إن تجريد الشعوب من السلاح، وخاصة فى الأوقات التى يتهدها فيها خطر خارجى، يخدم فى قلوبها الشجاعة والنخوة، ويغريها باليأس والاستسلام) أعظم أهمية من دفعه إلى الحرب، وأهم من ذلك أن نستعمل العواطف المتأججة فى أغراضنا بدلاً من إخمادها، وأن نشجع أفكار الآخرين ونستخدمها فى أغراضنا بدلاً من محوها. إن المشكلة الرئيسية لحكومتنا هى: كيف تضعف عقول الشعب بالانتقاد (إن النقد على غير أساس صحيح يربك العقول ويضلّلها، ويغريها بالإفراط فى الجدال لمحض الجدال، لا لرغبة فى معرفة الحق، وهو من شر البلايا التى تسلط على الشعوب الجاهلة، فليعرف ذلك المتطرفون فى الدين والوطنية) وكيف تفقدها قوة الإدراك التى تخلق نزعة المعارضة، وكيف تسحر عقول العامة بالكلام الأجوف.

فى كل الأمان كانت الأمم - مثلها مثل الأفراد - تأخذ الكلمات على أنها أفعال، كأنما هى قانعة بما تسمع، وقلما تلاحظ ما إذا كان الوعد قابلاً للوفاء فعلاً أم غير قابل له. ولذلك فإننا - رغبة فى التظاهر فحسب - سننظم هيئات بيرهن أعضاؤها بالخطب البليغة على مساعدتهم فى سبيل ((التقدم)) ويثنون عليها (هذه حقيقة جدية بالالتفات فى السياسة، والزعماء الدجالون يلجأون فى تضليل الشعوب إلى الوعود البراقة، وأن الجماهير الجاهلة تميل دائماً إلى تصديقها غفلة، أو أماً كاذباً فى تغيير الحال، أو ثقة خادعة بالزعماء، أو كل ذلك ونحوه).

وسنزيّف مظهرأً تحريراً لكل الهيئات وكل الاتجاهات، كما أننا سنضيف هذا المظهر على كل خطبائنا. وهؤلاء سيكونون ثرثارين بلا حد، حتى أنهم ستهكون الشعب بخطبهم، وسيجد الشعب خطابة من كل نوع أكثر مما يفيقه ويقنعه.

ولضمان الرأى العام يجب أولاً أن نحيره كل الحيرة بتغييرات من جميع النواحي لكل أساليب الآراء المتناقضة حتى يضيع الأمميون (غير اليهود) فى متاهتهم. وعندئذ سيفهمون أن خير ما يسلكون من طرق هو أن لا يكون لهم رأى فى المسائل السياسية. هذه المسائل ليقتصد منها أن يدركها الشعب بل يجب أن تظل من مسائل القادة الموجهين فحسب، وهذا هو السر الأول.

والسر الثانى (هذان السران من أخطر الأسرار السياسية، وعليهما تبنى النتائج الخطيرة المشار إلى بعضها فى الفقرة التالية لهما) - وهو ضرورى لحكومتنا السانحة - أن تتضاعف وتتضخم الأخطاء والعادات والعواطف والقوانين العرفية فى البلاد، حتى لا يستطيع إنسان أن يفكر بوضوح فى ظلامها المطبق، وعندئذ يتعطل فهم الناس بعضهم بعضاً.

هذه السياسة ستساعدنا أيضاً فى بذر الخلافات بين الهيئات، وفى تفكيك كل القوى المجتمعة، وفى تثبيط كل تفوق فردى ربما يعوق أغراضنا بأى أسلوب من الأساليب.

لا شىء أخطر من الامتياز الشخصى؛ فإنه إذا كانت وراءه عقول فربما يضرنا أكثر مما تضرنا ملايين الناس الذين وضعنا يد كل منهم على رقبة الآخر ليقبله. يجب أن نوجه تعليم المجتمعات المسيحية (هذا يشمل أيضاً المجتمعات غير المسيحية) فى مثل هذا الطريق: فكلما احتاجوا إلى كفاء لعمل من الأعمال فى أى حال من الأحوال سقط فى أيديهم وضلوا فى خيبة بلا أمل.

إن النشاط الناتج عن حرية العمل يستفد قوته حينما يصطدم بحرية الآخرين، ومن هنا تحدث الصدمات الأخلاقية وخيبة الأمل والفشل.

بكل هذه الوسائل سنضغط على المسيحيين (ليست عداوة لليهود مقصورة على المسيحيين بل تشمل كل من عدا اليهود، وهم يختصونهم بالذكر لأن الأمم المسيحية أكثر وأقوى مما عداها، فإذا انتصر اليهود عليهم سهل أن ينتصروا على المسلمين واليونانيين ونحوهم كما أشاروا إلى ذلك في مواضع هنا)، حتى يضطروا إلى أن يطلبوا منا أن نحكمهم دولياً. وعندما نصل إلى هذا المقام سنستطيع مباشرة أن نستنزف كل قوة الحكم في جميع أنحاء العالم، وأن نشكل حكومة عالمية عليا. وسنضع موضع الحكومات القائمة مارداً يسمى إدارة الحكومة العليا Administration of the super government وستمتد أيديهم كالمخالب الطويلة المدى، وتجت إمرته سيكون له نظام يستحيل معه أن يفشل في إخضاع كل الأقطار.

#### البروتوكول السادس :

سنبدأ سريعاً بتنظيم احتكارات عظيمة - هي صهاريج للثروة الضخمة - لتستغرق خلالها دائماً الثروات الواسعة للأمميين (غير اليهود) إلى حد أنها ستهبط جميعها وتهبط معها الثقة بحكومتها يوم تقع الأزمة السياسية (المقصود أن اليهود سيسحبون أموالهم في اللحظة الأخيرة).

وعلى الاقتصاديين الحاضرين بينكم اليوم أن يقدروا أهمية هذه الخطة. لقد انتهت أرستقراطية الأمميين كقوة سياسية، فلا حاجة لنا بعد ذلك إلى أن ننظر إليها من هذا الجانب. لكن الأرستقراطيين من حيث هم ملاك أرض ما يزالوا خطراً علينا؛ لأن معيشتهم المستقلة مضمونة لهم بمواردهم. ولذلك يجب علينا وجوباً أن نجرد الأرستقراطيين من أراضيهم بكل الأثمان، وأفضل الطرق لبلوغ هذا الغرض هو فرض الأجور والضرائب. إن هذه الطرق ستبقى منافع الأرض في أحط مستوى ممكن، وسرعان ما سينهار الأرستقراطيين من الأمميين، لأنهم - بما لهم من أدواق موروثه (أي أن الأرستقراطيين بما اعتادوه ونشئوا عليه من حب للترف وغرام للبذخ) يستطيعون أن يقنعوا بالمال القليل الذي تمدهم به غلات الأرض حين تنحدر في مستوى خفيض، فيضطرون إلى التنازل عن أراضيهم بالبيع أو الرهن) - غير قادرين على القناعة بالقليل.

وفى الوقت نفسه يجب أن نفرض كل سيطرة ممكنة على الصناعة والتجارة وعلى المضاربة بخاصة فإن الدور role الرئيسى لها أن تعمل كمعادل للصناعة. وبدون المضاربة ستزيد الصناعة رءوس الأموال الخاصة، وستتجه إلى إنهاض الزراعة بتحرير الأرض من الديون والرهن العقاري التى تقدمها البنوك الزراعية. وضرورى أن تستنزف الصناعة من الأرض كل خيراتها وأن تحول المضاريات كل ثروة العالم المستفادة على هذا النحو إلى أيدينا. وبهذه الوسيلة سوف يقذف بجميع الأمميين (غير اليهود) إلى مراتب العمال الصعاليك، Proletariat وعندئذ يخر الأمميون أماننا ساجدين ليظفروا بحق البقاء. ولكى نخرب صناعة الأمميين، ونساعد المضاريات؛ سنشجع حب الترف المطلق الذى نشرناه من قبل، وسنزيد الأجور التى لن تساعد العمال، كما أننا فى الوقت نفسه سنرفع أثمان الضروريات الأولية متخذين سؤ المحصولات الزراعية عذرا عن ذلك (رفع أجور العمال يرهق أصحاب الأعمال، وقد يعجزهم عن الاستمرار فى عملهم، وفى الوقت نفسه قد لا يستفيد العمال من رفع الأجور لأن أثمان المواد الضرورية مرتفعة فيضطرون إلى أنفاق أجورهم مهما ترتفع، على حين يغريهم اليهود بإدمان المسكرات ويثيرون فى نفوسهم عوامل الحسد والسخط على حياتهم، وخير ما تحارب به هذه الفكرة خفض أسعار المواد الضرورية ليستطيع العامل أن يعيش بأجره ولو كان منخفضا، وإفهامه أن حقه على المجتمع أن يكفل له ما يعيش به لا أن يكون فى غنى فلان وغيره، وليلاحظ القارئ سباق فئات الموظفين فى الحكومات والشركات فى المطالبة برفع الأجور، وهى حال سيئة تقوم الآن فى بعض بلادنا) كما سننسف بمهارة أيضا أسس الإنتاج ببذر بذور الفوضى بين العمال، وبتشجيعهم على إدمان المسكرات. وفى الوقت نفسه سنستعمل كل وسيلة ممكنة لطرد كل ذكاء أممى (غير يهودى) من الأرض. ولكيلا يتحقق الأمميون من الوضع الحق للأمور قبل الأوان؛ سنستره برغبتنا فى مساعدة الطبقات العاملة على حل المشكلات الاقتصادية الكبرى زان الدعاية التى لنظرياتنا الاقتصادية تعاون على ذلك بكل وسيلة ممكنة.

#### البروتوكول السابع :

أن ضخامة الجيش، وزيادة القوة البوليسية ضروريتان لإتمام الخطط السابقة



الذكر. وأنه ضرورة لنا، كي نبليغ ذلك. أن لا يكون إلى جوانبنا في كل الأقطار شئ بعد إلا طبقة صغاليك ضخمة، وكذلك جيش كثير وبوليس مخلص لأغراضنا. في كل أوروبا، وبمساعدة أوروبا يجب أن ننشر في سائر الأقطار الفتنة والمنازعات والعدوات المتبادلة. فإن في هذه فائدة مزدوجة: فأما أولاً بهذه الوسائل سنتحكم في أقدار كل الأقطار التي تعرف حق المعرفة أن لنا القدوة على خلق الاضطرابات كما نريد، مع قدرتنا على إعادة النظام، وكل البلاد معتادة على أن تنظر إلينا مستغيثة عند إلحاح الضرورة متى لزم الأمر. وأما ثانياً فبالمكايد والدسائس، وسوف نصطاد بكل أحابيلنا وشباكنا التي نصبناها في وزارات جميع الحكومات، ولم نحبكها بسياستنا فحسب، بل بالاتفاقات الصناعية والخدمات المالية أيضاً.

ولكي نصل إلى هذه الغايات يجب علينا أن ننطوي على كثير من الدهاء والخبث خلال المفاوضات والاتفاقات، ولكننا فيما يسمى ((اللغة الرسمية)) سوف نتظاهر بحركات عكس ذلك، كي نظهر بمظهر الأمين المتحمل للمسئولية. وبهذا سنتنظر دائماً إلينا حكومات الأمميين التي علمناها أن تقتصر في النظر على جانب الأمور الظاهرة وحدها كأننا متفضلون ومنقذون للإنسانية.

ويجب علينا أن نكون مستعدين لمقابلة كل معارضة بإعلان الحرب على جانب ما يجاورنا من بلاد تلك الدولة التي تجرؤ على الوقوف في طريقنا. ولكن إذا غدر هؤلاء الجيران فقرروا الاتحاد ضدنا فالواجب علينا أن نجيب على ذلك بخلق حرب عالمية.

أن النجاح الأكبر في السياسة يقوم على درجة السرية المستخدمة في اتباعها، وأعمال الدبلوماسية لا يجب أن تطابق كلماته. ولكي نعزز خطتنا العالمية الواسعة التي تقترب من نهايتها المشتهاة يجب علينا أن نتسلط على حكومات الأمميين بما يقال له الآراء العامة التي ندبرها نحن في الحقيقة من قبل، متوسلين بأعظم القوى جميعاً. وهي الصحافة، وأنها جميعاً لفي أيدينا إلا قليلاً لا نفوذ له ولا قيمة يعتد بها.

وبإيجاز، من أجل أن نظهر استعبادنا لجميع الحكومات الأممية في أوروبا سوف نبين قوتنا لواحدة منها متوسلين بجرائم العنف وذلك هو ما يقال له حكم الإرهاب وإذا اتفقوا جميعاً ضدنا فعندئذ سنجيبهم بالمدافع الأمريكية أو الصينية أو اليابانية.

## البروتوكول الثامن :

يجب أن نأمن كل الآلات التي قد يوجهها أعداؤنا ضدنا. وسوف نلجأ إلى أعظم التعبيرات تعقيداً وإشكالاً في معظم القانون - لكي نخلص أنفسنا - إذا أكرهنا على إصدار أحكام طائشة أو ظالمة، لأنه سيكون هاماً أن نعبر عن هذه الأحكام بأسلوب محكم، حتى تبدو للعامة أنها من أعلى نمط أخلاقي، وأنها عادلة وطبيعية حقاً. ويجب أن تكون حكومتنا محوطة بكل قوى المدينة التي ستعمل خلالها. إنها ستجذب إلى نفسها الناشئين والمحامين والأطباء ورجال الإدارة والدبلوماسيين، ثم القوم المنشئين في مدارسنا التقدمية الخاصة ((لا يخلوا قطر في العالم من صنائع اليهود بين هذه الطوائف المذكورة وغيرها ينفذون خطط صهيون ويخدمونها عن وعى وعن غير وعى)). هؤلاء القوم سيعرفون أسرار الحياة الاجتماعية، فسيتكئون من كل اللغات مجموعة في حروف وكلمات سياسية، وسيفقهون جيداً في الجانب الباطني للطبيعة الإنسانية بكل أوتارها هي التي تشكل عقول الأمميين، وصفاتهم الصالحة والطالحة، وميولهم وعيوبهم، من عجيب الفئات والطبقات. وضروري أن مستشاري سلطتنا هؤلاء الذين أشير هنا إليهم - لن يختاروا من بين الأمميين (غير اليهود) الذين اعتادوا أن يحتملوا أعباء أعمالهم الإدارية دون أن يتدبروا بعقولهم النتائج التي يجب أن ينجزوها، ودون أن يعرفوا الهدف من وراء هذه النتائج. إن الإداريين من الأمميين يؤشرون على الأوراق من غير أن يقرءوها ويعملون حياً في المال أو الرفعة، لا للمصلحة الواجبة.

إننا سنحيط حكومتنا بجيش كامل من الاقتصاديين، وهذا هو السبب في علم الاقتصاد هو الموضوع الرئيسي الذي يعلمه اليهود. وسنكون محاطين بالوف من رجال البنوك، وأصحاب الصناعات، وأصحاب الملايين - وأمرهم لا ينال أعظم قدراً - إذ الواقع أ، كل شيء سوف يقرره المال. ومادام ملء المناصب الحكومية بإخواننا اليهود في أثناء ذلك غير مأمون بعد - فسوف نعهد بهذه المناصب الخطيرة إلى القوم الذين ساءت صفاتهم وأخلاقهم، كي تقف مخازيهم فاصلاً بين الأمة وبينهم، وكذلك سوف نعهد بهذه المناصب الخطيرة إلى القوم الذين إذا عصوا أوامرنا توقعوا المحاكمة والسجن ((إن اليهود إنما يختارون عملاتهم غالباً من هؤلاء، فهم دائماً يحاولون استغلال أخط العناصر من أخط مشاعر النفس الإنسانية، وقد انتشر عملاتهم على هذا النحو في ميادين كثيرة لاسيما الإدارة الحكومية

والصحافة. وفي بلادنا العربية وغيرها كثير من عملائهم ذوى الصחائف السود بين الأدباء والوزراء ورجال الشركات ونحوهم. وهؤلاء العملاء ذوو ميول ونزعات مختلفة في الظاهر غالباً، وهم مندسون بين كل الطوائف والطبقات حتى الخدم في البيوت، والعاهرات مكشوفات ومستورات، والفنانين والفنانات والمطربين والمطربات والوصيفات في البيوت الثرية، وزعماء الشعوب وقادة الفكر، بل إن رجال الأديان مسيحيين ومسلمين لا يخلون من عناصر يهودية أو عناصر من عملاء اليهود تعمل لمصلحتهم، أو عناصر من أصول يهودية تنصرت أو أسلمت لتندمج مع المسيحيين والمسلمين دون أن تثير ريبتهم، وخاصة أن من أغراض اليهود القضاء على جميع الأديان، والتوصل لذلك باتخاذ عملاء لهم من رجال الأديان، أو دس يهود يدخلون في المسيحية أو الإسلام للكيد والهدم من الداخل، وهناك طائفة عددها ٤٠٠ أسلموا في مصر سنة ١٩٣٨، ١٩٤٢، وقد أشاروا في البروتوكولات إلى خطتهم ليصلوا إلى جعل بابا الفاتيكان منهم وهذا ليس بغريب على من عرف من تاريخهم في المسيحية والإسلام عشرات الأمثلة على ذلك)). والغرض من كل هذا أ، هم سيدافعون عن مصالحنا حتى النفس الأخير الذي تنفث صدورهم به.

#### البروتوكول التاسع :

عليكم أن توجهوا التفاتاً خاصاً في استعمال مبادئنا إلى الأخلاق الخاصة بالأمة التي أنتم بها محاطون، وفيها تعملون. وعليكم ألا تتوقعوا نجاحاً خلالها في استعمال مبادئنا بكل مشتملاتها حتى يعاد تعليم الأمة بأرائنا، ولكنكم إذا تصرفتم بسداد في استعمال مبادئنا فستكتشفون أنه قبل مضي عشر سنوات سيتغير أشد الأخلاق تماسكاً، وسنضيف كذلك أمة أخرى إلى مراتب تلك الأمم التي خضعت لنا من قبل.

أن الكلمات التحريرية لشعارنا الماسوني هي ((الحرية والمساواة والإخاء)) وسوف لا نبدل كلمات شعارنا، بل نصوغها معبرة عن فكرة، وسوف نقول: ((حق الحرية، وواجب المساواة، وفكرة الإخاء)).

وبها سنمسك الثور من قرنيه، وحينئذ نكون قد دمرنا في حقيقة الأمر كل القوى الحاكمة إلا قوتنا، وإن تكن هذه القوة الحاكمة نظرياً ما تزال قائمة. وحين

تقف حكومة من الحكومات نفسها موقف المعارضة لنا في الوقت الحاضر فإنما ذلك أمر صوري، متخذ بكامل معرفتنا ورضائنا، كما أننا محتاجون إلى انفجاراتهم المعادية للسامية، كي ما نتمكن من حفظ إخواننا الصغار في النظام.

وحقيقة الأمر أننا لا نلقي معارضة، فإن حكومتنا من حيث القوة الفائقة جدا ذات مقام في نظر القانون يتأدى بها إلى حد أننا قد نصفها بهذا التعبير الصارم: الدكتاتورية. وأنني أستطيع في ثقة أن أصرح اليوم بأننا أصحاب التشريع، وأننا المتسلطون في الحكم، والمقررون للعقوبات، وأننا نقضي بإعدام من نشاء ونعفو عن من نشاء، ونحن كما هو الواقع أولو الأمر الأعلون في كل الجيوش. ونحن نحكم بالقوة القاهرة، لأنه لا تزال في أيدينا القلول التي كانت الحزب القوي من قبل، وهي الآن خاضعة لسلطتنا. أن لنا طموحا لا يحد، وشرها لا يشبع، ونقمة لا ترحم. أننا مصدر إرهاب بعيد المدى. وأننا نسخر في خدمتنا أناسا من جميع المذاهب والأحزاب: رجال يرغبون في إعادة إنشاء الملكيات، واشتراكيين، وشيوعيين، وحالمين بكل أنواع الطوبيات (هي المدينة الفاضلة)، ولقد وضعناهم جميعا تحت السرج، وكل منهم على طريقته الخاصة ينسف ما بقى من السلطة، ويحاول أن يحطم كل القوانين القائمة. وبهذا التدبير تتعذب الحكومات، وتصرخ طلبا للراحة، وتستعد من أجل السلام لتقديم أي تضحية، ولكننا لن نمنحهم أي سلام حتى يعترفوا في ضراعة بحكومتنا الدولية العليا.

أننا نخشى تحالف القوة الحاكمة في الأمميين مع قوة الرعاع العمياء، غير أننا قد اتخذنا كل الاحتياطات لنمنع احتمال وقوع هذا الحادث. فقد أقمنا بين القوتين سدا قوامه الرعب الذي تحسه القوتان كل من الأخرى. وهكذا تبقى قوة الشعب سندا إلى جانبنا، وسنكون وحدنا قادتها، وسنوجهها لبلوغ أغراضنا.

ولكي لا تتحرر أيدي العميان من قبضتنا فيما بعد يجب أن نظل متصلين بالطوائف اتصالا مستمرا، وهو أن لم يكن شخصا فهو على أي اتصال من خلال أشد إخواننا إخلاصا، وعندما نصير قوة معروفة سنخاطب العامة شخصا في المجمع السوقية، وسنقفها في الأمور السياسية في أي اتجاه يمكن أن يلتزم مع ما يناسبنا. وكيف نستوثق مما يتعلمه الناس في مدارس الأقاليم؟ من المؤكد أن ما يقوله رسل الحكومة، أو ما يقوله الملك نفسه لا يمكن أن يخيب في الذبوع بين الأمة كلها، لأنه سرعان ما ينتشر بلغظ الناس.

ولقد خدعنا الجيل الناشئ من الأميين، وجعلناه فاسدا متعفنا بما علمناه من مبادئ. ونظريات معروف لدينا زيفها التام، ولكننا نحن أنفسنا الملقنون لها. ولقد حصلنا على نتائج مفيدة خارقة من غير تعديل فعلي للقوانين السارية من قبل، بل بتحريفها في بساطة، وبوضع تفسيرات لها لم يقصد إليها مشروعها. وقد صارت هذه النتائج أولا ظاهرة بما تحقق من أن تفسيراتنا قد غطت على المعنى الحقيقي، ثم مسختها تفسيرات غامضة إلى حد أنه استحال على الحكومة أن توضح مثل هذه المجموعة الغامضة من القوانين. ومن هنا قام مذهب عدم التمسك بحرفية القانون، بل الحكم بالضمير، ومما يتخلف فيه أن تستطيع الأمم النهوض بأسلحتها ضدنا إذا اكتشفت خططنا قبل الأوان. وتلافيا لهذا نستطيع أن نعتد على القذف في ميدان العمل بقوة رهبة سوف تملأ أيضا قلوب أشجع الرجال هولا ورعبا. وعندئذ ستقام في كل المدن الخطوط الحديدية المختصة بالعواصم، والطرق الممتدة تحت الأرض. ومن هذه الأنفاق الخفية سنفجر وننسف كل مدن العالم، ومعها أنظمتها وسجلاتها جميعا.

#### البروتوكول العاشر :

اليوم سأشرع في تكرار ما ذكر من قبل، وأرجو منكم جميعاً أن تتذكروا أن الحكومات والأمم تقنع في السياسة بالجانب المهرج الزائف من كل شيء، نعم، فكيف يتاح لهم الوقت لكي يختبروا بواطن الأمور في حين أن نوابهم الممثلين لهم لا يفكرون إلا في الملذات؟

من الخطير جداً في سياستنا أن نتذكروا التفصيل المذكور آنفاً، فإنه سيكون عوناً كبيراً لنا حينما نناقش مثل هذه المسائل: توزيع السلطة، وحرية الكلام، وحرية الصحافة والعقيدة، وحقوق تكوين الهيئات، والمساواة في نظر القانون، وحرمة الممتلكات والمساكن، ومسألة فرض الضرائب (فكرة سرية فرض الضرائب) والقوة الرجعية للقوانين. كل المسائل المشابهة لذلك ذات طبيعة تجعل من غير المستحسن مناقشتها علناً أمام العامة. فحينما تستلزم الأحوال ذكرها للرعاع يجب أن لا تحصي، ولكن يجب أن تنشر عنها بعض قرارات بغير مضي في التفصيل. سنعمل قرارات مختصة بمبادئ الحق المستحدث على حسب ما نرى. وأهمية الكتمان تكمن في حقيقة أن المبدأ الذي لا يذاع علناً يترك لما حرية

العمل، مع أن مبدأ كهذا إذا أعلن مرة واحدة يكون كأنه قد تقرر. إن الأمة لتحفظ لقوة العبقرية السياسية احتراماً خاصاً، وتحتمل كل أعمال يدها العليا، وتحببها هكذا: "يالها من حيلة قذرة، ولكن يا لتنفيذها بمهارة" "يالها من تدليس، ولكن يا لتنفيذه بإتقان وجسارة!" ((المعنى أن السياسى إذا خدع الجماهير ثم عرفت بخديعته لم تحتقره ولم تضره، بل تقابل خداعه لها بالدهشة، معجبة ببراعته فى أنه خدعها فإذا قيل لها: إنه غشاش، قالت: ولكنه بارع، وإذا قيل: إنه دجال قذر، قالت: ولكنه شجاع.. فهى تغالط نفسها حتى لا تعترف أمام نفسها بخطئها، وهذا السر من أدق أصول السياسة.

إننا نعتمد على اجتذاب كل الأمم للعمل على تشييد الصرح الجديد الذى وضعنا نحن تصميمه. ولهذا السبب كان من الضرورى لنا أن نحصل على خدمات الوكلاء المغامرين الشجعان الذين سيكون فى استطاعتهم أن يتغلوا على كل العقبات فى طريق تقدمنا.

وحيثما ننجز انقلابنا سنقول للناس: "لقد كان كل شىء يجرى فى غاية السوء، وكلكم قد تألمتم، ونحن الآن نمحق سبب آلامكم، وهو ما يقال له: القوميات، والعمليات القومية، وأنتم بالتأكيد أحرار فى اتهامنا، ولكن هل يمكن أن يكون حكمكم نزيها إذا نطقتم به قبل أن تكون لكم خبرة بما نستطيع أن نفعل من أجل خيركم؟" ((إن الشيوعية اليهودية كانت تنفذ هذه الخطة فى روسيا، وشيبه بهذا ما يحدث عقب انقلاب سياسى فى أمه إذ ينعى أصحابه على سابقهم أخطاءهم ويكبرونها ويتزيدون عليها ويرسمونها فى أشنع الصور، وهم يحرصون على ذلك أكثر من حرصهم على بيان محاسن حكمهم الجديد، سواء كانوا خيراً من السابقين أو شراً منهم، والدماء كالأنعام لا يميزون الخبيث من الطيب، ولكن العلية فى أعلى الأمم وأدناها هم المسئولون عن ذلك خير وشره، حتى حين يغلبهم السفهاء)).

حينئذ سيجملوننا على أكتافهم عالياً فى انتصار وأمل وابتهاج. وإن قوة التصويت التى دربنا عليها الأفراد التافهين من الجنس البشرى بالاجتماعات المنظمة وبالاتفاقات المدبرة من قبل، ستلعب عندئذ دورها الأخير، وهذه القوة التى توصلنا بها، كى "تضع أنفسنا فوق العرش"، ستؤدى لنا ديننا الأخير وهى مثله، كى ترى نتيجة قضيتنا قبل أن تصدر حكمها.

ولكى نحصل على أغلبية مطلقة - يجب أن نقنع كل فرد بلزوم التصويت من غير تمييز بين الطبقات. فإن هذه الأغلبية لن يحصل عليها من الطبقات المتعلمة، ولا من مجتمع مقسم إلى فئات.

فإذا أوحينا إلى عقل كل فرد فكرة أهميته الذاتية فسوف ندمر الحياة الأسرية ((كان اليهود يحاولون تحطيم نظام الأسرة في روسيا لأنه أقوى عقبة ضد نظامهم بل ويحاربونه علمياً في كل مكان كما يظهر من آراء "دوركاييم" اليهودي في علم الاجتماع في فرنسا)) بين الأميين، وتقصد أهميتها التربوية، وسنحرق الرجال ذوى العقول الحصيفة عن الوصول إلى الصدارة، وإن العامة - تحت إرشادنا - ستبقى على تأخر أمثال هؤلاء الرجال، ولن تسمح لهم أبداً أن يقرروا لهم خططاً ((هذه الخطة تنفذ اليوم بنجاح عظيم، والجماهير التي لا تحسن تقدير الأمور التي فوق مستواها، لا يعنيه إلا اللغط بما يقال لها دون تمييز، بل كلما انحط الشيء - ولو كان كذباً أو خطأ - كان أقرب إلى ذوقها وأرضى لها)).

لقد اعتاد الرعاع أن يصغوا إلينا نحن الذين نعطيهم المال لقاء سمعتهم وطاعتهم. وبهذه الوسائل سنخلق قوة عمياء إلى حد أنها لن تستطيع أبداً أن تتخذ أى قرار دون إرشاد وكلائنا الذين نصبناهم لغرض قيادتها.

وسخضع الرعاع لهذا النظام لأنهم سيعرفون أن هؤلاء القادة مصدر أجورهم وأرباحهم وكل منافعهم الأخرى. إن نظام الحكومة يجب أن يكون عمل رأس واحد، لأنه سيكون من المحال تكتيله إذا كان عملاً مشتركاً بين عقول متعددة، وهذا هو السبب فى أنه لا يسمح لنا إلا بعرفة خطة العمل، بل يجب ألا نناقشها بأى وسيلة، حتى لا نفقد تأثيرها، ولا نعطل وظائف أجزائها المنفصلة، ولا المعنى العملى لكل عنصر فيها، فلو نوقشت مثل هذه الخطط، وغيرت بتوالى الخضوع للتتحيات - إذن لاختلطت بعد ذلك بنتائج كل إساءات الفهم العقلية التى تنشأ من أن المصوتين لا يسبرون الأغوار العميقة لمعانيها، ولذلك لابد أن تكون خططنا نهائية ومحصنة تمحيصاً منطقياً. وهذا هو السبب فى أننا يجب أن لا نرمى العمل الكبير من قائلنا ليمزق أجزاء على أيدي الرعاع ولا على أيدي عصابة صغيرة أيضاً. إن هذه الخطط لن تقلب اليوم الدساتير والهيئات القائمة، بل ستغير نظريتها الاقتصادية فحسب، ومن ثم كل طريق تقدمها الذى لابد له حينئذ أن يتبع الطريق الذى تفرضه خططنا.

فى كل البلاد تقوم هذه الهيئات ذاتها ولكن تحت أسماء مختلفة فحسب: فمجالس نواب الشعب، والوزارات، والشيوخ، ومجالس العرش من كل نوع ومجالس الهيئات التشريعية والإدارية.

ولا حاجة بى إلى أن أوضح لكم التركيب الذى يربط بين هذه الهيئات المختلفة، فهو معروف لكم من قبل معرفة حسنة. ولتلاحظوا فحسب أن كل هيئة من الهيئات السالفة الذكر توافق وظيفة مهمة فى الحكومة. (إنى أستعمل الكلمة "مهمة" لا إشارة إلى الهيئات بل إشارة إلى وظائفها).

لقد اقتسمت هذه الهيئات فيما بين أنفسها كل وظائف الحكومة التى هى السلطة القضائية والسلطة التشريعية والسلطة التنفيذية. وقد صارت وظائفها مماثلة لوظائف الأعضاء المتميزة المتنوعة من الجسم الإنسانى.

فإذا آذينا أى جزء فى الجهاز الحكومى فستسقط الدولة مريضة كما يمرض الجسم الإنسانى، ثم يموت. وحينما حققنا نظام الدولة بسم الحرية تغيرت سحنها السياسية، وصارت الدولة موبوءة بمرض مميت، وهو مرض تحلل الدم Decomposition of the blood ولم يبق لها إلا ختام سكرات الموت.

لقد ولدت الحرية الحكومات الدستورية التى احتلت مكان الأوتقراطية وهى وحدها صورة الحكومة النافعة لأجل الأممين (غير اليهود). فالدستور كما تعلمون ليس أكثر من مدرسة للفتن والاختلافات والمشاحنات والهيجانات الحزبية العقيمة، وهو بإيجاز مدرسة كل شىء يضعف نفوذ الحكومة. وإن الخطابة، كالصحافة، قد مالت إلى جعل الملوك كسالى ضعافاً، فردتهم بذلك عقماء زائدين على الحاجة، ولهذا السبب عزلوا فى كثير من البلاد.

وبذلك صار فى الإمكان قيام عصر جمهورى، وعندئذ وضعنا فى مكان الملك ضحكة ((الضحكة الشخص الذى يضحك منه وهو ترجمة "Caricature" كاريكاتير" التى تعنى صورة هذلية مضحكة، والصور الكاريكاتيرية معروفة)) فى شخص رئيس يشبهه قد اخترناه من الدهماء بين مخلوقاتنا وعبيدنا.

وهكذا ثبتنا اللغم الذى وضعناه تحت الأممين، أو بالأحرى تحت الشعوب الأممية، وفى المستقبل القريب سنجعل الرئيس شخصاً مسئولاً.

ويومئذ لن نكون حائرين فى أن ننفذ بجسارَة خططنا التى سيكون "دميتنا" ((المقصود بالدمية هنا هو رئيس الجمهورية)) مسئولاً عنها، ماذا يعيننا إذا صارت



رتب طلاب المناصب الضعيفة، وهبت القلاقل من استحالة وجود رئيس حقيقة؟  
أليس هذه القلاقل هي التي ستطيح نهائياً بالبلاد؟

ولكى نصل إلى هذه النتائج سندبر انتخاب أمثال هؤلاء الرؤساء ممن تكون صحتهم السابقة مسودة بفضيحة بنامية Panama ((حين نجح "ديلبس" في حفر قناة السويس كلف بحفر قناة بنما بين أمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية، فخاب واتهم بالنصب والتدليس، وقدم للمحاكمة هو وابنه، كما قدم غيرهما ومات هو أثناء المحاكمة وسجن ابنه والمراد بالفضيحة البنامية فضيحة بتهمة شائنة كهذه الفضيحة، ومرتكب هذه الجريمة خاضع لمن يعرفون أسرارها، فاليهود يحاولون استغلالها في إكراهه على ما يريدون فيطيعهم خوفاً من الفضيحة. واليهود يختارون وكلاءهم عادة من هؤلاء كما ذكروا في آخر البروتوكول ٨)) أو صفقة أخرى سرية مريبة. إن رئيساً من هذا النوع سيكون منفذاً واقعياً لأغراضنا، لأنه سيخشى التشهير، وسيبقى خاضعاً لسلطان الخوف الذي يملك دائماً الرجل الذي وصل إلى السلطة، والذي يهدف على أن يستبقى امتيازاته وأمجاده المرتبطة بمركزه الرفيع. إن مجلس ممثلي الشعب سينتخب الرئيس ويحميه ويستره، ولكننا سنحرم هذا المجلس سلطة تقديم القوانين وتعديلها.

هذه السلطة سنعطئها الرئيس المسئول الذي سيكون ألوبة خالصة في أيدينا وفي تلك الحال ستصير سلطة الرئيس هدفاً معرضاً للهجمات المختلفة، ولكننا سنعطيه وسيلة الدفاع، وهي حقه في أن يستأنف القرارات محتكماً إلى الشعب الذي هو فوق ممثلي الأمة ((أي سيكون من حقه حل البرلمان، والاحتكام إلى الأمة لاختيار ممثلين جدد لها، لأنها صاحبة الحق في اختيار من يمثلونها، وفي أثناء عملية الانتخاب يعتمد اليهود على خداع الجماهير الغافلة التي لا تميز بين حق وباطل، ولا بين أمين وخائن، كي تنتخب صنائعهم، الذين سيؤيدون الرئيس في أعماله لخدمة اليهود، ولا اعتراض للأمة على أعمالهم لأنهم ممثلوها)) أي أن يتوجه الرئيس إلى الناس الذين هم عبيدنا العميان، وهم أغلبية الدهماء.

والى ذلك سنعطئ الرئيس سلطة إعلان الحكم العرفي، وسنوضح هذا الامتياز بأن الحقيقة هي أن الرئيس - لكونه رئيس الجيش - يجب أن يملك هذا الحق لحماية الدستور الجمهوري الجديد، فهذه الحماية واجبة لأنه ممثلها المسئول.

وفى مثل هذه الأحوال سيكون مفتاح الموقف الباطنى فى أيدىنا بالضرورة وما من أحد غيرنا سيكون مهيمناً على التشريع. ويضاف إلى ذلك أننا حين نقدم الدستور الجمهورى الجديد سنحوم المجلس - بحجة سر الدولة - حق السؤال عن القصد من الخطط التى تتخذها الحكومة. وبهذا الدستور الجديد سننقص كذلك عدد ممثلى الأمة إلى أقل عدد، منقصين بذلك عدداً مماثلاً من الأهواء السياسية، والولع بالسياسة ((لكل واحد ممن ممثلى الأمة نزعتة وهواه السياسى، ومصالحه الذاتية التى إذا لم يمكنه منها الإدارى هاجمه مستتراً بالوطنية ونحوها فى أمور سياسية أخرى لا صلة لها بمصلحته الخاصة وهذا لا يقع إلا فى أمه قاصرة الوعى السياسى، حديثة عهد بالديمقراطية، والمعنى أنه كلما قل ممثلو الأمة قلت النزعات والأهواء السياسية، وقلت المصالح للمثلى، فسهل على الإدارى مواجهتها واحتمالها لقلتها وهذا خطأ والمعول عليه فى الأمة هو الوعى السياسى)). وإذا صاروا معارضين بالرغم من هذا فإننا سنسمح للممثلىين الباقين بالاحتكام إلى الأمة، وسيكون حقاً لرئيس الجمهورية أن يعين رئيساً ووكيلاً لمجلس النواب، ومثلها لمجلس الشيوخ، ونستبدل بفترات الاعتقاد المستمرة للبرلمانات فترات قصيرة مدى شهور قليلة.

وإلى ذلك سيكون لرئيس الجمهورية - باعتباره رأس السلطة التنفيذية - حق دعوة البرلمان وحله، وسيكون له فى حالة الحل إرجاء الدعوة لبرلمان جديد. ولكن - لكيلا يتحمل الرئيس المسئولية عن نتائج هذه الأعمال المخالفة للقانون مخالفة صارخة، من قبل أن تبلغ خططنا وتستوى - سنغرى الوزراء وكبار الموظفين والإداريين الآخرين الذين يحيطون بالرئيس، كى يموهوا أوامره، وبذلك نضطرهم إلى تحمل المسئولية بدلاً من الرئيس، وسننصح خاصة بأن تضم هذه الوظيفة إلى مجلس الشيوخ أو إلى مجلس شورى الدولة، أو إلى مجلس الوزراء، وأن لا توكل إلى الأفراد ((وإذن تكون الحكومة أوتوقراطية ديكتاتورية فى الحقيقة، وديموقراطية شورية فى ظاهرها، إذ سيكون ممثلو الأمة أستاذاً أو آلات تنفذ ما تريده الإدارة الممثلة فى الرئيس وأعوانه، والحكومة الأوتوقراطية وحدها هى أمل اليهود لسهولة العبث بها وإخضاعها لشهواتهم الشيطانية)) وبإرشادنا سيفسر الرئيس القوانين التى يمكن فهمها بوجوه عدة.

وهو - فوق ذلك - سينقص القوانين في الأحوال التي فيها هذا النقص أمراً مرغوباً فيه، وسيكون له أيضاً حق اقتراح قوانين وقتية جديدة، بل له كذلك إجراء تعديلات في العمل الدستوري للحكومة محتجاً لهذا العمل بأنه أمر تقتضيه سعادة البلاد.

مثل هذه الإجراءات ستمكننا من أن نسترد شيئاً فشيئاً أى حقوق أو امتيازات كنا قد اضطررنا من قبل إلى منحها حين لم نكن مستحويين على السلطة أولاً. ومثل هذه الامتيازات سنقدمها في دستور البلاد لتغطية النقص التدريجي لكل الحقوق الدستورية، وذلك حين يحين الوقت لتغيير كل الحكومات القائمة، من أجل أوتقراطيتنا، إن تعرفنا لملكنا الأوتقراطي يمكننا أن نتحقق منه قبل إلغاء الدساتير، أعنى بالضبط أن نعرف حكمنا سيبدأ في اللحظة ذاتها حين يصرخ الناس الذين مزقتهم الخلافات وتعذبوا تحت إفلاس حكامهم (وهذا ما سيكون مدبراً على أيدينا) فيصرخون هاتقين "اخلعوه، وأعطونا حاكماً عالمياً واحداً يستطيع أن يوحدا، ويمحق كل أسباب الخلاف، وهي الحدود والقوميات والأديان والديون الدولية ونحوها .. حاكماً يستطيع أن يمنحنا السلام والراحة للذين لا يمكن أن يوجدوا في ظل حكومة رؤسائنا وملوكهم وممثلينا" ((هذا ما كانت تنفذه الشيوعية اليهودية في روسيا وتحاول نشره في العالم مما يدل على أن الشيوعية إنما تنفذ السياسة الصهيونية وأنها ليست إلا جزءاً منها وآلة لها (انظر الترجمة العربية لكتاب "أثرت الحرية" ))).

ولكنكم تعلمون علماً دقيقاً وأفياً أنه، لكي يصرخ الجمهور بمثل هذا الرجاء، لابد أن يستمر في كل البلاد اضطراب العلاقات القائمة بين الشعوب والحكومات، فتستمر العدوات والحروب، والكراهية، والموت استشهاده أيضاً، هذا مع الجوع والفقر، ومع نقشي الأمراض، وكل ذلك سيمتد إلى حد أن لا يرى الأمميون (غير اليهود) أى مخرج لهم من متاعبهم غير أن يلجأوا إلى الاحتماء بأموالنا وسلطتنا الكاملة ((أى إذا تركت للأمة فرصة تستريح فيها من المتاعب فإن ضيقها يخف قليلاً، فإذا دعيت للثورة على حالتها لم تلب النداء وصبرت على الضيق، لأن عندها بقية احتمال، ففترات الراحة المتقطعة ولو قصرت تهون على الأمة آلامها فلا تطلب التغيير عن طريق الثورة والانقلاب بل تحاول إصلاح أحوالها بالحكمة والصبر)).

ولكننا إذا أعطينا الأمة وقتاً تأخذ فيه نفسها فإن رجوع مثل هذه الفرصة سيكون من العسير.

#### البروتوكول الحادي عشر :

إن مجلس الدولة سيفصل ويفسر سلطة الحاكم، وأن هذا المجلس له مقدرته كهيئة تشريعية رسمية سيكون المجمع الذي يصدر أوامر القائمين بالحكم. وهما هو ذا برنامج الدستور الجديد الذي نعهده للعالم. أننا سنشرع القوانين، ونحدد الحقوق الدستورية وننفذها بهذه الوسائل:

- ١- أوامر المجلس التشريعي المقترحة من الرئيس.
- ٢- التوسل بأوامر عامة، وأوامر مجلس الشيوخ ومجلس شورى الدولة، والتوسل بقرارات مجلس الوزراء.
- ٣- والتوسل بانقلاب سياسي حينما تسنح اللحظة الملائمة.

هذا ومع تصميمنا تقريبا على خطة عملنا سنناقش من هذه الأجزاء ما قد يكون ضروريا لنا، كي يكمل الثورة في مجموعات دواليب جهاز الدولة حسب الاتجاه الذي وضحته من قبل. وأنا أقصد بهذه الأجزاء حرية الصحافة، وحقوق تشكيل الهيئات، وحرية العقيدة، وانتخاب ممثلي الشعب، وحقوقا كثيرة غيرها سوف تختفي من حياة الإنسان اليومية. وإذا هي لم تختف جميعا فسيكون تغييرها أساسيا منذ اليوم التالي لإعلان الدستور الجديد. وسنكون في هذه اللحظة المعينة وحدها آمنين كل الأمان، لكي نعلن كل تغييراتنا. وهناك سبب آخر هو إن التغييرات التي يحسها الشعب في أي وقت قد يثبت أنها خطيرة، لأنها إذا قدمت بعنف وصرامة وفرضت قهرا بلا تبصر فقد تسخط الناس، إذ هم سيخافون تغييرات جديدة في اتجاهات مشابهة. ومن جهة أخرى إذا كانت التغييرات تمنح الشعب ولو امتيازات أكثر فسيقول الناس فيها: أننا نعرفنا أخطاءنا. وأن ذلك يفض من جلال عصمة السلطة الجديدة. وربما يقولون أننا قد فزعنا واكرهنا على الخضوع.

وفي تلك الحالة لن يشكرنا العالم. كما أنهم سيعتدون أن من حقهم دائما الخضوع لما يريدون. وإذا أنطبع أي هذه الآثار على عقولهم فسيكون خطرا بالغا على الدستور الجديد.

انه ليلزمنا من اللحظة الأولى لإعلانه بينما الناس لا يزالون يتألمون من آثار التغيير المفاجئ، وهم في حالة فزع وبلبله أن يعرفوا أننا بلغنا من عظم القوة والصلاية والامتلاء بالعنف أفقا لن ننظر فيه إلى مصالحهم نظرة احترام. سنريد منهم أن يفهموا أننا لن نتكرر لأرائهم ورغباتهم فحسب، بل سنكون مستعدين في كل زمان وفي كل مكان لأن نخلق بيد جبارة أي عبارة أو إشارة إلى المعارضة.

سنريد من الناس أن يفهموا أننا استحوذنا على كل شيء أردناه، وأنها لن نسمح لهم في أي حال من الأحوال أن يشاركونا في سلطتنا. وعندئذ سيغمضون عيونهم على أي شيء بدافع الخوف، وسينتظرون في صبر تطورات أبعد. أن الأممين كقطيع من الغنم، وأنها الذئب. فهل تعلمون ما تفعل الغنم حينما تنفذ الذئب إلى الحظيرة؟؟ أنها لتغمض عيونها عن كل شيء. وإلى هذا المصير سدفعون، فستدعهم بأننا سنعيد إليهم حرياتهم بعد التخلص من أعداء العالم، واضطرب كل الطوائف إلى الخضوع.

أي سبب أغرانا بابتداع سياستنا، وبتلقين الأممين إياها؟ لقد أوحينا إلى الأممين هذه السياسة دون أن ندعهم يدركون مغزاها الخفي. وماذا حفزنا على اختيار هذا الطريق للعمل إلا عجزنا ونحن جنس مشتت عن الوصول إلى غرضنا بالطرق المستقيمة، بل بالمراوغة فحسب؟ هذا هو السبب الصحيح، والأصل في تنظيمنا للماسونية التي لا يفهمها أولئك الخنازير SWINE من الأممين، ولذلك لا يرتابون في مقصدها. ولقد أوقعناهم في كتلة محافلنا التي لا تبدو شيئا أكثر من ماسونية كي نذر الرماد في عيون رفقاءهم. (في البروتوكولات إشارات كثيرة إلى الصلة بين الماسونية والصهيونية).

من رحمة الله أن شعبه المختار مشتت، وهذا التشتت الذي يبدو ضعفنا فينا أمام العالم قد ثبت أنه كل قوتنا التي وصلت بنا إلى عتبة السلطة العالمية. ليس لدينا أكثر من أن نبني على هذه الأسس، لكي نصل إلى أهدافنا.

#### البروتوكول الثاني عشر :

إن كلمة الحرية التي يمكن أن تفسر بوجوه شتى سنحددها هكذا "الحرية هي حق عمل ما يسمح به القانون" تعريف الكلمة هكذا سينفعنا على هذا الوجه: إذ

سيترك لنا أن نقول أين تكون الحرية، وأين ينبغي أن لا تكون، وذلك لسبب بسيط هو أن القانون لن يسمح إلا بما نرغب نحن فيه.

وسنعامل الصحافة على النهج الآتي: ما الدور الذى تلعبه الصحافة فى الوقت الحاضر؟ إنها تقوم بتهييج العواطف الجياشة فى الناس، وأحياناً بإثارة المجادلات الحزبية الأثنية التى ربما تكون ضرورية لمقصدنا. وما أكثر ما تكون فارغة ظالمة زائفة، ومعظم الناس لا يدركون أغراضها الدقيقة أقل إدراك. إننا سنسرحها وسنقودها بلجم حازمة، وسيكون علينا أيضاً أن نظفر بإدارة شركات النشر الأخرى، فلن ينفعنا أن نهيمن على الصحافة الدورية بينما لا نزال عرضة لهجمات النشرات والكتب. وسنحول إنتاج النشر الغالى فى الوقت الحاضر مورداً من موارد الثروة يدر الربح لحكومتنا، بتقديم ضريبة دمغة معينة وبإجبار الناشرين على أن يقدموا لنا تأميناً، لكى نؤمن حكومتنا من كل أنواع الحملات من جانب الصحافة. وإذا وقع هجوم فنسفرض عليها الغرامات عن يمين وشمال. إن هذه الإجراءات كالرسوم والتأمينات والغرامات ستكون مورد دخل كبير للحكومة، ومن المؤكد أن الصحف الحزبية لن يردعها دفع الغرامات الثقيلة (سبب ذلك أن الأحزاب تتحمل عن صحفها ما تدفعه من غرامات فهي لا تبالي بالغرامة، ولكن الصحف غير الحزبية تدفع ما تغرم من مالها فهي لا تجرؤ جرأة الصحف الحزبية على أى هجوم وراءه غرم لها) ولذلك فإننا عقب هجوم خطير ثان - سنعطلها جميعاً. وما من أحد سيكون قادراً دون عقاب على المساس بكرامة عصمتنا السياسية. وسنعتذر عن مصادرة النشرات بالحجة الآتية، سنقول: النشرة التى صودرت تثير رأى العام على غير قاعدة ولا أساس.

غير أننى سأسألكم توجيه عقولكم إلى أنه ستكون بين النشرات الهجومية نشرات نصدرها نحن لهذا الغرض، ولكنها لا تهاجم إلا النقاط التى نعتزم تغييرها فى سياستنا. ولن يصل طرف من خبر إلى المجتمع من غير أن يمر على إرادتنا. وهذا ما قد وصلنا إليه حتى فى الوقت الحاضر كما هو واقع: فالأخبار تتسلمها وكالات قليلة ((أى الوكالات الإخبارية. ويلاحظ أن معظم هذه الوكالات تخضع لليهود الآن، فمعظم ما كانوا يشتبهونه قد تحقق لهم الآن)) تتركز فيها الأخبار من كل أنحاء العالم. وحينما نصل إلى السلطة ستتضمن هذه الوكالات جميعاً إلينا، ولن تنشر إلا ما نختار نحن التصريح به من الأخبار.

إذا كنا توصلنا في الأحوال الحاضرة إلى الظفر بإدارة المجتمع الأممي (غير اليهودي) إلى حد أنه يرى أمور العالم خلال المناظير الملونة التي وضعناها فوق أعينه: وإذا كان لم يقم حتى الآن عائق يعتاق وصولنا إلى أسرار الدولة. كما تسمى لغباء الأمميين، إذن - فماذا سيكون موقفنا حين نعرف رسمياً كحكام للعالم في شخص امبراطورنا الحاكم العالمي؟

ولنعد إلى مستقبل النشر. كل إنسان يرغب في أن يصير ناشراً أو كاتباً أو طابعاً سيكون مضطراً إلى الحصول على شهادة ورخصة تسحبان منه إذا وقعت منه مخالفة.

والقنوات ((المراد بالقنوات المطبوعات التي يعبر الناس فيها عن آرائهم كالكتب والرسائل والنشرات ونحوها)) التي يجد فيها التفكير الإنساني ترجماناً له - ستكون بهذه الوسائل خالصة في أيدي حكومتنا التي ستخذها هي نفسها وسيلة تربوية، وبذلك ستمنع الشعب أن ينقاد للزيغ بخيال "التقدم" والتحرر. ومن منا لا يعرف أن السعادة الخيالية هي أن "التقدم" أو بالأحرى فكرة التقدم التحرري قد أمدت الناس بأفكار مختلطة للعق من غير أن تضع أي حد له. إن كل من يسمون متحررين فوضويون، إن لم يكونوا في عملهم ففي أفكارهم على التأكيد. كل واحد منهم يجري وراء طيف الحرية ظاناً أنه يستطيع أن يفعل ما يشاء، أي أن كل واحد منهم ساقط في حالة فوضى في المعارضة التي يفضلها لمجرد الرغبة في المعارضة.

ولنناقش الآن أمر النشر: إننا سنفرض عليه ضرائب بالأسلوب نفسه الذي فرضنا به الضرائب على الصحافة الدورية، أي عن طريق فرض دمغات وتأمينات ولكن سنفرض على الكتب التي تقل عن ثلاثمائة صفحة ضريبة مضاعفة في ثقلها ضعفين. لكي نقتل نشر الدوريات التي تكون أعظم سموم النشر فتكاً. وهذه الإجراءات ستكره الكتاب أيضاً على أن ينشروا كتباً طويلة، ستقرأ قليلاً بين العامة من أجل طولها، ومن أجل أثمانها العالية بنوع خاص. ونحن أنفسنا سننشر كتباً رخيصة الثمن كي نعلم العامة ونوجه عقولهم في الاتجاهات التي نرغب فيها. إن فرض الضرائب سيؤدي إلى الإقلال من كتابة أدب الفراغ الذي لا هدف له. وإن كون المؤلفين مسئولين أمام القانون سيضعهم في أيدينا، ولن يجد أحد يرغب مهاجمتنا بقلمه ناشراً ينشر له.

قبل طبع أى نوع من الأعمال سيكون على الناشر أو الطابع أن يلتزم من السلطات إذنًا بنشر العمل المذكور. وبذلك سنعرف سلفاً كل مؤامرة ضدنا، وسنكون قادرين على سحق رأيها بمعرفة المكيدة سلفاً ونشر البيان عنها. الأدب والصحافة هما أعظم قوتين تعليميتين خطيرتين. ولهذا السبب ستشتري حكومتنا العدد الأكبر من الدوريات.

وبهذه الوسيلة سنعطّل التأثير السيئ لكل صحيفة مستقلة، ونظفر بسلطان كبير جداً على العقل الإنسانى. وإذا كنا نرخص بنشر عشر صحف مستقلة فسنشرع حتى يكون لنا ثلاثون، وهكذا دواليك.

ويجب ألا يرتاب الشعب أقل رغبة فى هذه الإجراءات. ولذلك فإن الصحف الدورية التى ننشرها ستظهر كأنها معارضة لنظراتنا وآرائنا، فتوحى بذلك الثقة فالى القراء، وتعرض منظراً جذاباً لأعدائنا الذين لا يرتابون فينا، وسيقعون لذلك فى شركنا ((أى سيكشفون أنفسهم فيها لليهود، ويمكنون لهم من الاتصال بهم، فيعاملونهم بما يضمن ولاءهم، ويضعهم تحت رحمتهم كما وضحت السطور التالية))، وسيكونون مجردين من القوة.

وفى الصف الأول سنضع الصحافة الرسمية. وستكون دائماً بقضة للدفاع عن مصالحنا، ولذلك سيكون نفوذها على الشعب ضعيفاً نسبياً. وفى الصف الثانى سنضع الصحافة شبه الرسمية Semi official التى سيكون واجبها استمالة المحايدين وفاتر الهممة، وفى الصف الثالث سنضع الصحافة التى تتضمن معارضتنا، والتى ستظهر فى إحدى طبعاتها مخاصمة لما، وسيتخذ أعداؤنا الحقيقيون هذه المعارضة معتمداً لهم، وسيتركون لنا أن نكشف أوراقهم بذلك.

ستكون لنا جرائد شتى تؤيد الطوائف المختلفة: من أرستقراطية، وجمهورية، وثورية، بل فوضوية أيضاً. وسيكون ذلك طالما أن الدساتير قائمة بالضرورة. وستكون هذه الجرائد مثل الإله الهندى فشنو Vishnu ((فشنو هو اسم إله هندى بمعنى الشامل أو الحافظ أو الحامى، وتمثال فشنو يصور على هيئة إنسان له أيد كثيرة، وهذه الأيدي تشير إلى عمله ومداه، فالأيدى علامة الحماية وكثرتها علامة شمولها وامتدادها إلى كل شىء)). لها مئات الأيدى، وكل يد ستجس نبض رأى العام المتقلب.



ومتى ازداد النبض سرعة فإن هذه الأيدي ستجذب الرأى نحو مقصدنا، لأن المريض يحتاج الأعصاب سهل الانقياد وسهل الوقوع تحت أى نوع من أنواع النفوذ. وحين يمضى الثرثارون فى توهم أنهم يرددون رأى جريدتهم الحزبية فإنهم فى الواقع يرددون رأينا الخاص، أو الرأى الذى نريده. ويظنون أنهم يتبعون جريدة حزبهم على حين أنهم، فى الواقع، يتبعون اللواء الذى سنحركه فوق الحزب، ولكى يستطيع جيشنا الصحافى أن ينفذ روح هذا البرنامج للظهور، بتأييد الطوائف المختلفة - يجب علينا أن ننظم صحافتنا بعناية كبيرة.

وباسم الهيئة المركزية للصحافة Central Commission of Press سننظم اجتماعات أدبية وسيعطى فيها وكلاؤنا - دون أن يفتن إليهم - شارة للضمان Countersign وكلمات السر Passwords. وبمناقشة سياستنا ومناقضتها، ومن ناحية سطحية دائماً بالضرورة، ودون مساس فى الواقع بأجزائها المهمة - سيستم أعضاءنا فى مجادلات زائفة شكلية مع الجرائد الرسمية، كى تعطينا حجة لتحديد خططنا بدقة أكثر مما نستطيع فى إذاعتنا البرلمانية. وهذه بالضرورة لا يكون لمصلحتنا فحسب، وهذه المعارضة من جانب الصحافة ستخدم أيضاً غرضنا، إذ تجعل الناس يعتقدون أن حرية الكلام لا تزال قائمة كما أنها ستعطى وكلاءنا Agents فرصة تظهر أن معارضينا يأتون باتهامات زائفة ضدنا، على حين أنهم عاجزون عن أن يجدوا أساساً حقيقياً يستندون عليه لنقض سياستنا وهدمها. هذه الإجراءات التى ستخفى ملاحظتها على انتباه الجمهور - ستكون أنجح الوسائل فى قيادة عقل الجمهور، وفى الإحياء إليه بالثقة والاطمئنان إلى جانب حكومتنا.

وبفضل هذه الإجراءات سنكون قادرين على إثارة عقل الشعب وتهديته فى المسائل السياسية، حينما يكون ضرورياً لنا أن نفعل ذلك، وسنكون قادرين على إقناعهم أو بلبلتهم بطبع أخبار صحيحة أو زائفة؛ حقائق أو ما يناقضها، حسبما يوافق غرضنا. وإن الأخبار التى سننشرها ستعتمد على الأسلوب الذى يتقبل الشعب به ذلك النوع من الأخبار، وسنحتاط دائماً احتياطاً عظيماً لجس الأرض قبل السير عليها. إن القيود التى سنفرضاها على النشرات الخاصة، كما بينت، إذ لن تكون لديهم وسائل صحفية تحت تصرفهم يستطيعون حقيقة أن يعبروا بها تعبيراً كاملاً عن آرائهم، ولن نكون مضطرين ولو إلى عمل تنفيذ كامل لقضاياهم.

والمقالات الجوفاء Ballon d'essai التي سنلقى بها في الصف الثالث من صحافتنا سنفندها عفواً، بالضرورة، تنفيذاً شبه رسمي Semi-officially.

يقوم الآن في الصحافة الفرنسية نهج الفهم الماسوني ((أي تكوين الجماعة سرياً، والتفاهم بين أعضائها بطريقة لا يفهمها غيرهم)) لإعطاء شارات الضمان Countersigns فكل أعضاء الصحافة مرتبطون بأسرار مهنية متبادلة على أسلوب النبوءات القديمة Ancient oracles ولا أحد من الأعضاء سيفشى معرفته بالسر، على حين أن مثل هذا السر غير مأمور بتعميمه. ولن تكون لناشر بمفرده الشجاعة على إفشاء السر الذي عهد به إليه، والسبب هو أنه لا أحد منهم يؤذن له بالدخول في عالم الأدب ما لم يكن يحمل سمات ((السمات، جمع سمة وهي العلامة والمراد هنا: وصمة عار وخزي)) بعض الأعمال المخزية في حياته الماضية. وليس عليه أن يظهر إلا أدنى علامات العصيان حتى تكشف فوراً سماته المخزية. وبينما تظل هذه السمات معروفة لعدد قليل تقوم كرامة الصحفي بجذب الرأي العام إليه في جميع البلاد، وسينقاد له الناس ويعجبون به.

و يجب أن تمتد خططنا بخاصة إلى الأقاليم Provinces وضروري لنا كذلك أن نستطيع في أي وقت أن ننزلها إلى العاصمة بتقديمها كأنها آراء محايدة للأقاليم.

وطبعاً لن يتغير منبع الفكرة وأصلها: أعني أنها ستكون عندنا.

ويلزمنا، قبل فرض السلطة، أن تكون المدن أحياناً تحت نفوذ رأى الأقاليم - وهذا يعني أنها ستعرف رأى الأغلبية الذي ستكون قد دبرناه قبل، ومن الضروري لنا أن لا تجد العواصم في فترة الأزمة النفسية وقتاً لمناقشة حقيقة واقعة، بل تتقبلها ببساطة، لأنها قد أجازتها الأغلبية في الأقاليم.

و حينما نصل إلى عهد المنهج Regime الجديد - أي خلال مرحلة التحول إلى مملكتنا - يجب أن لا نسمح للصحافة بأن تصف الحوادث الإجرامية: إذ سيكون من اللازم أن يعتقد الشعب أن المنهج الجديد مقنع وناجح إلى حد أن الإجرام قد زال.

وحيث تقع الحوادث الإجرامية يجب أن لا تكون معروفة إلا لضحيّتها ولمن يتفق له أن يعاينها فحسب ((المعنى هو أن الجريمة لا يراها إلا المصاب بها، ومن يشهدا لأنه كان في مكان الجريمة مصادفة.

وهكذا صنع اليهود الزيت الذى يحترق على خطاهم ولأنه من المعتاد أن لا يرقص أحد على أنغام الأرغن والآلات الموسيقية التى تعزف فى الكنائس إلا أن اليهود يحق لهم أن يرقصوا !! لأن عالمهم تحصنت طرقاته، وحتى اللصوص منهم امسكوا فى أيديهم القنابل الذرية!!<sup>(١٤)</sup> .



## الفصل الثالث

### الغرب وجذور الصدام



### الفصل الثالث الغرب وجذور الصدام

يا للحرب من شيء بهيج أعتقد أن الرب يفضل هؤلاء المناضلين!!  
لوجوفينال

لا شك فى أن أيام الإنسان الباكرة كانت أياماً عنيفة وأن البيئة كانت أكبر أعدائه وظهرت أسلحة الإنسان البدائي كأول محاولة للمواجهة والحرب وتمثلت فى الحجر المدبب والخنجر الحجرى والسهم والقوس وخلال العشرة آلاف سنة الأخيرة فقط خرج الإنسان من طوق الطبيعة، وأمسك بزمام حياته. ويترك تاريخ البشرية فى الحلق غصة بكل ما يتعلق بالحرب، وإن أظهرت معطيات علم الإناسة أن الحرب ظاهرة منتشرة بكثرة وإن اختلف تواترها وتواجدها بين الشعوب وكان لبعضها مثل الاسكيمو Eskimos والأندمانيز Andamanais الاعتزاز بعدم ممارستها، فمن الصعب معرفة كم من الشعوب المسالمة قد أبيدت لأن خيار السلام لم يكن عالمياً وبقي قانون الغاب يعطي الأقوى، بالمعنى العسكري للكلمة، الحق فى البقاء والهيمنة<sup>(١)</sup>. ومنذ ثلاثمائة عام عرف العالم ثورته الثانية فى الصناعة وكانت نقلة نوعية انتقلت بالإنسان وقدراته إلى مجالات ما كانت تخطر له على بال<sup>(٢)</sup> ومنذ عدة عقود اقتحم عقبات ثورة ثالثة هي ثورة المعلومات والاتصالات التي تمثل نقلة أخرى فى حياة الإنسان وأخرج الغرب العديد من نظريات السيطرة والقوة والسيادة والإبادة وأخها نظرية صدام الحضارات. وتعتبر نظرية صراع الحضارات نموذج جسد وبلور ما فى نفوس أولئك الذين جاءوا من نسل السفاحين والقتلة<sup>(٣)</sup> ومن أوضح الدلائل على سعي الحضارة الغربية المعاصرة إلى المواجهة والصدام مدعين أننا أهل الشرق من بدأنا!! ولذلك سنتعرض بموضوعية لتفنيد تلك الأقوال والمزاعم عبر الزمان والمكان.

١- هيلم مناع: المرجع السابق.

٢- غالب علي جيل: صحيفة ٢٦ سبتمبر، العدد رقم: ١١٧٠، ص ١٣.

٣- هذه حقيقة تاريخية وليست تكهنات أو الفراءات ولاجماع المؤرخين فى الشرق والغرب.

**والمسألة أيضاً لها جذور:**

ينبغي أن نجلو ابتداءً، حقيقةً من الحقائق التي تتطوي عليها الحضارة الغربية الراهنة، وهي أن فكرة الصراع أصل في هذه الحضارة، وأسس من الأسس الثابتة التي يقوم عليها الموروث الغربي، وثقافته التي هي وريثة الحضارتين اليونانية والرومانية القديمتين، وهو جذر ثابت من جذور الفكر الأوروبي في أطواره التاريخية المتعاقبة وهذا ما سنوضحه في الآتي:

**أولاً: العصر اليوناني:**

كانت بلاد اليونان هي المهد الأول للحضارة الأوروبية القديمة وما زال الأوروبيون يفخرون بكبار الأعلام من العلماء والفلاسفة والمشرعين الذين أنجبهم الحضارة اليونانية، ولم يرتبط تاريخ الحضارة اليونانية برقعة محدودة من الأرض وإنما يرتبط تاريخها بالبلاد الواسعة التي انتشر فيها اليونانيون على امتداد سواحل البحر المتوسط وفي جزره.

ذلك أن جغرافية بلاد اليونان وطبيعتها كانت تجسداً حياً لنظرية عبقرية المكان حيث تركت أثراً عميقاً في أحوال اليونانيين ومعيشتهم وحضارتهم وثقافتهم، فهذه البلاد ضيقة الرقعة، صعبة التضاريس، معظمها جبلي، تتخلل جبالها سهول ضيقة ليست على درجة كافية من الخصوبة والثروة مما أوجد صعوبة توحيد البلاد في ظل حكومة واحدة، وكانت سواحل البلاد كثيرة التعاريج والخلجان فنتج عن ذلك صعوبة البيئة وفقرها وعدم تقبل الزيادة السكانية فاضطر الناس إلى الخروج نحو السواحل وانطلقوا في البحار حيث التفتح والحركة وتقبل الجديد وهضمه وامتصاصه.

وقد سادت مفاهيم الصراع بدلالاتها المتعددة ومعانيها المتنوعة، انطلاقاً مما كان يعرف في الفكر اليوناني القديم من عقيدة (صراع الآلهة)<sup>(٤)</sup> القائمة على تعدد الآلهة مما يؤدي إلى الصراع فيما بينها، فهي هو زيوس Zeus رب الأرباب لدى الإغريق لم يصل إلى هذه المكانة دون عناء أو نصب بل خاض معارك ضارية ضد والده كرونوس الذي أنجبه!! وحارب جماعات المسوخ والمردة وانتصر عليهم

٤- لمزيد من التفاصيل أنظر عبد العزيز بن عثمان التريحي: صراع الحضارات في المفهوم الإسلامي، من منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة.



جميعاً وتؤكد الأساطير الإغريقية للعقل الغربى أن الوصول إلى كرسى الحكم يتحقق بالقوة والصلابة والغش والمكر سيادة صراع القوة والضعف، وصراع الخير والشر، وصراع الإنسان مع الطبيعة، وصراع الإنسان مع الإنسان وصراع الإنسان مع الآلهة أيضاً<sup>(٥)</sup>.

ولذا فقد طبع الصراع الفكر اليوناني في مناحيه الدينية والفلسفية والأدبية والفنية حيث كان الإنتاج الأدبي نفسه يضخم الميول البشرية العنيفة<sup>(٦)</sup> وكانت تصرفات الإغريق التي تصورها أعمالهم تتسم بالخشونة والعنف والتباهى بالقوة الجسدية، وكانت حروبهم مجازر، ومصارعتهم الرياضية مذابح، وفروسياتهم غلظة وقسوة، وشجاعتهم عنفاً وبطشاً<sup>(٧)</sup>.

ويرى فيليب تايلور<sup>(٨)</sup> أنه في اليونان اعتبر جميع غير اليونانيين "برابره". وبدءاً من حوالى ٧٥٠ ق. م برزت المدن الدول باعتبارها الوحدة السياسية السائدة في اليونان لكي تحل محل الممالك القبلية السابقة وأصبح العمل الحربى أكثر تنظيمياً خاصة مع ظهور وتطور كتائب المواطنين ثقيلة التسليح وتساعد موجة الاستيطان.

وكثيراً ما حارب الإغريق الإغريق وكانت الحرب بصفة عامة عملاً موسمياً مع مجيء الجنود المتطوعين من المزارع التي لم تكن تحتاج إلى من يرعاها خلال شهور الشتاء. ولم يكن في البداية يوجد جيش محترف دائم وكان جميع المواطنين والمزارعين تحديداً جنوداً يؤدون خدمتهم العسكرية سنوياً فيما بين موعدى البذار والحصاد.

وكانت الحياة في اليونان القديمة لها طابع خاص - فتكونت عدد من الوحدات والتجمعات سميت كل منها دولة المدينة polis-state - كما سبق أن ذكرنا - فهي دولة نظراً لاستقلالية كل منها السياسية والاقتصادية وهي مدينة نظراً لقلّة عدد سكانها.. وكان نظام الرق هو السائد هناك وقد أقره أفلاطون في مدينته الفاضلة، وكانت أهم دولتين من دول المدينة دولتا "أثينا" وإسبرطة.. وكان هناك صراع بين

٥- لمزيد من التفاصيل انظر عبد المعطى شعراوى: أساطير إغريقية (الآلهة الكبرى) مكتبة الأنجلو المصرية ٢٠٠٥.

٦- محمد مفيد الشوباشى: العرب والحضارة الأوروبية، المكتبة الثقافية، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٥، ص ٣٢.

٧- نفسه، ص ٣١.

٨- فيليب تايلور: قصص العقول، ترجمة سامى عشيبة، سلسلة عالم المعرفة، العدد ٢٥٦ لسنة ٢٠٠٠م، ص ٤١.

الدولتين.. وكانت أثينا<sup>(٩)</sup> لها الريادة بحكم تفوقها في نظامها السياسي فاتبعت أثينا في تسيير الحياة السياسية فيها "الديموقراطية المباشرة" الديمقراطية الأثينية" ونظراً لمحدودية عدد مواطنيها (وهم من الذكور فقط من سن ٢٠ عام من أهل المدينة الأصليين فلم يسمح للأجانب بالتجنس) نظراً لمحدودية عدد المواطنين بالنسبة لمجموع السكان كانت ديموقراطيتها مباشرة قائمه علي النقاش والجدال والمشاركة السياسية.

ولعل من أهم النقاط عند الحديث عن الديمقراطية الأثينية هو أنهم افترضوا صلاحية أي " مواطن" لتولي أي منصب سياسي مع عدم تخصيص وظيفة<sup>(١٠)</sup> أو أوضاع متميزة لأشخاص معينه وكانت الوظائف تشغل عن طريقين أما القرعة أو الانتخاب .. كما لم يكن الفقر أو المركز الاجتماعي حائلاً دون المشاركة السياسية...

وكان ما يميز تلك الحضارة عقدة التفوق اليوناني والتقابل بين اليوناني والبربري..

وكانت إسبرطة<sup>(١١)</sup> متفوقة في فن الحرب وكان المحاربون الإسبرطيون يتدربون على الحرب منذ سن باكراً حتى يصبحون ممثلين بقيم الشجاعة في ميادين القتال وكانت الجيوش الإسبرطية تستمد الشجاعة من أشعار تيرنابوس

٩- مدينة أثينا (باليونانية Αθήνα = أثينا) هي عاصمة اليونان وأكبر مدنه. يعود اسم المدينة لأثينا إلهة الحكمة الإغريقية. يبلغ عدد سكان المدينة اليوم حوالي ٧٢٩,١٣٧ نسمة ومع ضواحيها والمناطق المجاورة حوالي ٣,٧٥٣,٧٢٦ مليون نسمة (إحصاءات يناير ٢٠٠٥). تقع أثينا في جنوب اليونان على سهل أتيكا بين نهري إليسوس وكيفيسوس، محاطة من ثلاثة جهات بقمم جبال هي هيميتوس (١,٠٢٦ متر) وبيتليكون (١,٠٩٩ متر)، وبارنس (١,٤١٣ متر). تطل من الجهة الرابعة على خليج زارونيش الواصل للبحر الأبيض المتوسط. يبلغ تاريخ المدينة حوالي ٥,٠٠٠ سنة، لتعد بذلك أحد أقدم مستوطنات أوروبا. أعلنت أثينا عام ١٩٨٥ كأول عاصمة ثقافية لأوروبا. أضيف الأكروبولس عام ١٩٨٧ ومعبد دافني عام ١٩٩٠ في أثينا لقائمة اليونسكو للتراث العالمي.

١٠- لزيد من التفاصيل أنظر سعيد عبد الفتاح عاشور: أوروبا المصور الوسطى (جزءان) مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٨٦.

١١- أسبرطة (Asparta) هي مدينة من أقوى الدويلات إبان حكم الدورين الفزاة الذين نافسوا أثينا. وكان الإسبرطيون محاربين. ويقع موقع هذه المدينة حالياً في شبه جزيرة المورة باليونان. وفقاً للأساطير اليونانية، فمؤسس أسبرطة هو لأكديمون، ابن الإله زوس وتاجيت، وهو سماها على اسم زوجته، ابنة يوروتاس. اشتهرت أسبرطة بقوة جيوشها في تاريخ اليونان القديم، وهي كانت الأقوى حتى بزغ نجم أثينا ونحوها لتكون العاصمة اليونانية، كما أملت أساطيرها البحرية بقوة وبسالة خلال الحروب ضد الفرس. كانت أسبرطة وأثينا حليفتين ضد الفرس، على أنهما تحولتا غريبتين بعدها.

الحربية وتشريعات ليكرجوس<sup>(١٢)</sup> المتطرفة في الخشونة والتشرف من ذلك أنه وضع نظاماً يحتم على الآباء الإبلاغ عن أى مولود فإذا كان الطفل قوى البدن يسمحون له بالحياة أما إذا كان هزيلاً يعرضوه للبرد والجوع فوق الجبل حتى يموت!! ويتم تدريب الأطفال على الحياة العسكرية الصارمة مثل الأسير حفاة الأقدام مسافات طويلة، وأن يرتدوا ثوباً واحداً على الجسد في الشتاء وأن يطعموا أنفسهم بأنفسهم بالصيد أو الخطف أو السرقة فإذا ضبط وهو يسرق يعاقب عقاباً صارماً لا لأنه يسرق بل لأنه لم يستطع أن يسرق دون أن يضبطه أحد!!.

وقد خاض اليونانيون حروبهم كما لو كانت مبارزات جماعية فقد كانت الحملات قصيرة المدى وعادة ما كانت المعارك حاسمة وكان مدى تكتيكاتهم محدوداً نسبياً وقامت كل كتيبة بعملها على أساس اعتمادها الذاتي كجماعة واحدة على نفسها، وكان الخداع وتشويه المعلومات أو نقصها ملمح هام من ملامح الحروب اليونانية.

وسوف نستعرض أهم تلك الحروب.

حرب البلوبونيز<sup>(١٣)</sup> :

سبق وان أشرنا إلى حقيقة التنافس بين أثينا وإسبرطة على الزعامة بين دول المدينة بما كان لكل منها من نظام سياسي واقتصادي مميز (حيث كانت أثينا دولة تجارية وإسبرطة دولة زراعية).. حيث حاولت كل منهما التأثير على باقي دول المدينة لنشر نظامها السياسي واستقطاب هذه الدول إلى جانبها ..وان كانت الغلبة والزعامة لأثينا بفضل ديموقراطيتها وقادت دول المدينة في درء عدوان الفرس وتهديدهم للمدن اليونانية بعد خروجهم من آسيا الصغرى .. وهذا في ظل اتحاد (كونفيدرالي) تحت زعامتها ولكن بعد هزيمة الفرس حاولت دول المدينة الخروج من تحت لوائها مما أدى لاستخدامها أسلوب القهر ضد بقية دول المدينة لتجبرها على البقاء في الاتحاد..أى بعبارة أخرى تحولت أثينا من دولة ديموقراطية إلى دولة تمارس التوسع على حساب الدول الأخرى .. مما دفع دول المدينة إلى الاتحاد تحت زعامة

١٢ - ليكرجوس (Luikourgos): من مشرعي إسبارطة الأسطوريين، وقد وضع نظم الدولة بعد قيامه بعدة رحلات للاستطلاع.

١٣ - نسبة إلى جزيرة بلوبونيز الواقعة جنوبي اليونان.

إسبرطة ونسج عن ذلك حرب البلوبونيز التي دامت سبعة وعشرين عاماً وانتهت بهزيمة أثينا وتحلل نظامها السياسي الذي طالما افتخرت به.. وكان هناك تناقض بين أثينا وإسبرطة، بين العقل والساعد، بين الثقافة والحرب، بين القلم والسيوف.. كان تناقضاً فرعياً تجاوزه الاسكندر بتوحيد بلاد اليونان في مواجهة البرابرة وظلت حرب البلوبونيز تبدد قوى بلاد الإغريق من ٤٣١ إلى ٤٠٤ ق.م<sup>(١٤)</sup>.

ولم تسفر حرب البلوبونيز فقط عن هزيمة أثينا وإنما أسفرت أيضاً عن تدهورها بوصفها مركزاً للحضارة وانهك الإغريق إنهاكاً شديداً بسبب تجدد الحرب مع الفرس واستمرار الحروب الأهلية وهزيمة الإسبرطيين أمام جيش طيبه في معركة ليونكترا عام ٣٧١ ق.م.

ومن آراء فلاسفة أثينا :

نجد أفلاطون (Platon) يقول في فترة مبكرة من مراحل تشكيل الفكر الغربي "إن الحرب هي الحالة الطبيعية في العلاقات بين مجموعة سياسية وأخرى". وقال ثوكوديدس<sup>(١٥)</sup> "الأقوياء يفعلون ما بمقدورهم فعله والضعاف يعانون مما ليس منه بد.

وهناك أفكار الضبط العسكرية الصارمة التي تنسب إلى دراكون Draconian المشرع الأثيني وقد أصدر تشريعات كانت قاسية إلى حد بعيد حتى قيل في وصفها أنها خطت بقطرات الدم !!.

وبدأت المواجهة بين الشرق والغرب مع خروج الإسكندر الأكبر<sup>(١٦)</sup> صوب الشرق<sup>(١٧)</sup> ، بعد أن ورث الملك عن أبيه فيليب المقدوني الذي جعل جند المشاة

١٤- اتش جى ويلز: موجز تاريخ العالم، ترجمة: عبد العزيز توفيق جاويد، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٩، ص ١١٢.

١٥- ثوكوديدس thucydides (٤٦٠ - ٣٩٥ ق م) مؤرخ إغريقى شهير، صاحب كتاب "تاريخ الحرب البلوبونيزية" ويعد أول المؤرخين الإغريق الذين أعطوا للعوامل الاقتصادية والاجتماعية أهمية خاصة.

١٦- ولد الإسكندر في بيل، العاصمة القديمة لمقدونيا. ابن فيليبوس الثاني ملك مقدونيا وابن الأميرة أوليمياس أميرة سيرس (Epirus). كان أرسطو المعلم الخاص للإسكندر. حيث درّبه تدريباً شاملاً في فن الخطابة والأدب وحفزه للاهتمام بالعلوم والطب والفلسفة.

١٧- أنظر محمد الحيش: العالم الإسلامي والغرب، قراءة في المشهد الثقافي والحضاري، مؤتمر الإسلام والغرب في عالم متغير الذي انعقد في قاعة الصداقة بالحرم ١٢ و ١٣ و ١٤/١/٢٠٠٤ حيث قدم ورقة باسم مركز الدراسات الإسلامية تحدث فيها عن جسور الحوار والتقارب بين الإسلام والغرب.

يهاجمون في كتلة كثيفة متراسة تراصفاً شديداً، كما درب وجهاء قومه الراكبة على القتال في تشكيلات، وبذلك اخترع نظام الخيالة<sup>(١٨)</sup> وبعدها قدر للجواد الذي يركبه الاسكندر أن يجتاز مضيق الدردنيل ويتحرك صوب سحر الشرق الأسر، وهناك يمضي من أفق إلى أفق فيجتاح آسيا الصغرى Asia minor وبلاد الشام ثم السهول الإيرانية، فيحطم أمجاد الفرس ويمزق دولة ساسان، ثم يوغل في الشرق فيروي خيله من نهر جيحون ويجتاز بلاد ما وراء النهر، حيث يبلغ سحراً آخر يحمله إلى القسرة الهندية فيدك ما واجهه من الممالك، ويبلغ في النهاية إمبراطورية الصين حيث لم يعد ثمة بعدها شيء يمكن أن يباهي بإسقاطه. وحين عاد الإسكندر إلى أثينا ليستهج بنصره شاباً غضباً، أدرك أنه ليس إلا دورة واحدة من دورات الحياة، وأن تسبدل المقادير ماض إلى غاية لا يمكن أن تتوقف عنه طموح الإسكندر. ونستعرض بعض من حروبه فيما يلي:

بدأ الإسكندر حربه ضد الفرس في عام ٣٣٤ قبل الميلاد حيث عبر هيليسبونت (Hellespont) دانيدانيليس الجديدة بجيش مكون من ٣٥,٠٠٠ مقدوني وضباط من القوات اليونانية بمن فيهم أنتيجواس الأول (Antigonus I) وبطليموس الأول وكذلك سيليكوس (Seleucus I) عند نهر جراننياس بالقرب من المدينة القديمة لطروادة، قابل جيش من الفرس والعييد اليونان الذين أسروا في الحروب وكانوا حوالي ٤٠,٠٠٠ وقد سحق الفرس وكما شير الكتابات القديمة خسر ١١٠ رجلاً فقط. وبعد هذه الحرب الضارية أصبح مسيطراً على كل ولايات آسيا الصغرى وأثناء عبوره لفرجيا (Phrygia) يقال أنه قطع بسيفه "الجوردان نوت" (Gordian knot).

وباستمرار تقدمه جنوباً، واجه الإسكندر جيش الفرس الأول الذي قاده الملك داريوس الثالث (Darius III) في أسوس (Issus) في شمال شرق سوريا. لم يكن معروف كم عدد جيش داريوس بعدد يبلغ حوالي ٥٠٠,٠٠٠ رجل ولكن يعتبر المؤرخون هذا العدد بأنه مبالغ. معركة أسبوس في عام ٣٣٣ قبل الميلاد انتهت بنصر كبير للإسكندر وبهزيمة داريوس هزيمة نكراء، فرّ شمالاً تاركاً أمه وزوجته وأولاده حيث عاملهم الإسكندر معاملة جيدة وقريبة لمعاملة الملوك حسب ما تقول الروايات. قدمت مدينة تايري (صور) (Tyre) المحصنة بحرياً مقاومة قوية وثابتة

أمام الإسكندر ألا أن الإسكندر اقتحمها بعد حصار دام سبعة أشهر في سنة ٣٣٤ قبل الميلاد احتل غزة ثم مر إلى مصر حيث استقبل كمنقذ، وبهذا النجاح أمن التحكم بخط الساحل الشرقي للبحر المتوسط. وفي عام ٣٣٢ وجد على رأس نهر النيل مدينة سماها الإسكندرية (سميت على اسمه فيما بعد) والتي أصبحت العاصمة العلمية والأدبية والتجارية للعالم اليوناني. سيرين (Cyrene) العاصمة القديمة لمملكة أفريقيا الشمالية (سيرناسيا) خضعت فيما بعد هي الأخرى وهكذا يكون قد وسع حكمه إلى الإقليم القرطاجي.

في ربيع عام ٣٣١ قام الإسكندر بالحج إلى المعبد العظيم ووسيط الوحي آلهة الشمس آمون-رع (Amon-Ra) زيوس (Zeus) (١٩) لدى اليونان، حيث كان المصريين القدامى يظنون بأنهم أبناء اله الشمس آمون-را (Amon-Ra) وكذلك كان حال الحاكم الجديد لمصر الإسكندر العظيم بأن الحج الذي قام به أتى ثماره وأصبح ابناً للآله وذلك لاعتقاده بأن أصوله الهية. بالعودة إلى الشمال مرة أخرى، أعاد ترتيب قواته في تايري (Tyre) بجيش مكون من ٤٠,٠٠٠ جندي مشاة و ٧,٠٠٠ فارس عابرا نهري دجلة (Tigris) والفرات (Euphrates) وقابل داريوس (Darius) على رأس جيش بحوالي مليون رجل بحسب المبالغت في الكتابات القديمة. وقد استطاع التغلب على هذا الجيش وهزيمته هزيمة ساحقة في معركة جاوجاميل (Battle of Gaugamela) في الواحد من أكتوبر عام ٣٣١ قبل الميلاد.

فرّ داريوس مرة أخرى كما فعل في (أسيوس) ويقال بأنه ذبح في ما بعد على يد أحد أخدامه. حوصرت مدينة بابلون (Babylon) بعد معركة (جاوجاميل) وكذلك مدينة سوسا (Susa) وكنزها الهائل التي 'احتلت فيما بعد، وبعد ذلك وفي نصف فصل الشتاء اتجه الإسكندر إلى بيرسبوليس (Persepolis) عاصمة الفرس. حيث قام باحتلالها وبعد نهب الثروات الملكية وأخذ الغنائم قام بحرق المدينة بأكملها خلال حفلة شرب. وبهذا الاجتياح الأخير الذي قام به الإسكندر أصبحت سيطرته تمتد إلى خلف الشواطئ الجنوبية لبحر كاسبيان (Caspian) متضمناً أفغانستان وبلوشستان الحديثة وشمالاً من باكتريا (Bactria) وسوقديانا (Sogdiana) وهي الآن غرب

تركستان وكذلك تعرف آسيا الوسطى. أخذت من الإسكندر ثلاث سنوات فقط من ربيع ٣٣٧ إلى ربيع ٣٣٠ ليحتل كل هذه المساحات الشاسعة. وبصدد إكمال غزوه على بقايا إمبراطورية الفرس التي كانت تحوي جزءاً من غرب الهند، عبر نهر اندوس (Indus River) في عام ٣٢٦ قبل الميلاد ومحتلاً بذلك بانجبا (Punjab) التي تقرب من نهر هايفاسيس (Hyphasis) والتي تسمى الآن بياس (Beās) وعند هذه النقطة هذه النقطة ثار المقدونيون ضد الإسكندر ورفضوا الاستمرار معه فقام ببناء جيش آخر ثم أبحر إلى الخليج العربي ثم عاد براً عبر صحراء ميديا (Media) بنقص من الطعام والشراب حيث خسر عدداً من قواته هناك. أمضى الإسكندر حوالي سنة وهو ينظم مخططاته ويحصي المناطق التي سيطر عليها في منطقة الخليج العربي للاستعداد لهجوم محتمل قريباً.

وصل الإسكندر بابيلون (Babylon) في ربيع ٣٢٣ قبل الميلاد وفي شهر يونيو أصيب بحمى شديدة مات على أثرها تاركاً إمبراطورية عظيمة واسعة خلفه وبجملته الغامضة "إلى الأقوى" (to the strongest) قادت إلى صراعات شديدة استمرت لحوالي نصف قرن.

كان الإسكندر من أعظم جنرالات الحروب على مر العصور حيث وصف كتكتيكي وقائد قوات بارع وذلك دليل قدرته على احتلال كل تلك المساحات الواسعة لفترة وجيزة. كان شجاعاً وسخياً، وشديداً صلباً عندما تتطلب السياسة منه ذلك. وكما ذكر في كتب التاريخ القديمة بأنه كان مدمناً كحول فيقال أنه قتل أقرب أصدقائه كليتوس (Clitus) في حفلة شراب حيث أنه ندم على ذلك ندماً عظيماً على ما فعله بصديقه. وصفوه بأنه ذا حكمة بحسب ما يقولونه المؤرخون بأنه كان يسعى لبناء عالم مبني على الأخوة بدمجه الشرق مع الغرب في إمبراطورية واحدة. فقد درب آلاف الشباب الفرس بمقدونيا وعينهم في جيشه، وتبنى بنفسه عادات وتقاليده الفرس وتزوج نساء شرقيات منهم روكسانا (Roxana) التي توفيت عام ٣١١ ق.م ابنة أكسيراتس (Oxyartes) التي لها صلة قرابة مباشرة (لداريوس)، وشجع ضباط جيشه وجنوده على الزواج من نساء فارسيات. قبل أن يموت بفترة وجيزة أمر الإسكندر الإغريق بتمجيده وعبادته كإله، وأرجعها لأسباب سياسية ولكن هذا القرار سرعان ما ألغي بعد موته. أهم ما قام به دخوله مدينة الإسكندرية (التي سميت باسمه) وتغييرها تغييراً جذرياً حيث أبدا لها

اهتماماً خاصاً وكانت مهينة بالمكان الاستراتيجي الجيد ووفرة الماء حيث أقبل عليها في عهده للتجار والطلاب والعلماء وجميع الفئات وبهذه الإنجازات أصبحت اللغة اليونانية واسعة الانتشار ومسيطرة على لغات العالم.

وعندما توفي الإسكندر في سنة ٣٢٣ ق. م كانت فتوحاته قد امتدت من اليونان وآسيا الصغرى وسوريا ومصر عبر فارس وأفغانستان إلى أن بلغت نهر الهندوس.

لم يطل المشهد حتى انبعث شعوب آسيا الراقدة تضرب في جيوش الإسكندر كل وجه، وتحيل لهيبهم إلى رماد، حيث يمزقون إلى بطلاسة وسلوقيين، وتبرز مشاهد متعاقبة من الأكاسرة الجبارين، تطرق أبواب أوروبا من الأناضول في هبة الشرق العارمة، في صد أطماع الغرب.

وتطلعت اليونان إلى التوسع الإقليمي في الأراضي المحيطة بها وبدأت بهذا إيجاد الإمبراطوريات المترامية الأطراف فشملت غرب آسيا الصغرى وأجزاء من إيطاليا وليبيريا وشمال أفريقيا ومصر والشام والعراق.

وبعد أقل من قرن يضرب هانيبال<sup>(٢٠)</sup> بسياطه الموجعة في قلب الحواضر الأوربية، ويسجل غضب الجنوب على الشمال، وتتأثر قرطاجة للإسكندرية ويشتعل المتوسط بنار الكراهية من جديد.

### ثانياً: العصر الروماني: استأنف الرومان ما بدأه اليونان

كانت الحرب جزءاً أصيلاً من الحياة الرومانية الباكورة وكان الشعب مشبعاً بالعقلية الحربية وقد ابتلعت روما الإمبراطورية الإغريقية كاملة وتمددت بعدها لتشمل كل أوروبا جنوب الدانوب وغرب الراين ثم قفزت المانش لتضم إنكلترا<sup>(٢١)</sup> وجعلت من البحر المتوسط بحيرة رومانية وبحراً مغلقاً أشبه بنواة للإمبراطورية، ويلخص

٢٠- هانيبال هو من أهم القادة العسكريين القرطاجيين. ولد بقرطاج سنة ٢٤٧ قبل الميلاد، ورافق وهو في التاسعة من عمره والده أميلكار بركا في حملته على أسبانيا. وفي سنة ٢٢١ اختاره الجنود قائداً، فتمكن من بسط نفوذ قرطاج على كامل شبه الجزيرة الإيبيرية بما في ذلك إحدى المصبات الرومانية. وقد رأت روما في ذلك خرقاً للمعاهدة التي عقدت إثر الحرب البونيقية الأولى، وطالبت بتسليمها حينئذ، وقد كان رفض هذا الطلب سبباً في اندلاع الحرب البونيقية الثانية بين سنتي ٢١٨ و ٢٠١ قبل الميلاد.

٢١- أنظر جمال حمدان: إستراتيجية الاستعمار والتحرير، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٩.



أرنولد توينبى Arnold Toynbee<sup>(٢٢)</sup> الفيلسوف الإنكليزي الشهير في كتابه دراسة للتاريخ Study of History أنها المثال النموذجي لما يسميه بالدولة العالمية universal state, والعجيب أن معنى كلمة روما Hroma يعكس مدى تسلطها وتجبرها حيث تعنى "الجبرة"!!

وكان الانضباط العسكري لديهم أكثر عنفاً وصلابة سيما عند مواجهة العدو وكانت هي مفتاح للتوسع الروماني أولاً فيما وراء حدود المدينة إلى شبه الجزيرة الإيطالية ثم إلى ما وراءها في أوروبا الأكثر اتساعاً وكان أداء الخدمة العسكرية من المؤهلات الأساسية للحصول على منصب سياسى على مدى تاريخ الجمهورية الرومانية وقد كان إله روما الرئيس هو مارس Mars إله الحرب.

ولم يكن أمام المواطن الروماني خيار سوى أن يخدم في الجيش وكان من الضروري أن يكون يكون المجند فلاحاً مالكاً للأرض ومواطناً رومانياً وأن يكون مستعداً للخدمة العسكرية لمدة تتراوح بين خمسة عشر وعشرين عاماً.

وقد استخدمت روما التجنيد الإجبارى فى أوقات الأزمات غير أن الجنود المتطوعين المحترفين كانوا يمثلون عماد الفيالق الرومانية وكانوا يعرفون أنهم سيشاركون فى حملات عدة وأنه لا بد من خوض كل معركة بشراسة وعنفاً وأنهم إذا انتصروا فالمتوقع أن يتصرفوا بوحشية وبث الرعب والهلع فى قلوب الأعداء وكانت المدن المقهورة تعامل بغلظة وعنفاً شديدين.

وكان الانضباط والمعنويات العالية عنصريين أساسيين فيما يتعلق بأسلوب شن الرومان للحرب وأن تنزل بأعدائها خسائر فادحة فى حالتى النصر والهزيمة، وتمتع الجيش العسكرى الرومانى بشهرة واسعة.

وكان التوسع أكثر نحو الغرب فى حوض البحر الأبيض المتوسط شمالاً وجنوباً. كانت اللغة اللاتينية لغة المحتلين.. وظلت الثقافات الوطنية فى الشاطئ الجنوبي للبحر الأبيض المتوسط باقية.. وورثت المسيحية الرومانية المسيحية

٢٢- المؤرخ البريطاني المعاصر، الذي انصب معظم دراساته على تاريخ الحضارات، وكان أبرزها مؤلفه الشهير (دراسة للتاريخ) الذي شرع يعمل فيه منذ عام ١٩٢١ وانتهى منه عام ١٩٦١، وهو يتكون من اثني عشر جزءاً عرض فيها توينبي لرؤيته الحضارية للتاريخ. ولقد وضع المستر سومر فيل - تحت إشراف توينبي نفسه - مختصراً في جزأين لهذا العمل الواسع بسط فيه جميع آراء المؤلف مستخدماً عباراته الأصلية في معظم الأحيان، وحذف الكثير من الأمثلة والآراء دون إخلال بالساق العام للكتاب.

اليونانية ونشرتها في شمال أوروبا مع اللغة اللاتينية بعد أن تحولت روما من عاصمة للإمبراطورية الرومانية إلى عاصمة للإمبراطورية المسيحية بعد تحول قسطنطين في القرن الرابع الميلادي.

ويكفى أن روما أفرزت أخطر دعاة الحرب والدموية في التاريخ مثل نيرون<sup>(٢٣)</sup> ولم يجد (نيرون) في روما إلا العيوب. ولأنه كان ينظر إلى نفسه على أنه "إله وفنان"، أو هكذا كان شيوخ روما يرونه ويخاطبونه، وكان يحلم بإعادة بناء روما من جديد ليسمى (مدينة نيرون). ويُقال أن إحراق روما لم يكن بعيداً عن فعل يدي (نيرون). ولكي يدفع التهمة عن نفسه ألصقها بطائفة من المسيحيين من الذين يحقد الشعب عليها. فعثر على جماعة من الفجار، وأغراه على أن يعترفوا بأن تلك الطائفة هي التي أشعلت النار في المدينة. وأدين أفرادها بتهمة أنهم يكرهون الجنس البشري كله. واستخدم (نيرون) في إعدامهم أفانين من القسوة المتناهية، ومنها أنه تركهم للكلاب لكي تلتهمهم، وصلب البعض، ودفن البعض أحياء، ودهن أجسام البعض الآخر بالمواد الملتهبة وأشعلت فيها النيران.

وقد هلك في هذا الحريق الآلاف من سكان روما واتجهت أصابع اتهام الشعب والسياسيين تشير إليه إلى أنه هو المتسبب في هذا الحريق المتعمد، وتهامس أهل روما بالأقاويل عليه وتعالّت كلماتهم وتزايدت كرهية الشعب نحوه، وأصبح يحتاج إلى كبش فداء يضعه متهماً أمام الشعب وكان أمامه اختيار أما اليهود أو المسيحية

٢٣- نيرون (٣٧-٦٨) وصل إلى العرش أنه نتيجة لأنه كان ابن كلوديوس بالتي، وقد بدأ نيرون حكمه بفترة من الإصلاحات وذلك بتأثير معلمه الفيلسوف سينيكا Seneca، ولكنه كان صغيراً في السن ليحكم هذه الإمبراطورية الواسعة، فقد كان سنه ١٦ سنة، فأقلب حكمه إلى كابوس عنيف وأنفس في اللهو، والغريب أنه سيطرت عليه رغبة أنه يمارع كمعنى ولاعب للقيارة وسائق عربة حربية، والمؤرخ المتبع لكيفية وصول الأباطرة إلى عرش روما يكتشف بسهولة أنه كان غالباً عن طريق الاغتيالات السياسية التي أصبحت السمة الأساسية للحكم في روما، في عصر نيرون كثرت المؤامرات والاضغاث السياسية التي كان له يد في تدبيرها وكانت أمه أجريينا إحدى ضحاياه وماتت وهي تلعن جبينها نيرون التي حملته في بطنها وأبلى به العالم، ومن ضحاياه أيضاً أوكتافيا زوجته الأولى، وأيضاً قتل معلمه سينيكا، أما أشهر جرائمه على الإطلاق كان حريق روما الشهير سنة ٦٤ م حيث راوده خياله في أن يعيد بناء روما، وبدأت النيران من القاعدة الخشبية للسرك الكبير حيث شبت فيها النيران وانتشرت بشدة لمدة أسبوع في أنحاء روما، وألهمت النيران عشرة أحياء من جملة أنحاء المدينة الأربعة عشر، وبينما النيران تتصاعد والأجساد تحترق وفي وسط صراخ الضحايا كان نيرون جالساً في برج مرتفع يتسلى بمنظر الحريق الذي غلب له ويده آلة الطرب يغني أشعار هوميروس التي يصف فيها حريق طروادة.

الحديثة في روما، ولكن كان اليهود تحت حماية بوبياسبينا إحدى زوجات نيرون، فألصق التهمة بالمسيحيين، وبدأ يلهى الشعب في القبض على المسيحيين واضطهادهم وسفك دمايتهم بتقديمتهم للوحوش الكاسرة أو حرقهم بالنيران أمام أهل روما في الستاديوم وفي جميع أنحاء الإمبراطورية حتى أن مؤهلات الولاة الذين كانوا يتولون الأقاليم هو مدى قسوتهم في قتل المسيحيين، وسبق أفواج من المسيحيين لإشباع رغبة الجماهير في رؤية الدماء، وعاش المسيحيين في سراديب تحت الأرض وفي الكهوف، وأستمر الاضطهاد الدموي أربع سنوات. ولما سادت الإمبراطورية الرومانية الفوضى والجريمة فأعلنه مجلس الشيوخ السنوات أنه أصبح: عدو الشعب. فمات منتحراً في عام ٦٨ م مخلفاً وراءه حالة من الإفلاس نتيجة بذخه الشديد والفوضى من كثرة الحروب الأهلية أثناء حكمه.

ولم يكن (نيرون) روما هو الأول من أمثاله في التاريخ الروماني، فهناك (كاليجولا) الإمبراطور الشهير، الذي أخذ يتصرف بروما، وكأنها من ممتلكاته الخاصة (٢٤)، يرفع من يرفع، ويهين من يهين، وذكر المؤرخون أعمالاً لكاليجولا، فيها من بشاعة ما تشمئز لها النفوس، لدرجة أنه كان يفضل الحيوانات على كبار رجالات روما.. وبلغ به الاستهتار أن دخل يوماً إلى مجلس الشيوخ الروماني، وهو يمتطي صهوة جواده المدلل (تاتوس)، فأبدى أحد أعضاء مجلس الشيوخ الروماني ملاحظة حول هذا السلوك، فما كان من الإمبراطور إلا أن قال: "لست أدري لماذا يبدي العضو المحترم ملاحظته على دخول جوادي تاتوس إلى قاعة البرلمان؟! مع أنه - أي الحصان - أكثر ذكاء من العضو المحترم!!.. على الأقل لأنه يحملني، أليس كذلك أيها السادة!!".

فما كان من أعضاء مجلس الشيوخ إلا أن صنفوا تأييداً للإمبراطور وتعاليت الهتافات بحياة كاليجولا، الذي ظل غاضباً بسبب ملاحظة عضو البرلمان، ولم يرض إلا بعد أن تقدم أحدهم باقتراح يقضي بتعيين الحصان تاتوس عضواً في المجلس.. وصنف للقتراح، وأصبح حصان الإمبراطور يحمل لقب (عضو مجلس الشيوخ الروماني)!!

٢٤ - أنظر مقال د. نجم عبد الكريم "الطاغية الذي فرض على الشعب أن يأكل التين والشعير" بجملة الشرق الأوسط بتاريخ

وبهذه المناسبة، أقام كاليجولا حفلاً كبيراً على شرف حصانه دعا إليه كبار رجال الدولة، والأعيان، وكان من شروط الدعوة ارتداء الملابس الرسمية.. وفعلاً حضر الضيوف في أبهى حللهم.. لكن المفاجأة التي أدهشتهم تكمن في نوعية الطعام المقدم إليهم في ذلك الاحتفال، ولما تردد البعض منهم في تناوله قال لهم الإمبراطور: "ما لكم لا تأكلون؟؟".

فرد عليه أحد الحضور قائلاً: "مولاي كاليجولا.. كيف تريد منا أن نأكل الشعير والتبن، وهو طعام الجياد؟؟".

فما كان من الإمبراطور إلا أن غضب، وصاح فيهم: "إنه لشرف كبير لكم، أن تتناولوا في صحائف من ذهب، نفس طعام حصاننا (تاتوس)!!".

ثم أمرهم قائلاً: "هيا كلوا.. واشربوا.. اشربوا نفس النبيذ الذي يشربه حصاني (تاتوس)!! أليس عضواً في مجلس الشيوخ الروماني؟؟"، فلم يكن أمام الحضور غير الامتثال لما أمرهم به الإمبراطور، فطفقوا يأكلون التبن والشعير عدا (براكوس كانا)، الذي لمح كاليجولا، لا يشارك الباقين في تناول الشعير والتبن.. فاقترب منه كاليجولا قائلاً له: "كأنني رأيتك لا تأكل!! أسوء بالآخرين!! من أنت حتى تتجاسر، ولا تمد يدك إلى الطعام، مثلما يفعل أشراف البلاد..؟؟ أم أنك تتعالى على طعام عزيزنا الحصان (تاتوس).. فبسبب موقفك هذا، فقد قررت أنا الإمبراطور كاليجولا عزلك يا براكوس، وعينت حصاننا العزيز: (أنسيتا تاتوس) بدلاً عنك في المهام التي تتولاها في مجلس الشيوخ الروماني..!!". فصفق الحضور لهذا القرار..

أما براكوس، فقد تأججت بداخله ثورة عارمة، فانفجر صائحاً بأعلى صوته: "إلى متى يا أشراف روما نظل خاضعين لهذا الحاكم العايب؟؟ هل هانت كرامة وشرف الرومانيين إلى هذا الحد؟! بحيث تصفقون لكاليجولا وهو يصدر قراراً أهوج بتعيين حصانه عضواً في مجلس الشيوخ الروماني..؟؟".

ثم التفقت في ثورته البركانية إلى الإمبراطور الروماني كاليجولا قائلاً له: "انظر يا كاليجولا إلى براكوس، وهو يقذف بحذائه في وجه نائبك هذا الذي تسوده علينا..".

ثم صاح - وهو في ثورته: "يا أشراف روما افعلوا مثلما فعلت، واستردوا شرفكم المهان، من هذا الحاكم الأرعن..".

وما هي إلا لحظات، حتى انقلب الحفل إلى ثورة عارمة، ومعركة حادة، استخدمت فيها الأطباق الذهبية، والكؤوس الفضية، لتقضي على حاكم لم يكن يرى إلا نفسه!!..

وما أن بلغ أهل روما ما حدث في ذلك الحفل في اليوم التالي، حتى خرجوا عن بكرة أبيهم يحطمون تلك التماثيل التي وضعت في الميادين لكاليجولا، وغيره من أباطرة روما من أجداده، بمن فيهم نيرون، الذي كان تربطه قرابة بكاليجولا من ناحية الأم..

بالطبع، لقد أجهز على الحصان المسكين تاتوس الذي لا ذنب له سوى أنه كان يحمل ديكتاتوراً، لا يذكره التاريخ الآن، إلا في مزايله .. ولكن من نسله خرج أولئك القوم.

في غمرة هذا الصراع كان هناك مشروع آخر يتم إعداده في روما الإيطالية التي تستدلى في قلب البحر المتوسط في إرادة جادة للمواجهة، تحت عنوان الإمبراطورية الرومانية والتي ستصبح المقدسة فيما بعد وتتطلق الأطماع الرومانية من جديد فتلتهب البلاد المتشاطئة في البحر المتوسط، في القرن الأول قبل الميلاد، ويمضي المشروع الرومي إلى مصر، ثم يرسم ملامح وجود جديد على طول شواطئ المتوسط ليصبح بحيرة رومية، ثم يجتاح بلاد الشام ويصل إلى مواجهة مباشرة مع الحضارة الساسانية الفارسية، حيث سيبدأ صراع مريع سيستمر سبعة قرون.

وقد طبع الصراع الفكر الروماني في مظاهره التشريعية والقانونية والسياسية والمدنية، بحيث غلبت فكرة الصراع على الفكر اليوناني والروماني وهيمنت عليه هيمنة مطلقة وصبغت العقل اليوناني والروماني بصبغة الصراع باعتباره أصلاً ثابتاً للحياة الدنيوية والأخروية.

والعجيب أنه لم يحدث أن عارض الشعب الروماني قرار مجلس الشيوخ بشن الحرب مما يدل على العقلية الحربية الكامنة في عقلية المواطن الروماني. وقد كان من آلهة الرومان الكبار هو مارس Mars إله الحرب كما سبق أن ذكرنا، ويخبرنا بوليبيوس أنه قبل معركة زاما ٢٠٢ ق م قال القائد الروماني سيبو لقواته أنه إذا ما هزم هانيبال فانهم سوف يحققون لأنفسهم ولبلادهم هيمنه وسلطه لا ينافسهم فيها أحد على بقية العالم!!..

وفى عهد الجمهورية الباكر لم يكن أمام المواطن الرومانى خيار سوى أن يخدم فى الجيش وكان من الضرورى أن يكون المجند فلاحا مالكا للأرض ومواطننا رومانيا وأن يكون مستعدا للخدمة العسكرية لمدة تتراوح بين خمسة عشر وعشرين عاما وقد استخدمت روما التجنيد الإجبارى فى أوقات الأزمات وكان الجنود يخوضون المعارك بشراسة وعنف وانهم فى حالة انتصارهم يتصرفون بوحشية وقسوة بالغة وقدم لنا بوليبيوس وصفا لقتل المدنيين واغتصابهم دون تمييز وشجع القادة الرومان ما اشتهرت به القوات الرومانية من شراسة ووحشية فنجد مثلا سيبيو ايميليانوس يأمر خلال الحرب البونية الثالثة بقطع أيدي أربعائة متمرّد فى أسبانيا.

## الفصل الرابع الحروب الصليبية





## الفصل الرابع الحروب الصليبية

### ثالثاً: العصور الوسطى Medieval

"الدين والحرب والفروسية" كلمات ثلاث لا يمكن فهم عقلية العصور الوسطى من دونها. وكان هناك بالحرب للحرب في ذاتها وصل إلى التمجيد الرومانتيكي فنجد منهم من يقول يا للحرب من شئ بهيج أعتقد أن الرب يفضل أولئك الذين يخاطرون بحياتهم من خلال استعدادهم لشن الحرب!!.

لقد تبلورت فكرة الصراع في الفكر الأوروبي بصورة واضحة في عصر الحروب الصليبية Crusades والصراعات الكثيرة التي تقابل فيها الشرق والغرب، وانفجرت أوروبا بالأوهام الصليبية، فقد شعر الصليبيون في تلك الفترة بأنه يتوجب عليهم التخلص من الثقافة العربية في المنطقة وجعل تلك البقعة من الوطن العربي لاتينية، وكذلك القضاء على الأرثوذكسية التي كانت منتشرة فيها.

وتمثل المرحلة الصليبية فترة مظلمة في تاريخ العلاقات بين أوروبا والعالم الإسلامي، فكانت مرحلة مليئة بالعنف والحروب والنهب والمذابح الوحشية وتدمير المدن، وتصاعد الحقد والكراهية وعدم الاستقرار<sup>(١)</sup> .. يعلق الباحث نورمان دانييل Norman Daniel على المزاعم المسيحية فيقول: "لقد اعتبر المسيحيون الحروب الصليبية حرباً مقدسة Holy War".

بدأت الخطوة الأولى من الحروب الصليبية، عندما وجه الإمبراطور البيزنطي الكسئوس كومنينوس Alexius Communes (حكم ١٠٨١-١١١٨م) نداءات متكررة طالباً مساعدة بابوية لمواجهة احتلال الأتراك السلاجقة جزءاً من أراضي الإمبراطورية، ليس بعيداً عن العاصمة القسطنطينية. وطلب النجدة السريعة<sup>(٢)</sup> لدفع هذا الخطر ورداً على استغاثته التي جاءت وفق هوى البابوية، ألقى البابا أوربان الثاني Urban II (١٠٨٨-١٠٩٩م) خطاباً في عام ١٠٩٥، بمجمع كليرمونت

١- لمزيد من التفاصيل أنظر: وليم الصوري: الحروب الصليبية (أربعة أجزاء)، ترجمة حسن حبشي، ستيفن رنسمان.

٢- سعيد عاشور: أضواء جديدة على الحروب الصليبية، المكتبة الثقافية، عدد ١١٨ أكتوبر، سنة ١٩٦٤، ص ٢٣.

Clermont (٣) جنوب فرنسا، قريباً من الحدود الإسلامية لإسبانيا. وكان خطابه مليئاً بالإشاعات عن وحشية المسلمين وفضاعتهم، ملمحاً إلى الأطماع الشخصية ومؤكداً على أتباعه "في دخول الطريق إلى الضريح المقدس، وانتزاعه من العنصر الشرير، ووضعه بأيديهم". ورفع شعاراً دينياً يبرر الحملات المرتقبة ويشجع الناس عليه، فكان شعار (هذه مشيئة الله) هو القادر على تعبئة الجماهير. ووعد المتطوعين في الحملة بحياة أفضل في الدنيا، وبغفران الذنوب إن ماتوا في ساحة القتال.

وسرعان ما انتشرت دعوة البابا مثل النار في الهشيم من فرنسا إلى بقية أوروبا، غني وفقير، شاب وكهل. فقد تبني التبشير بالحركة الصليبية بطرس الناسك الذي كان يتمتع بالفصاحة والقدرة على التأثير، فطاف أقاليم فرنسا ليخرج منها بخمسة عشر ألف متطوع معهم نساؤهم وأطفالهم. وكذلك والتر المفلس. ويذكر المؤرخون أن بطرس الناسك كان رجلاً قصير القامة، أسمر اللون، يمشي حافي القدمين، مرتدياً ملابس رثة، وكان راهباً هجر الدير بتكليف من البابا؛ لكي يقوم بالدعوة إلى الحملة الصليبية، فطاف بمختلف أقاليم فرنسا بهيئته المزرية داعياً إلى حملة البابا، وفي كل مكان يحل به كان يسحر أبواب الناس، ويخلب أفئدتهم ببيانه الساحر وفصاحته حتى تجمع حوله أعداد هائلة من الأتباع، بلغوا خمسة عشر ألفاً، منهم فلاحون وأهل مدن، وفئات من صغار النبلاء، وبعض المجرمين وقطاع الطرق، ولم يكن يجمع هؤلاء الشراذم إلا الحماسة والرغبة في قتال المسلمين، والاستيلاء على الأرض.

وفي الوقت الذي كان فيه بطرس الناسك ماضياً في دعوته في الغرب الأوروبي ظهر زعيم آخر من زعماء العامة اسمه "التر المفلس"، التفت حوله بعض الناس، وعبر بهم أرض "هنغاريا" ثم أراضي الدولة البيزنطية، وطوال الطريق كانوا ينهبون ويسلبون ويعتدون على الأهالي حتى بلغوا القسطنطينية في (رمضان ٤٨٩هـ = يوليو ١٠٩٦) وسمح لهم الإمبراطور البيزنطي الكسويس كومنين بالانتظار خارج أسوار العاصمة حتى وصول "بطرس الناسك".

٣- ريلي سميت: الحملة الصليبية الأولى وفكرة الحروب الصليبية، ترجمة محمد فصحى الشاعر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٢، ١٩٩٩، ص ٣٣.

وبحلول عام ١٠٩٧ كان هناك ١٥٠,٠٠٠ محارب صليبي قد وصلوا القسطنطينية. وارتكبت الحملة أثناء سيرها كل الموبقات من سلب ونهب وقتل واعتداء على الأعراض، حتى وصلت إلى أبواب القسطنطينية، فسارع الإمبراطور البيزنطي كومنينوس إلى نقلهم عبر مضيق البوسفور إلى آسيا الصغرى، وتخلص من شرورهم، وقابل السلاجقة هذه الجحافل وأوقعوا بهم هزيمة قاسية.

#### الحملة الصليبية الأولى (حملة الأمراء) :

"لقد افرط قومنا في سفك الدماء .. وكانت جثث القتلى تعوم في الساحة هنا وهناك .. وكانت الأيدي والأزرع المبتورة تسبح كأنها تريد أن تتصل بجثث اقتطعن منها"

وبعد الفشل الذي منيت به الحملات الشعبية الصليبية، بدأت التحضيرات للقيام بحملات صليبية منظمة يقودها الفرسان والأمراء، ومزودة بالمؤن والسلاح والعتاد، وتألفت الحملة الصليبية الأولى من أربع جماعات، واحدة منها بقيادة "جودفري دي بويون"، والثانية بقيادة "بوهيموند" النورماندي، والثالثة بقيادة "ريموند دي تولوز"، والرابعة بقيادة "روبرت" النورماندي.

وهكذا توحدت جميع القوى الأوروبية المتصارعة من أجل شن حروب تدميرية بشعة ضد العالم الإسلامي(٤)، يقول ديورانت في قصة الحضارة: (وهكذا توحدت أوروبا كما لم تتوحد في تاريخها، وكان من حسن حظ الصليبيين أن المسلمين كانوا أشد انقساماً على أنفسهم من المسيحيين، وعلي هذا فإن أحد العوامل الأساسية التي جعلت العلاقة بين الطرفين علاقة مواجهة دائمة ومعركة حضارية متبادلة، كانت الحروب الصليبية وما شكلته من دوافع وبواعث وآثار على مختلف الأصعدة والمستويات. وتمكنت الحملات الصليبية من سحق بلاد الشام وإقامة أربع ممالك صليبية فيها (الرها - إنطاكية - بيت المقدس - طرابلس) فقد احتلوا القدس في يوم حزين من أيام شهر يونية ١٠٩٩م<sup>(٥)</sup>.

فماذا فعلوا مع المسلمين؟ إن الإجابة على مثل هذا السؤال تستوجب العودة إلى صفحات التاريخ لنقرأ فيها فصلاً رهيباً من الإبادة والتكثير بالمسلمين في

٤- أنظر محمد محفوظ: الإسلام، الغرب، وحوار المستقبل، ط٩، المركز الثقافي العربي، ١٩٩٨.

٥- لمزيد من التفاصيل انظر: سعيد عاشور: الحركة الصليبية (جزءان)، أوروبا العصور الوسطى، مكتبة الانجلو المصرية.

مذابح رهيبة تظل أبداً الدهر وصمة عار في جبين هذه الثقافة الغربية، ويكفى هنا أن نشير إلى أن الصليبيين لم يتورعوا عن ذبح سبعين ألف مسلم اجتمعوا واحتشروا في المسجد الأقصى غداة سقوط بيت المقدس ١٠٩٩.

وكتب الصليبيون لبابا روما رسالة سجلتها كتبهم يقولون فيها: "إن جنودنا كانوا يخضون بسيفانهم حتى الركب في دماء المسلمين"، وقال المؤرخ الشهير "وليم الصوري": "كان بيت المقدس مخاضة واسعة من دماء المسلمين"، واعتصمت جموع المسلمين في مسجد عمر (وهو الموضع الذي صلى فيه بديلاً عن كنيسة القيامة حتى لا يتخذها المسلمين مصلى لهم) فيسجل أحد الكهنة المسيحيين ما رأى متألماً: "لقد افترق قومنا في سفك الدماء .. وكانت جثث القتلى تعوم في الساحة هنا وهناك .. وكانت الأيدي والأذرع المبتورة تسبح كأنها تريد أن تتصل بجثث اقتطعن منها".

أما المؤرخ المسلم أسامة بن منقذ<sup>(٦)</sup> (٤٨٨-٥٨٤هـ / ١٠٩١-١١٨٨م) الذي عاصر الحروب الصليبية، فقد كتب في مذكراته عن تلك الأحداث ووصف تفاصيلها. فكان قد شاهد الأحداث عن قرب لأنه كان كاتباً لدى صلاح الدين الأيوبي. وأورد ابن الأثير في كتابه (الكامل في التاريخ) بعض جرائم الصليبيين، إذ ينقل الحادثة التالية التي تعبر عن الوحشية والقسوة. فقد هاجم الصليبيون مدينة المعرة في سوريا، "وعند الفجر وصل الفرنج، إنها المذبحة، فوضع الفرنج فيهم السيف ثلاثة أيام فقتلوا ما يزيد على مائة ألف وسبوا السبي الكثير" ويصف أحد المؤرخين الصليبيين، راول دي كين، المرافق للجيش الذي دخل المعرة فيقول "كان جماعتنا في المعرة يغلون وثنيين بالغين في القدر، ويشكون الأولاد في سفايف ويلتهمونهم مشويين".

أما "جوستاف لوبون" فيسجل في كتابه "حضارة العرب"<sup>(٧)</sup> تلك المفارقة المذهلة بين رحمة حضارة الإسلام ووحشية ثقافة الغرب فيقول: "فأولئك العرب الذين خرجوا من الصحراء، أعطوا المسيحيين في القدس" العهد العمرى "المشهور والذي تعهد فيه المسلمون بالمحافظة على كنائس المسيحيين ومقدساتهم. وأما أولئك

٦- أسامة بن منقذ: مؤرخ وأديب عربي. ولد في شيزر، شمال حماة في وسط سوريا، ومات بدمشق.

٧- أنظر جوستاف لوبون: حضارة العرب، ترجمة: عادل زعير، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

الأوروبيون فكانوا يجوبون الشوارع ويصعدون إلى أسطح البيوت، ليروا غليلهم بالتقتيل.. وكانوا يذبحون الأولاد والشباب والشيوخ ويقطعونهم إربا إربا .. وكانوا يشنقون مجموعة من الناس بعضهم أمام بعض بحبل واحد بغية السرعة .. وقد أمر الأمير "بوهيمند" بإحضار الأسرى إلى برج النصر، فأمر بضرب رقاب الشيوخ والعجائز والضعاف، وأما الشبان والرجال فقد سيقوا لبيعوا في سوق الرقيق".

وبعد أن دخل الصليبيون المدينة المقدسة، تملكهم روح البطش والرغبة في سفك دماء العزل الأبرياء، فانطلقوا في شوارع المدينة وإلى المنازل والمساجد يذبحون كل من صادفهم من الرجال والنساء والأطفال، واستمر ذلك طيلة اليوم الذي دخلوا فيه المدينة. وفي صباح اليوم التالي، استكمل الصليبيون مذابحهم، فقتلوا المسلمين الذين احتموا بحرم المسجد الأقصى، وكان أحد قادة الحملة قد أمّنهم على حياتهم، فلم يراعوا عهده معهم، فذبحهم وكانوا سبعين ألفاً، منهم جماعة كبيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم وزهادهم ممن فارقوا أوطانهم وأقاموا في هذا الموضع الشريف.

ويعترف مؤرخو الحملات الصليبية ببشاعة السلوك البربري الذي أقدم عليه الصليبيون، فذكر مؤرخ صليبي ممن شهد هذه المذابح وهو "ريموند أوف أجيل"، أنه عندما توجه لزيارة ساحة المعبد غداة تلك المذبحة، لم يستطع أن يشق طريقه وسط أشلاء القتلى إلا بصعوبة بالغة، وأن دماء القتلى بلغت ركبتيه، وإلى مثل هذا القول أشار "وليم الصوري"، وهو الآخر من مؤرخي الحروب الصليبية<sup>(٨)</sup>.

ودمروا ما شاء لهم أن يدمروا، ونهبوا الكثير، كما نهبوا بعض المعادن النفيسة التي كانت على المقدسات، ولا سيما قبة الصخرة.

إن المفارقة بحق مذهلة، فالحرب الإعلامية والتي شنّها الصليبيون بدعوى اضطهاد النصارى قد نفّاها المؤرخون الأوروبيون أنفسهم بما اثبت - بلا اننى شك - زيف خطأ هذا الرأى، فالنصارى طوال عهود الإسلام تمتعوا برحابة صدر المسلمين، فهذا بطريرك بيت المقدس يعترف في رسالة سرية إلى زميله بطريرك القسطنطينية، جاء فيها بالنص القطعى: "إن المسلمين قوم عادلون، ونحن لا نلقى

٨- لمزيد من التفاصيل انظر: ولیم الصوری: الحروب الصليبية (أربعة أجزاء)، ترجمة حسن حشّی، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٤.

منهم أى أذى أو عنت " فماذا يأتى كان جزاء المسلمين العادلين؟ تلك الغارة والعدوان على الإسلام وشعوبه والتي تتم صباح مساء فى غلظة وقسوة منقطعة النظير.

وحتى تزيد المفارقة عجباً نضع صورة أخرى من التاريخ مشابهة تماماً، أنها صورة القائد "صلاح الدين الأيوبي" فى معاملة أعدائه بل وأعداء الإنسانية، فعندما دخل بيت المقدس اتجه إلى المسجد الأقصى الشريف فصلى وسبح بحمد ربه واستغفر ثم اتجه إلى قبة مسجد الصخرة فانزل الصليب المعلق عليها وعطرها، وأراد بعض الجند أن يحولوا كنيسة القيامة إلى مسجد، فأبى القائد المظفر وأمر بتركها مفتوحة، وكان سقط فى يده سبعين ألف صليبي (وهو نفس عدد المسلمين الذين ذبحوا قبل ٨٨ سنة) وأشار عليه البعض أن يثار للمسلمين مما فعله الصليبيون عندما دخلوا بيت المقدس فجعلوه مخاضة من الدماء، فأبى ثم سمح لهم بالخروج آمنين سالمين إلى حيث شاءوا من المدن الأخرى، كما سمح للأميرات بالخروج مصونات مكرمات ومعهن الأمتعة والملابس وكل ما يمكن حمله ومع كل أميرة حاشيتها وخدمها وكلهن فى أمن وطمأنينة، ثم فرض على كل أسير دية صغيرة قدرها عشرة دنانير على الموسيرين، ودينار على الفقير، ثم علم أن هناك أربعة آلاف أسير لا يجد الواحد منهم ديناراً يدفعه فدفع من ماله الخاص ديتهم فخرجوا فى سلام وأمان، حتى الأساقفة خرجوا محملين بمقتنيات الكنائس وفيها تحف من الذهب والفضة فلم يتعرض لهم أحد، وهكذا من مئات القصص حتى لقد انتقد بعض المؤرخين موقف الناصر صلاح الدين من إطلاق الأسرى على هذه الشاكلة حيث كونوا جييا قويا فى مدينة "عكا" والتي استقبلت فيما بعد حملة صليبية جديدة من البحر، ليس هذا النموذج كافيا وحده ليوضح إنسانية حضارة الإسلام فى مقابل وحشية وعنف ثقافة الغرب؟ إن القائد العظيم اقتدى برسوله الكريم (صلى الله عليه وسلم) عندما قال لمن أذوه واتباعه وضيقوا عليه وبغوا به القتل: "اذهبوا فانتم الطلقاء"، وبهذا الخلق الرفيع ارتقت حضارة الإسلام، ولقنت الغرب - كما يقول أحد المؤرخين - البرابرة الغربيين درساً فى الأخلاق كانوا فى أشد الحاجة إليه.

ولقد كانت الصليبيات درساً حضارياً قبل كل شيء لأوروبا، فقد كانت احتكاكاً حضارياً بين الشرق المتقدم والغرب المتخلف وكانت أول ما وحد أوروبا ومنحها شعوراً بالقومية<sup>(١)</sup>.

وعلى إثر الحروب الصليبية اندلعت الحروب الأندلس وشنّ المسيحيون على المسلمين حرباً ضروساً بلا رحمة ولا هوادة، ولكن ما هي قصة الإسلام في الأندلس؟





## الفصل الخامس الأندلس



## الفصل الخامس الأندلس

يا أندلس عليك سلام ... هوت عنك الخلافة والإسلام!!

أطلق المسلمون اسم الأندلس al-andalus على القسم الذي فتحوه من شبه الجزيرة الأيبيرية Iberia، وهي تعريباً لكلمة "فانداليشيا" التي كانت تطلق على الإقليم الروماني المعروف باسم باطقة الذي احتلته قبائل الفندال الجرمانية ما يقرب من عشرين عاماً ويسميهـم الحميري بالأندليش<sup>(١)</sup>. ويرى البعض أنها مشتقة من قبائل الوندال التي أقامت بهذه المنطقة مدة من الزمن، ويرى البعض الآخر أنها ترجع إلى أندلس بن طوبال بن يافث بن نوح عليه السلام<sup>(٢)</sup>.

والأندلس، فتحها القائد طارق بن زياد سنة ٩٢هـ - ٧١١م وقد أصبحت الأندلس جزءاً من الدولة الإسلامية. ويعتبر عبد الرحمن الداخل (صقر قریش) مؤسس الدولة الأندلسية سنة ٧٥٠ التي كانت مستقلة عن الدولة العباسية واعتبرت الأندلس امتداداً لدولة بني أمية التي قضى عليها العباسيون في الشرق عام ١٣٢هـ.

وقد كان للأندلس دور كبير في التأثير على أوروبا والممالك المجاورة لها وكان يقصد قرطبة العديد من أبناء أوروبا لطلب العلم. وقد دام الحكم الإسلامي للأندلس قرابة ٨٠٠ سنة.

وفي العصر الحاضر لا تزال منطقة جنوب إسبانيا تعرف باسم الأندلس وتعتبر إحدى المقطاعات التي تشكل إسبانيا الحديثة وتحتفظ بالعديد من المباني التي يعود تاريخها إلى عهد الدولة الإسلامية في الأندلس، وتحمل اللغة الإسبانية كثيراً من الكلمات التي يعود أصلها إلى اللغة العربية.

وقد ارتقت الحضارة الإسلامية في تلك المنطقة من دنيا الإسلام ارتقاءً رائعاً وناقست الحضارة الإسلامية فيها حضارة الإسلام في المشرق، وبلغ من عظمة

١- السيد عبد العزيز سالم: دائرة معارف الشعب، عدد ٦١ لسنة ١٩٥٩.

٢- لمزيد من التفاصيل انظر الطاهر أحمد مكي: دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة، ط٢ دار المعارف ١٩٨٣ ص ٩ - ٢٥.

قرطبة<sup>(٣)</sup> Cordova وازدهارها وخاصة إبان العهد الأموي في الأندلس إنها كانت أعظم مدينة في أوروبا كلها وتأتي على قدم المساواة مع القسطنطينية وبغداد إبان عزهما وناهيك ببلدة بلغ عدد مساجدها ١٦٠٠ مسجداً وبلغ المسجد الجامع في قرطبة شهرة عالمية وأكد الإدريسي أنه لا نظير له في المدن الإسلامية<sup>(٤)</sup>، وبلغ عدد حماماتها ٦٠٠ وفيها مائتا ألف دار وثمانون ألف قصر منها قصر دمشق شيده الأمويون حاكوا به قصورهم في بلاد الشام وقد بلغ عدد أرباض قرطبة (ضواحيها) تسعة أرباض كل ريبض كالمدينة الكبيرة، ودور قرطبة ثلاثون ألف ذراع، وفي ضواحيها ثلاثة آلاف قرية في كل واحدة منبر وفتية وقد قدر بعض المؤرخين عدد سكان قرطبة في أيام مجدها وعزها بمليونين نسمة، وكان بالرياض الشرقي من قرطبة مائة وسبعون امرأة يكتبن المصاحف بالخط الكوفي. هذا في ضاحية من ضواحيها، فكيف ببقية الضواحي، وقد كانت شوارعها مبلطة وترفع قمماتها وتثار شوارعها ليلاً بالمصابيح ويستضيئ الناس بسروجها ثلاثة فراسخ لا ينقطع عنهم الضوء. هذا شيء لم يحدث في أوروبا إلا في أواخر القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر. وبلغت قرطبة أوجاً لم تصل إليه مدينة في أوروبا قبل القرن الثامن عشر<sup>(٥)</sup>.

- ٣- انتقل الأمويون إلى قرطبة عام ٧٥٠ لدى سقوط دمشق في أيدي العباسيين وحكموها كإمارة حتى عام ٩٢٩ عندما أعلن عبد الرحمن الناصر نفسه خليفة المؤمنين متنافساً بذلك مع الخلافة العباسية، ومحولاً إمارته إلى خلافة قرطبة. وصلت المدينة لأوج مجدها في القرن العاشر في عهد حكامها العظام: الخليفة عبد الرحمن الناصر (٩١٢ - ٩٦١)، وابنه الحكم الثاني (٩٦١ - ٩٧٦) والحاجب المنصور بن أبي عامر (٩٨١ - ١٠٠٢). خلافة قرطبة كانت أكبر الدول الأوروبية في القرن العاشر. وكانت منارة العلم في أوروبا والتي أخذ عنها الأوروبيون العلم عن العرب المسلمين في مجالات كثيرة منها الطب والفلك والرياضيات والكيمياء. في القرنين ١٠٢٠، ١٠٣٠ سقطت الخلافة بسبب ثورة البربر ونشوء ملوك الطوائف الذين قسموا الدولة إلى أكثر من ١٢ دولة، منهم غرناطة وأشبيلية والمرية وبلنسية وطليطلة وسرقسطة والبرازين والباداجوز. وبينما ورت تلك الدولات ثراء الخلافة، إلا أن عدم استقرار الحكم فيها والتناحر المستمر بين بعضها البعض جعل منهم فريسة لمسيحيي الشمال ومن أهم معالم قرطبة الإسلامية مسجدتها الجامع من أجل ما أبدعه المسلمون في الأندلس، وقد صنفه اليونسكو كموقع تراث عالمي. مدينة الزهراء التي أنشأها عبد الرحمن الناصر باسم زوجته. وقد احترقت تماماً خلال ثورة البربر عام ١٠٢٠. ويجري حالياً ترميمها.
- قصر قرطبة (Alcazar) ومنه تم السماح لكريستوفر كولومبس عام ١٤٩٢ بالسفر بحثاً عن طريق جديد إلى الهند. الحمامات العربية وخطيرة قرطبة: والخطيرة هي حي اليهود في أي مدينة أندلسية بزمان الحكم الإسلامي.
- ٤- أنظر ليوبولدو توريس بلباس: تاريخ إسبانيا الإسلامية، ج ٢، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة ٢٠٠٢، رقم ٤١٢، ص ١٥.
- ٥- حسين مؤنس: قرطبة، درة مدن أوروبا في العصور الوسطى، مجلة العربي، عدد ٩٥، أكتوبر ١٩٦٦، ص ٨٥.

وفي ذلك يقول الشاعر:

بأربع فاقت الأمصار قرطبة \*\*\* منهن قنطرة الوادي وجامعها  
هاتان ثنتان والزهراء الثالثة \*\*\* والعلم أعظم شئ وهو رابعها<sup>(٦)</sup>

وقال آخر:

وليس في غيرها بالعيش منتفع \*\*\* ولا تقوم بحق الأنس صبياء  
وكيف لا يذهب الأبصار رونقها \*\*\* وكل روض بها في الوشى صنعاء  
أنهارها فضة، والمسك تربتها \*\*\* والخز روضتها والدر حصباء  
وللهواء بها لطف يرق به \*\*\* من لا يرق وتبدو منه أهواء<sup>(٧)</sup>

وبالطبع لم تكن قرطبة وحدها بهذا السمو فهناك طليطلة (٨) Toledo التي كانت لا تقل تألقاً وبهاءاً عن قرطبة، وهناك إشبيلية sevilla وGranada ومالقة malaga والمرية Almeria وإنما ذكرنا قرطبة Cordova كنموذج لما كانت عليه بقية المدن الأندلسية، لذلك لا غرابة إن انتشرت المكتبات والكتب في جميع أنحاء البلاد وكثر عشاقها وكثر التأليف والمؤلفون، ولا سيما أنه وجد حكام شجعوا العلم وهم أنفسهم كانوا مثلاً عالياً في حب الكتب وجمعها والاهتمام بها كالحكم الثاني الذي يحتل مكانة خاصة بين الحكام المتقنين ووصفوه بأنه كان جماعاً للكتب وكان يرسل المبعوثين إلى القاهرة ودمشق وبغداد والمدن الأخرى التي تهتم بالكتب، وذلك لشراء الكتب بأثمان عالية حتى استطاع أن يجمع نحو ٤٠٠ ألف مجلد لمكتبته<sup>(٩)</sup> بل ويروى أنه سجل عليها ملاحظات غاية في الدقة. وقد روى عنه ابن الأبار قائلاً "ولم يسمع في الإسلام بخليفة بلغ مبلغ الحكم في اقتناء الكتب والدواوين وإيثارها والتهمم بها"<sup>(١٠)</sup>.

٦- دائرة معارف الشعب: عدد رقم ٦١ مطابع الشعب، ١٩٥٩، ص ١٧.

٧- محمود احمد الحفني: زرياب، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ص ٦٩.

٨- هي مدينة مقاطعة كاستيا لا منتشا في وسط إسبانيا حالياً.. تقع على بعد ٧٥ كيلو متر من مدريد العاصمة الأسبانية. اشتهرت أيام الحكم الإسلامي لإسبانيا. حيث كانت مدينة أندلسية عريقة في القدم. اسم طليطلة تعريب للاسم اللاتيني "توليدوث" (Tholedoth) وكان العرب يسمون طليطلة مدينة الأملاك لأنها كانت دار مملكة القوط ومقر ملوكهم.

٩- الكسندر سميثشفتش: تاريخ الكتاب، القسم الأول، ترجمة محمد الأرنؤوط، سلسلة عالم المعرفة ١٩٩٣ العدد ١٦٩، ص ٢٤٥.

١٠- ابن الأبار: الحلة السواء، ج ١، تحقيق حسين مؤنس، دار المعارف، ط ٢، ١٩٨٥.

وقد أنتشرت الحلقات التعليمية في أغلب جوامع الأندلس<sup>(١١)</sup> وبشكل خاص في المدن الرئيسية كقرطبة وطليطلة وإشبيلية، ولقد وجد في كل جامع مكتبة غنية بمختلف فروع المعرفة الإنسانية، فقد كان للحلقات التي تعقد في جامع طليطلة شهرتها وأهميتها وجذبت إليها الطلاب المسلمين والنصارى على السواء حتى لقد كان يقصدها طلاب نصارى من جميع أنحاء أوروبا بما فيها إنكلترا واسكتلندا وقد احتفظت طليطلة بمكانتها هذه بعد سقوطها بيد الأسبان سنة ١٠٨٥م حيث وجد فيها هؤلاء مكتبة غنية عامرة حافلة بالكتب في أحد مساجدها وقد بلغت شهرة هذه المكتبة من حيث هي مركز للثقافة أقصى البلاد النصرانية في الشمال والواقع أن الثقافة العربية الإسلامية والتربية والتعليم انتشرت في القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين في إسبانيا المسلمة إلى درجة جعلت دوزي<sup>(١٢)</sup> يقول إن أغلب الناس في الأندلس أصبحوا قادرين على القراءة والكتابة، بل يمكننا أن نقول إن كل فرد تقريباً كان يعرف القراءة والكتابة وقد انتقلت الثقافة العربية إلى المستعربين الأسبان وهم الإسبان النصارى الذين أقاموا في البلاد الإسلامية وعاشوا تحت ظل الحكم الإسلامي، فقد سرت إليهم العادات الإسلامية وتعلموا اللغة العربية وكتبوا بها وألف بعضهم كتباً بها، بل واقتنوا مكتبات عربية يبدو ذلك واضحاً من نص يروي عن الكاتب النصراني المتعصب الفارو، ذلك أن هذا القس المهوس ببغض الإسلام وأهله كتب في القرن التاسع ميلادي يقول: "إن أخواتي المسيحيين يدرسون كتب فقهاء المسلمين وفلاسفتهم لا لتفنيدها، بل لتعلم أسلوب عربي بليغ

١١- محمد ماهر حمادة: روح التحرر في القرآن.

١٢- رابيهارت دوزي: (١٨٢٠م-١٨٨٣م) مستشرق هولندي في مدينة ليدن، بدأ دراسة العربية في المرحلة الثانوية وواصل هذه الدراسة في الجامعة، حصل على الدكتوراه عام ١٨٨١م وتعلم البرتغالية ثم الإسبانية فالعربية. وانصرفت عنايته إلى الأخيرة، فاطلع على كثير من كتبها في الأدب والتاريخ. أشهر آثاره "معجم دوزي - ط" في مجلدين كبيرين بالعربية والفرنسية، اسمه Supplement aux Dictionnaires Arabes (ملحق بالمعاجم العربية) ذكر فيه ما لم يجد له ذكراً فيها. وله "كلام كتاب العرب في دولة العباديين - ط" ثلاثة أجزاء، وبالألمانية "تاريخ المسلمين في إسبانيا" ترجم كامل الكيلاني فصولاً منه إلى العربية في كتاب "ملوك الطوائف ونظرات في تاريخ الإسلام - ط" وله "الألفاظ الإسبانية والبرتغالية المنحدرة من أصول عربية" بالألمانية. ومما نشر بالعربية "تقوم سنة ٩٦١ ميلادية لقرطبة" المنسوب إلى عريب ابن سعد القرطبي وريب بن زيد، ومعه ترجمة لاتينية، و"البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب" لابن عذارى، وقسم من "نزهة المشتاق" للإدريسي، و"منتخبات من كتاب الحلة السرياء" لابن الأبار، و"شرح قصيدة ابن عبدون".

واسفاه، إنني لا أجد اليوم علمانياً يقبل على قراءة الكتب الدينية أو الإنجيل، بل إن الشباب المسيحي الذين يمتازون بمواهبهم للفائقة أصبحوا لا يعرفون علماً ولا أدباً ولا لغة إلا العربية، ذلك إنهم يقبلون على كتب العرب في نهم وشغف ويجمعون منها مكتبات ضخمة تكلفهم الأموال الطائلة في الوقت الذي يحتقرون الكتب المسيحية وينبذونها.

بل أن كثيراً من رجال الدين في الأندلس تعلموا اللغة العربية وألفوا بها، فقد نقل يوحنا رئيس أساقفة أشبيلية التوراة من اللاتينية إلى العربية وذلك سنة ٧٦٤م كذلك نقل الأب فيسنتي ثمانية أجزاء من قوانين الكنيسة إلى اللسان العربي وأهداها إلى الأسقف عبد الملك في أبيات من الشعر العربي مطلعها كتاب لعبد الملك الأسقف النذب، جواد نبيل الرفد في الزمن الجذب.

وصنف ربيع بن زياد الأسقف كتاباً في تفضيل الأزمان ومصالح الأبدان وآخر بعنوان الأنواء وألف بدرو الفونسو (١٠٦٢-١١١٠م) كتاباً بالعربية عنوانه: تعليم رجال الدين ثم ترجمه إلى اللاتينية، ومنها نقل إلى لغات كثيرة وقد طواه على ثلاث وثلاثين قصيدة شرقية أقتبسها من حنين بن أسحق<sup>(١٣)</sup> ومباشر (لعل الاسم الصحيح المبشر بن فاتك) وكليلة ودمنة لذلك إذا رغب الطالب الإسكتندي أو الإنكليزي الاستزادة من أرسطو والتعمق فيه أكثر مما يسنخ له في الترجمات اللاتينية الميسورة فلا مندوحة له من الرحيل إلى طليطلة ليتعلم هناك كيف يقرأ كتب اليونان باللغة العربية وقد تحدث هيوستر باش Ceasar of Heister Bach عن شباب قصدوا توليدو (الصواب طليطلة) ليتعلموا الفلك لذلك لا غرابة إن لعبت الأندلس الدور الرئيسي في نقل معارف المسلمين العقلية وكتبهم إلى أوروبا ولا سيما أن تذكرنا أنه كانت هناك فئة أخرى من السكان المقيمين تحت الحكم الإسلامي هم اليهود والذين تمتعوا بالحرية الدينية المطلقة تحت حكم الإسلام وتعلموا اللغة العربية وألفوا بها إلى جانب إتقانهم اللغة اللاتينية والعبرانية، ولقد أصبح هؤلاء اليهود إلى أجناب المستعربين وعدد من اللاتينيين الوسطاء في عملية النقل هذه.

وقد أنتجت العبقرية الإسلامية في الأندلس آية من آيات الحضارة السامية، تلك الحضارة هي التي وضعت أسس النهضة العلمية والمادية في الغرب فيما بعد

١٣ - حنين بن اسحق: عنه الخليفة المأمون رئيساً لبيت الحكمة ولقب بشيخ المرجين، لكثرة الكتب التي ترجمها، كما كان طبيباً مشهوراً له بالكفاءة.

لجانبيها العلمى التطبيقي، ففي حين كانت أوروبا غارقة في الظلمات والجهالة لم يوظفها سوى حضارة الإسلام التي تطبق روح التعاون والعطاء والعدالة مع الشعوب وقد هيا الحكم الإسلامي لأسبانيا مكانة جعلها الدولة الوحيدة في أوروبا التي أفلتت من عصور الظلام".

أما جوستاف لوبون<sup>(١٤)</sup> الأوروبي المنصف فيقول: "وقد كانت ترجمات كتب العرب العلمية المصدر الوحيد للتدريس في جامعات أوروبا نحو ستة قرون. ويمكننا أن نقول أن تأثير العرب في بعض العلوم كعلم الطب مثلاً دام إلى الزمن الحاضر. فقد شرحت كتب ابن سينا في مونبيلييه في أواخر القرن الماضي ... وإذا كان تأثير العرب عظيماً في أنحاء أوروبا التي لم يسيطروا عليها ألا بمؤلفاتهم، فقد كان تأثيرهم اعظم من ذلك في البلاد التي خضعت لسلطانهم كبلاد أسبانيا .. ولن يرى الباحث مثلاً أوضح من العرب على تأثير إحدى الأمم في أمة أخرى، ولم يشتمل التاريخ على ما هو أبرز من هذا المثال"، كانت الأندلس أذن هي معبر العلم والفكر إلى الغرب وذلك جميعه بفضل القيم الحضارية التي أسستها حضارة الإسلام، وهذا أحد المستشرقين الأسبان يسجل شهادته التاريخية: "إن أسبانيا ما كان لها ان تدخل التاريخ الحضارى لولا القرون الثمانية التي عاشتها في ظل الإسلام وحضارته فكانت بذلك باعثة النور والثقافة في أوروبا المجاورة المتخبطة آنذاك في ظلمات الجهل والتخلف"، فماذا ياترى كان الجزاء لما غابت شمس الإسلام عن الأندلس، ودارت الدائرة على المسلمين؟، كانت صفحة حزينة ومؤسفة من تعصب ووحشية الغرب، ونكتفى هنا بمقولة وحيدة للمؤرخ "جوستاف لوبون": "يستحيل علينا أن نقرأ دون أن ترتعد فرائصنا من قصص التعذيب والاضطهاد التي قام بها المسيحيون المنتصرون على المسلمين المنهزمين، انهم عمدوهم عنوة وسلموهم لدواوين التفتيش التي أحرقت منهم ما استطاعت من الجموع وهكذا تم قتل وطرد ثلاثة ملايين عربى كانوا يشكلون النخبة الفكرية والصناعية في أسبانيا، وهكذا انطفأت حضارتهم الوهاجة التي ظلت تشع على أوروبا منذ ثمانية قرون "ومن أراد الاستزادة فعليه ان يعود للمراجع التاريخية والتي تصف هذه الفترة البائسة في حياة الإنسان، ليرى ايشع صور من العنف والقسوة المتناهية ضد الإنسانية (والتي جاءوا يبشرونا بها الآن) ،

١٤ - جوستاف لوبون G. Lebon ١٨٤١-١٩٣١م\*، طبيب، ومؤرخ ومفكر فرنسي، عني بالحضارات الشرقية. من آثاره: (حضارة العرب) باريس ١٨٨٤، (الحضارة المصرية)، و(حضارة العرب في الأندلس).



أنها المشاهد والتي ما زالت تتوالى طبعاتها القديمة الجديدة حتى الآن.  
 مأساة نهاية المسلمين في بلاد الأندلس<sup>(١٥)</sup> : ولم يبق من معاقل الإسلام الجنوبية والشرقية في الأندلس سوى مملكة غرناطة وقد جاء دورها بعد الاستيلاء نهائياً على جميع القواعد والقلاع والحصون الأندلسية الأخرى، والتي غدت من أملاك ملكي قشتالة فرديناند وإيزابيلا وهي ملاقة والمرية ووادي آش والحامة وبسطة وغيرها، وتدجن<sup>(١٦)</sup> أهلها وأصبحوا يدينون بطاعة الملكين، وفر العديد من المسلمين وذهب كثير منهم إلى المغرب، وتفرقوا في ثغوره، وهرعت الألوف إلى غرناطة تلوذ بملكها السلطان اللفتي، إلا أن هذا السلطان كان يراقب الحوادث جزعاً، فشعر أنها تسير إلى نتيجة محتومة، وهي سقوط غرناطة<sup>(١٧)</sup> Granada في

١٥- محمد باقر الحسني: مجلة آفاق عربية، السنة الرابعة العدد الأول، سبتمبر ١٩٧٨.

١٦- المدجنون: المسلمون العرب الذين دجنوا في الأندلس بعد نزوح العرب عنها، فاستمروا على تمسكهم بالتقاليد العربية، ونقلوا التراث العربي إلى الآثار القوطية، وكانوا جسراً لنشر هذا التراث في أنحاء أوروبا.

١٧- غرناطة مدينة تقع على بعد (٢٦٧) ميلاً جنوب مدينة مدريد (عاصمة أسبانيا حالياً). وهي إحدى ولايات الجنوب الأسباني وتطل على البحر المتوسط من الجنوب وتطل على غر شنبيل وسانتياغو قصور الحمراء وتلها العالي. وهي تملو قرابة (٦٦٩) متر فوق سطح البحر مما جعل مناخها غاية في اللطف والجمال. ومنه اشتق اسمها، حيث تعني كلمة غرناطة عند عجم الأندلس "رمتة" وذلك لحسنها وجفافها.

أسست مدينة غرناطة في موضع مدينة رومانية صغيرة تعرف باسم البيري. وطوال التاريخ الروماني بأسره لم يكن لهذه المدينة ذكر كبير. ويرجع ازدهار المدينة وعظمتها إلى أسرة بني الأحمر بعد أن دخلها محمد بن يوسف بن نصر استجابة لدعوة أهلها عام ٦٣٥هـ/١٢٣٨م لحماية من الصليبيين. ومنذ ذلك الحين أصبحت غرناطة عاصمة لمملكة بني الأحمر. وبعد أن استوطن بنو الأحمر بها أخذوا يحفون عن مكان مناسب تتوفر لهم به القوة والمنعة فاستقر بهم المطاف عند موقع الحمراء في الشمال الشرقي من غرناطة. وفي هذا المكان المرتفع وضع أساس حصنهم الجديد "قبة الحمراء". ولكي يوفر له الماء أقيم سد مع فرة حدة شمالي التل شيدت عليه القلعة ومنه تؤخذ المياه وترفع إلى الحصن بواسطة السواقي. واتخذ بنو الأحمر من هذا القصر مركزاً للكمهم وأنشئوا فيه عدداً من الأبراج المنيرة وأقاموا سورا ضخماً يمتد حتى مستوى المضفة.

ولقد كانت الحمراء قلعة متواضعة في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي. ولكن عندما تولى باديس بن حيوس زعيم السير غرناطة اتخذها قاعدة للكمه وأنشأ سورا ضخماً حول التل الذي تقع عليه وبني في داخله قصبة جعلها مركزاً لحكمه وقد تطورت مع الزمن وأصبحت حصن غرناطة المنيع.

وكان عهد السلطان يوسف الأول وولده محمد الخامس هو العصر الذهبي لعمليات الإنشاء والتشييد في قصر الحمراء فقسي عهد الأول: أقيم السور الذي يحيط بالحمراء بأبراجه وبوالبه العظيمة المعروفة بباب الشريعة أو العدل وغير ذلك من الأبراج والقصور والحمامات. ثم قام ابنه بإصلاح ما بدأه أبوه وإتمامه ثم قام بتشييد مجموعة قصر السباع وقاعة الملوك أو العدل وغيرها.

وقد حصن بنو الأحمر غرناطة تحصيناً منيعاً واستطاعوا أن يصدوا هجمات الصليبيين، وظلت المدينة حصناً شامخاً ومعقلاً للإسلام في بلاد الأندلس مدة تزيد على المائتين والستين سنة حتى سقطت في قبضة الجيوش النصرانية عام ٨٩٧هـ/١٤٩٢م وسقوط غرناطة انتهى آخر مظهر من مظاهر السيادة الإسلامية.

يد العدو، وفي أثناء ذلك طلب ملكي قشتالة إلى السلطان الفتى تسليم الحمراء، مقر الحكم والملك، هو قصر الحمراء الكبير، وما حوله من الحصون والأبراج وأن يبقى مقيماً في غرناطة في طاعته وتحت حمايته، أسوة بما فعله عمه الزغل، فثار السلطان الفتى لذلك الغدر وأدرك فداحة خطئه في مخالفة ذلكما الملكين الغادرين، فجمع السلطان الفتى الكبراء والقادة واجمعوا على الرفض والدفاع حتى الموت عن وطنهم ودينهم، وأجابوا الملكين بالحرب بعد محاولة إقناعهما بالعدول عن طلبهما، ودوت غرناطة بصيحة الحرب، وخرج السلطان الفتى، الذي أصبح رجلاً مؤمناً بقضيته وأمته بعد أن كان خائناً لها بقواته يحاول استرداد القواعد والحصون المسلمة المجاورة، وثار في الوقت نفسه أهل البشرات معه، ووقعت عدة معارك بينه وبين ملكي قشتالة، استطاع في أواخر سنة ٨٩٥هـ/١٤٨٩م أن يسترد كثير من الحصون والقوى في تلك المنطقة، وعاد السلطان الفتى إلى غرناطة ظافراً، وغضب الملكين لتلك المفاجأة التي لم يكونا يتوقعانها. وقررا إنهاء أمر غرناطة، فخرجاً في ربيع عام ٨٩٦هـ/١٤٩٠م في جيش كبير مزود بالمدافع والذخيرة نحو غرناطة، فحاصراها في جمادي الآخرة في العام نفسه، وطال الحصار، ودافعت غرناطة عن نفسها دفاعاً مجيداً، ولكنها تعرضت للجوع والمرض، وهم السلطان الفتى لمفاوضة الملكين للتسليم غير مرة، ولكنها كانت تلقي استكراً شديداً أول الأمر وخاصة من قائده موسى بن أبي الغسان، وأخيراً اتفقت كلمة الزعماء على التسليم واختير أبو القاسم حاكم المدينة لمفاوضة الملكين وتم الاتفاق بعد مفاوضات استمرت بضعة أسابيع إلى وثيقة سرية مكونة من ست وخمسين مادة، تسلم فيها غرناطة إلى الملكين طوعية واختياراً في ظرف ستين يوماً من تاريخ توقيع المعاهدة، وأن يؤمن المسلمون في أنفسهم وأموالهم وأعراضهم وأن يحتفظوا بشريعتهم وقضائهم، وأن يتمتعوا أحراراً بشعائر دينهم، وأن تبقى المساجد حراماً مصونة، وغير ذلك من المواد، وقد ذيلت هذه المعاهدة بنبذة خلاصتها، أن ملكي قشتالة فرديناند الخامس وإيزابيلا يؤكدان ويقسمان بدينهما وشرفهما الملكي القيام بكل ما يحتويه هذا العهد من النصوص، ويوقعانها باسميهما ويمهرانها بخاتميهما، وعليها تاريخ تحريرها وهو يوم ٢٥ نوفمبر ٨٩٧هـ/١٤٩١م، وما كادت أنباء الموافقة على عهد تسليم غرناطة تصل أسماع الناس حتى عم الحزن ربوع هذه المدينة، واضطرم الشعب بأساً وسخطاً على قادته ولا سيما السلطان الفتى الذي

اعتبر مصدر كل مصائبه ومحنه، وتعالى النداء بوجوب الدفاع عن المدينة حتى آخر نسمة وقيد خشي السلطان أن تقضي هذه الحالة على خططهم وتدبيرهم، ولكنها انهارت قبل أن تنتظم وأضحى كل فرد يفكر في مصيره، وبعد عام من تسليم غرناطة ذيلت هذه المعاهدة مرة أخرى وبالأذات يوم ٣٠ ديسمبر سنة ١٤٩٢ م (يبدو أنها لم تطبق بحذافيرها) بتأكيد جديد يأمر فيه الملكان ولدهما الأمير وسائر عظماء المملكة بالمحافظة على محتويات هذا العهد، ويقسمان بدينهما وشرفهما الملكي بأن يحافظا، ويأمران بالمحافظة على كل ما يحتويه بندا بندا إلى الأبد، وقد ذيل هذا التوكيد بتوقيع الملكين وتوقيع ولديهما، وجمع كبير من الأمراء والأحبار والأشراف والعظماء، وهكذا أذعن غرناطة وسلمت وانتهت دولة الإسلام في الأندلس في صفر ٨٩٧هـ/١٤٩١م ودخل الأسبان غرناطة في الثاني من ربيع الأول ٨٩٧هـ/١٤٩٢م وطويت بذلك إلى الأبد تلك الصفحة المجيدة الرائعة من تاريخ المسلمين في أوروبا.

ولنا أن نتساءل كيف تعامل القشتاليون النصارى مع مسلمي الأندلس بعد سقوطها؟

كيف كان جزاء الغرب للأندلس<sup>(١٨)</sup>، التي أعارته العقلانية والتتوير وأسباب النهضة؟

وكانت التجربة التاريخية في الصراع الحضاري بين الغرب والحضارات الأخرى في الأمريكتين، وأفريقيا وآسيا، تؤكد على أن الغرب كان أبداً أسيراً لعقده تجاه حضارات الآخر، ولعل ما آل إليه حال الإسلام والمسلمين الذين تجذر وجودهم في الأندلس، يمثل أوضح نموذج لتلك الروح العدوانية.

وكان الأندلسيون بين رحى التعذيب والهجرة قبل فرض سياسة التنصير وحيث وجب ألا يغيب عنا أن الدين قد أثر على فكر الأسبان وسلوكهم خلال القرن السادس عشر. وعليه فإن التعصب الديني كان قابلاً في سياسة ملوك إسبانيا إذ تولد عنه الخوف المستمر من بقاء المسلمين بإسبانيا وتواصل الفتوحات العثمانية في شرق أوروبا، لهذا لجأت الحكومة الإسبانية إلى تعميم الإرغام على التنصير<sup>(١٩)</sup>.

١٨- أنظر عبد الجبار الرفاعي: متاحف ثقافية، مؤسسة المرتضى العالمية - بيروت/١٤١٤.

١٩- حنفي هلايلي: الأندلسيون في كتابات أحمد المقرئ التلمساني، مجلة التراث العربي، العدد ٩٧ - السنة الرابعة والعشرون - آذار (مارس) ٢٠٠٥.

لقد عامل الصليبيون أهل الأندلس بعد أن سقطت بأيديهم بروح ثأرية عدوانية، حتى أن القسيسين كتبوا على جميع من كان أسلم من النصارى أن يرجعوا قهراً إلى الكفر، ففعلوا ذلك، وتكلم الناس ولا جهد لهم ولا قوة، ثم تعدوا إلى أمر آخر، وهو أن يقولوا للرجل المسلم: إن جددك كان نصرانياً فأسلم فترجع نصرانياً... وبالجملة فإنهم تنصروا عن آخرهم بادية وحاضرة، وامتنع قوم عن التنصر، واعتزلوا النصارى، فلم ينفعهم ذلك، وامتنعت قرى وأماكن كذلك، منها بلفيقي وأندرش وغيرهما، فجمع لهم العدو الجموع واستأصلهم عن آخرهم قتلاً وسلباً.

وكانت أحكام الإعدام بالنار كثيرة ضد المسلمين وكان يحرق المتهمون جماعياً في مواكب الموت للترهيب، وأحياناً عائلات بأكملها، بأطفالها، ونسائها، وكانت محاكم التفتيش Inquisition<sup>(٢٠)</sup> تحاكم الموتى، فتنبش قبورهم، وتتابع الغائبين، وتعاقب أهلهم، وكان أعضاؤها يتمتعون بالحصانة الكاملة. وكان المتهم يسجن في سجن ضيق خشن، يُقيد فيه بالأغلال، ويُحرّم من الطعام والشراب والنوم... وتلجأ المحكمة إلى درجات أشد وأقسى من صنوف التعذيب، منها تعليق المتهم من يديه ورجليه على الحائط، ومنها دفع المتهم إلى مكان عالٍ وإلقائه ليهوي إلى الأرض، ومنها أيضاً الكي بشعلة ملتهبة.. وتعريض قلمي المتهم بعد أن تطليا بالشحم إلى نار ملتهبة، ثم يظهر المفتش لانتزاع الاعتراف، وفي كثير من الحالات كان الكثير يموتون قبل الإدلاء بأي اعتراف.

٢٠- هي محاكم خاصة لم ير التاريخ لها مثيلاً كان شعارها القسوة التي لا رحمة فيها والاضطهاد الذي لا هوادة فيه، أنشأها الكنيسة الكاثوليكية في القرن الثالث عشر غارة فكرة المهرطقة.. وهي وصف لمن اختلف معهم في الشرح المحدد للنص الانجيلي من قبل المتزمتين في الكنيسة، وكانت جسامتها سرية وكانت تتجسس بكل الطرق وتقبط على من نشاء وتعذب المقبوض عليهم بما تراه حتى تكرهم على الاعتراف بالإلحاد وحينئذ توقع عليهم عقوبة الإحراق أو السجن المؤبد ومصادرة الأملاك، حتى التابعون منهم يسجنون طول حياتهم تطهيراً لهم من جرمهم! وكان توماس توركوما، هو رجل متدين يرأس هيئة التفتيش للبحث عن هؤلاء المهرطقة، ويقوم بوعظهم وتعذيبهم وقتلهم أن لم يعودوا إلى كنف الكنيسة الكاثوليكية، وكان يسمى بالمفتش العظيم أو غراند انكوزيتير، كان لدى المفتش العظيم مجموعة من الموظفين والمتطوعين يجوبون الأسواق ويزورون القرى بحثاً عن أصحاب البدع من المهرطقة وكان لديهم الصلاحيات في تنفيذ أمر الله بإعدام وحرق وتعذيب من يظنون أنه كذلك. دامت محاكم التفتيش نحو ٣٠٠ سنة ثم أوقفت عام ١٥٤٢م، إلا أن محاكم التفتيش الأسبانية (الأشد وحشية) التي أنشئت في نهاية القرن الخامس عشر بأمر فرديناند وإيزابلا لأغراض تتعلق "بالأمن القومي" لم تبطل إلا في عام ١٨٣٤م..

وقد نجحت أساليب محاكم التفتيش<sup>(٢١)</sup> Inquisition، في جر الأب لأن يشهد على ابنه، والابن على أبيه، والزوج ضد زوجته، والزوجة على رجلها، وقد هنا البابا جريجوري التاسع في إحدى المرات المفتش الكنيسي العام في شمال فرنسا على نجاحه المنقطع النظير في إرهاب الناس، حتى شهد الكثيرون ضد ذويهم من لحمهم ودمهم.

#### محنة الموريسكيين:

الموريسكيون هم العرب المنتصرون الذي عاشوا في بلادهم الأندلس بعد سقوطها<sup>(٢٢)</sup> واضطروا للتظاهر بالنصرانية ولكنهم كتموا أيمانهم، فكانوا يقيمون الصلاة في منازلهم، ويغتسلون، ويمارسون شعائهم بصورة سرية. وكتبوا القرآن الكريم سراً باللغة العربية، مقروناً بشروح وتراجم الخميادية، و"الالخميدادو" هي اللغة التي اتخذها الموريسكيون بعد أن منعوا من استعمال العربية، وقد عرفها مننديت أي بلايو (بأنها اللغة الرومانية القشتالية، تكتب بأحرف عربية). وقد استعمل الموريسكيون هذه اللغة في كتابة سيرة الرسول والمدايح النبوية، وقصص الأنبياء، وبعض كتب الفقه، والحديث، مع كتابة البسملة والآيات القرآنية دائماً خلال هذه الشروح السرية باللغة العربية، وقد كانت معظم الكتب الالخميدادية تكتب بالشكل الكامل، حتى يمكن قراءتها بطريقة صحيحة. وقد ترك الموريسكيون تراثاً أدبياً من النثر والنظم استعملوا في كتابته "الالخميدادو"، وتوجد منه مجموعات كثيرة في مكتبة مدريد الوطنية، ومكتبة أكاديمية التاريخ. ولكن محاكم التحقيق "التفتيش" لاحقت الموريسكيين، فحضرت عليهم كل ممارسة أو شعيرة إسلامية يمارسونها في الخفاء، حتى أنها وضعت قائمة طويلة بهذه المحضورات، ومنها: ان الموريسكي أو العربي المنتصر، يعتبر أنه قد عاد إلى الإسلام، إذا امتدح محمداً، أو قال إن يسوع المسيح ليس إلهاً. ومنها: ان يحتفل يوم الجمعة بأن يلبس ثياباً أنظف من ثيابه العادية، أو يستقبل المشرق قائلاً "باسم الله" أو يخنن أولاده، أو يسميهم بأسماء عربية، أو يقسم بإيمان القرآن أو يصوم رمضان ويتصدق خلاله،

٢١- لمزيد من التفاصيل حول محاكم التفتيش أنظر دراسة العلامة اسحق عبيد: محاكم التفتيش "نشأها ونشاطها" كلية الآداب ١٩٨٥.

٢٢- عبد الجبار الرفاعي: متابعات.

أو يمتنع عن أكل لحم الخنزير وشرب الخمر، أو يقوم بالوضوء والصلاة بأن يوجه وجهه نحو المشرق، إلى غير ذلك من الأمور التي لا نهاية لها. وكان قد صدر قانون في عهد الإمبراطور شارلمان سنة ٨٠٢٦م، يحرم على الموريسكيين التخطيب باللغة العربية، وارتداء الثياب العربية، واستعمال العمامات، وإقامة الحفلات على الطريقة الإسلامية... وفي سنة ١٥٥٥م توفي هذا الإمبراطور، وخلفه ولده الملك فيليب الثاني، الذي كان شديد التعصب والتزم، فحدد ذلك القانون القديم بتحريم استعمال اللغة العربية، وسائر ما هو عربي من العادات والتقاليد، وأعلن قانوناً في غرناطة أول يناير سنة ١٥٦٧م في اليوم الذي سقطت فيه غرناطة، ينص على أنه: يمنح الموريسكيون ثلاثة أعوام لتعلم اللغة القشتالية، ثم لا يسمح بعد ذلك لأحد منهم أن يتكلم، أو يكتب، أو يقرأ اللغة العربية، أو يتخاطب بها، وكل معاملات أو عقود تجري بالعربية تكون باطلة، ولا يعتد بها لدى القضاء أو غيره ويجب أن تسلم الكتب العربية، من أية مادة، لتقرأ وتُفحص، ثم يُرد غير الممنوع منها لتبقى لدى أصحابها مدى الأعوام الثلاثة فقط. وكذلك الثياب العربية، فلا يصنع منها أي جديد، ولا يُصنع إلا ما كان مطابقاً لأزياء النصارى، ويحضر على النساء الموريسكيات التحجب، وعليهن أن يكشفن وجوههن، وأن يرتدين المعاطف والقبعات عند الخروج، ويجب أن تجري سائر حفلاتهم طبقاً لتقاليد الكنيسة وعُرف النصارى، ويجب أن تُفتح المنازل أثناء الاحتفال بأية مناسبة، وكذلك أيام الجمع والأعياد ليستطيع القس ورجال السلطة أن يروا ما يقع بداخلها من المظاهر والرسوم المحرمة، ويحرم إنشاء الأغاني القومية، ويحرم الخضاب بالحناء، ولا يسمح بالاستحمام في الحمامات، ويجب أن تهدم سائر الحمامات العامة والخاصة.

لم يتوقف اضطهاد الموريسكيين عند هذا الحد، وإنما تواصل حتى انتهى إلى أن يتخذ مجلس الدولة قراراً بالإجماع في ٣٠/١/١٦٠٨م، ينص على طرد الموريسكيين من بلادهم، ونفيهم إلى خارج أسبانيا، وقد اتخذت تدابير قمعية رهيبة إزاء من تخلف منهم عن الرحيل، فمثلاً صدر قرار عام ١٦١١م، بالنسبة للمتخلفين من المسلمين في "بلنسية"، يقضي بإعطاء جائزة ستين ليرة، لكل من يأتي بمسلم حي، وله الحق في استعباده، وثلاثين ليرة لمن يأتي برأس مسلم قُتل.

لقد لخص العلامة الأسباني الدون برونات، في كتابه "الموريسكيون الأسبان ونفيهم" بعض ما لحق الآداب والفنون في أسبانيا من ظلامية ونضوب، بفعل نفي الموريسكيين وأبادتهم بقوله: (إن السياسة الأسبانية لم تكثف بنفي الموريسكيين، وما ترتب عليه من نضوب حقولنا ومصانعنا وخزائننا، ولم يقتصر الأمر على انتصار التعصب وبربرية "ديوان التحقيق"، بل تعداه إلى اختفاء الشعر، وشعور الجمال الموريسكي، والأدب السليم، الذي رفع سمعة تاريخنا... أنه اختفى بنفي الموريسكيين الأدب المعطر، والشاعرية الشعبية، والخيال الممتع، ومصدر الوحي الذي كانوا يمثلونه وقد غاض باختفائهم من شعرنا، هذا التلوين، والفن والحيوية، والإلهام والحماسة، التي كانت من خواصهم، وحل محلها الظلام في الأفق الأدبي، خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر هذا ما فعله الغرب مع الشرق فما الذي فعله الشرق مع الغرب ولهذا قصة سنتناولها في الفصل التالي.





## الفصل السادس الشرق والغرب



## الفصل السادس الشرق والغرب

تمت عملية الإخصاب بين الفكر العربي البالغ كمال تطوره وبين العقل الأوروبي، وهو بسبيل يقظته وتلمس طريقه في البداية، تمت عملية الإخصاب هذه في منطقتين: الأولى أسبانيا (وقد تناولناها في الفصل السابق) وفي مدينة طليطلة منها بخاصة، والثانية صقلية، وجنوب إيطاليا، خصوصاً في عهد ملوك النورمان وأشهرهم رجار الثاني المتوفى سنة ١١٥٧ وفردريك الثاني المتوفى سنة ١٢٥٠م. فقد كانت هاتان المنطقتان نقطتي التلاقي بين الثقافة العربية الإسلامية الزاهرة وبين العقلية الأوروبية الناشئة، لأنهما على الحدود بين دار الإسلام وبين أوروبا. وقد بدأت محاولات فتح المسلمين لجزيرة صقلية منذ عهد الخليفة عثمان بن عفان بواسطة والي الشام معاوية بن أبي سفيان في القرن السابع الميلادي، ومرة في أوائل القرن الثامن الميلادي بواسطة عبد الله بن موسى بن نصير ومرة بواسطة بشر بن صفوان. وقد توالست محاولات فتح الجزيرة مرات عدة إلى أن فتح العرب العاصمة بالرمو عام ٨٣١م. بعد أن مهد لهذا الفتح القائد أسد بن الفرات<sup>(١)</sup> ثم افتتحت بقية مدن صقلية وتمت السيطرة عليها عام ٩٠٢م.

١- أسد بن الفرات، ولد في (حرّان) من ديار بكر، أبو عبد الله الحراني، سنة ١٤٤هـ / ٧٦١م، ثم قدم القيروان وهو ابن سنتين مع أبيه الذي كان من أعيان الجند في جيش (محمد بن الأشعث الحرّاني) والي إفريقية من قبل الخليفة أبي جعفر المنصور، ثم رحل مع أبيه إلى تونس فأقام بها تسع سنين لزم خلالها الفقيه المعروف (علي بن زياد) وتعلم منه وتفقه عليه، ولم يكنف بذلك، بل أراد أن يستزيد من العلم فقرر الرحيل إلى المدينة المنورة سنة ١٧٢هـ / ٧٨٨م، لينهل من علم الإمام مالك، وبعدما قرر الرحيل إلى العراق، ثم قدم ابن الفرات إلى (القيروان) عاصمة المغرب سنة ١٨١هـ، وكان ممن تلاميذه (سحنون بن سعيد) و(معمّر بن منصور) و(سليمان بن عمر) ثم تقلد القضاء مع (أبي حمزة) وكان أسد شديداً في الحق، وتمكن من علمي الحديث والفقه. وكان مع توسعه في علمه فارساً شجاعاً مقداماً، فقد طلب أسد بن الفرات أن يكون مع المجاهدين في الحرب ضد الروم في جزيرة صقلية فأبى الأمير خوفاً عليه، فأخ أسد في طلبه وقال: (وجدتم من يسير لكم المراكب من النوبة) (الملاحين) وما أحوالكم إلى من يسورها لكم بالكتاب والسنة. وكان يريد أن يكون جندياً متطوعاً لا يريد الإمارة، فلما أعطيه تألم وقال وزحف مع الجيش إلى جزيرة صقلية سنة ٢١٢هـ / ٨٢٧م، وخرج لهم صاحب صقلية في مائة ألف وخمسين ألفاً، ثم حمل بالجيش حملة عنيفة على صاحب صقلية، حتى سقط أسد بن الفرات شهيداً سنة ٢١٣هـ / ٨٢٨م، وهو يحمل راية النصر ولم يعرف له قبر.

وبين أعوام ٨٣١م-١٠٩٢م حكم المسلمون صقلية أى ما يقارب ٢٦٠ سنة، كما استمرت مؤثراتهم الحضارية فى الجزيرة أكثر من مئتي سنة أخرى، وكان التفاعل الحضارى بين العرب والصقليين والأوربيين طسلة خمسة قرون فى أوسع مدى حضارى، خاصة أن سكان صقلية فى فترة الحكم العربى قاربوا مليوناً وستمئة ألف نسمة بينهم ستمئة ألف مسلم، وهى كثافة سكانية مرتفعة إذا ما قيسست بالنسبة للفترة التاريخية فى العصور الوسطى<sup>(٢)</sup>.

ومن الأهمية بمكان القول، إن انتهاء الحكم الإسلامى فى صقلية لا يعنى مطلقاً انتهاء حضارة العرب والمسلمين، بل بقية الحضارة العربية مؤثرة وفاعلة فى صقلية وبقية المناطق الإيطالية وبالتالى الأوروبية.

ولقد تمتعت صقلية خلال العهدين الأغلبى والفاطمى بحكم إسلامى مزدهر، وانتشرت فيها القصور والعمارة العربية، بما فيها الماجد والزوايا والتكايا والبيمارستانات (المستشفيات) والأسواق والأسوار والقلاع والمدارس والمعاهد العلمية، وصناعة السفن والورق والحريز والفسيفساء، كما استخرج المسلمون منها النفط والحديد والرصاص وبقية المعادن وتفاعل العرب مع الصقليين فى الزراعة والصناعة والتجارة، وانتشرت اللغة العربية وآدابها على نطاق واسع، كما انتشرت العادات والتقاليد العربية وعومل أهل صقلية معاملة إسلامية حضارية لم تشهدها صقلية فى أى عهد سابق على عهد المسلمين<sup>(٣)</sup>.

الأمر الملاحظ أن النورمان بعد أن استعادوا صقلية حرصوا على إبقاء المسلمين فيها للاستفادة من حضارتهم وخبراتهم العلمية والإدارية والمالية والاقتصادية والسياسية، وكذلك الخبرة العسكرية، لهذا فإن ملوك النورمان سكوا عملة ونقوداً تحمل فى أحد وجهيها<sup>(٤)</sup> آية قرآنية كريمة: "هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ"<sup>(٥)</sup>.

٢- حسان حلاق: عندما كانت صقلية معبراً للتفاعل الحضارى بين العرب والغرب، مجلة العربى، العدد ٥٣١ فبراير سنة

٢٠٠٣م، ص ٦٠.

٣- نفسه، ص ٦٠.

٤- نفسه، ص ٦٠.

٥- سورة الصف: آية ٩.

### اللقاء الحضاري بين الشرق الإسلامي والغرب الأوروبي:

اتخذ اللقاء بين الشرق والغرب أشكالاً وألواناً مختلفة<sup>(٦)</sup>، تختلف باختلاف أطراف المواجهة والظروف والأمكنة، ومن الطبيعي أنه كان ينتج عن هذه اللقاءات - سلماً كانت أو حرباً - إفرازات وتداعيات على مختلف المستويات، وقد تفاوتت حلقات التواصل بين الشرق والغرب، ففي زمن الحروب الصليبية لم يكن الامتزاج الحضاري بين المسيحية والإسلام في الشام على المستوى نفسه الذي كان عليه في الأندلس وصقلية، وذلك لافتقار المملكة اللاتينية في القدس إلى مركز علمي كبير للمعارف الإسلامية التي يستطيع المسيحيون أن يستمدوها منه على غرار طليطلة Toledo وبالرمو، ولكن هذا لم يمنع بعض العلماء والتجار والمحاربين الصليبيين، أن ينقلوا عن طريق المشاهدة العينية، بعض المعارف عن الزراعة والملاحة والصناعة.. الخ من شرق البحر المتوسط إلى أوروبا، وذلك باعتبار أن العلاقات بين طرفي المواجهة لم تكن دائماً قائمة على الحرب والقتال، بل شهدت في أحيان كثيرة فترات من الهدنة والسلام، خاصة بين المستعمرات الصليبية التي كانت تعيش وسط إمارات إسلامية داخل الشام مثل حلب ودمشق وحمص وحماة، إلى جانب القلاع والحصون مثل حصن شيزر الذي ما زالت أطلاله باقية على نهر العاصي في شمال الشام. ولذلك سنباحل تسليط الضوء على حركة الحروب الصليبية التي استغرقت مدة قرنين من الزمن، وكان لها إسهام في حركة التفاعل الحضاري بين الطرفين، لا نزال نتلمس تداعياته حتى يومنا هذا.

وما ساهم في توثيق العلاقة بين المحتل الصليبي والمواطنين، اعتماد الصليبيين على أهالي المنطقة من الصناع والفلاحين وغيرهم، باعتبار أن المساعدات التي كان الغرب يقدمها، كانت غير كافية، ومن اللافت للانتباه، أن الصليبيين قد تأثروا بالمسلمين خلال الحروب الصليبية، في ميادين كثيرة ومتنوعة، فالطب والكيمياء والفلك والجغرافيا والرياضيات والزراعة والأدب في الغرب كلها مدينة في جذورها الأولى وقواعدها العميقة وأصولها الراسخة إلى حضارتنا التي أثّرت في حياة الغرب الاجتماعية والفنية والأدبية وفي حاجاته اليومية<sup>(٧)</sup>.

٦- أنظر عبد الجبار الرفاعي: المرجع السابق.

٧- يوسف عز الدين: أثر تراثنا الحضاري في حضارة الغرب، مجلة النور، عدد ١٧٢، يونيو ٢٠٠٦.

فمن الناحية الاجتماعية، نجد أنه نشأت علاقات زواج مع المواطنات المسيحيات من الموارنة والأرمن وبعض الأسيرات المسلمات، فنشأ عن هذه الزيجات جيل من المولدين عرف باسم بولاني Pullan، وقد غلب الطابع الشرقي على طبائع هؤلاء وعاداتهم، ومع الوقت، أخذ الصليبيون يكتفون حياتهم في الشرق حسب مقتضيات الحال والمناخ، فارتدوا الملابس الشرقية الفضفاضة واسعة الأكمام، وأطلقوا لحاهم، وأكلوا الأطعمة الشرقية، وسكنوا القصور والبيوت ذات الطراز الشرقي وما إلى ذلك...

ومن ناحية البحث العلمي فقد كان لعلماء الحضارة الإسلامية فضل السبق إلى اتباع الأسلوب العلمي في أبحاثهم ودراساتهم، وكانوا يقدسون العقل والتفكير<sup>(٨)</sup> ولئن باهى الغرب بالبحث العلمي وأسلوب التحقيق وطريقة جمع المعلومات والدقة في الاستنتاج والوصول إلى النتائج بعد التمحيص، فقد ظهرت هذه الأساليب في المنهج العلمي العربي قبلهم بقرون فقد كانت التجربة العلمية رائدهم والنظرة الواقعية للبحث العلمي شعرهم فقد كان رشيد الدين (عم ابن أبي أصيبعة) يوصي طلابه بأن ينظروا في كل خبر عارياً عن محبة أو بغضه وأن يزنوه بميزان العقل والقياس وأن يتفحصوه - إذا كان ذلك ممكناً - على ضوء الحقائق المستمدة من الاختبار فاتخذوا العقل دليلاً والشك مقياساً في بحثهم العلمي ليوصلهم إلى الحقيقة العلمية والتجربة العملية.

فقد قال عبد اللطيف البغدادي: "الحس أقوى دليلاً من السمع" وقال الغزالي: "من لم يشك لم ينظر، ولم لم ينظر لم يبصر" ولا جدال في أن البحث العلمي والتجربة الصادقة وجمع المعلومات الأصيلة، كانت رائد الطبيب عبد اللطيف البغدادي عندما أراد أن يعرف عدد عظام الفك الأسفل للإنسان، فقام بفحص حوالي ألفي جمجمة بنفسه وأخذ يقارن بينها بأسلوب علمي صادق، وطريقة بحث دقيق فخرج بأن الفك الأسفل هو عظم واحد. وأتبع في تدريس الطب التطبيق العملي فقد كان الطلاب يشاركون المرضى حياة المستشفى ويحتكون بهم وبذلك يطبقون ما درسوه نظرياً ويرون المرضى بأنفسهم<sup>(٩)</sup>.

٨- أحمد فؤاد باشا: التراث العلمي للحضارة الإسلامية، ط ١، دار المعارف ١٩٨٣، ص ٤٩.

٩- يوسف عز الدين: المرجع السابق.

ويشهد استقراء تاريخ الفكر البشري بأن علماء العصر الإسلامي كانوا أسبق من الغربيين إلى نقد منطق أرسطو وابتداع المنهج التجريبي السليم بكل خطواته ومراحله قبل بكون بعدة قرون، واستطاعوا أن يميزوا بين طبيعة الظواهر العقلية الخالصة من جهة والظواهر المادية الحسية من جهة أخرى، ويعتبر ابن تيمية من أوائل المفكرين العرب الذين نقدوا منطق أرسطو الصوري، وهاجمه يعنف في كتابه "نقض المنطق" ودعا إلى الاستقراء الحسي الذي يأتي بالمعارف الجديدة والذي يصلح للبحث في الظواهر المادية الطبيعية<sup>(١٠)</sup>.

أما من الناحية الاقتصادية، فقد استفادوا من المشرق الإسلامي استفادة كبيرة، ففي ميدان الزراعة، نقل الصليبيون عن المسلمين إلى أوروبا، زراعة بعض أنواع النباتات والثمار والفواكه التي لم يعرفوها من قبل، وسموها بأسمائها العربية، مثل السكر والأرز والليمون والقطن والسمسم... الخ.

وفي ميدان الصناعة، اقتبسوا عن المسلمين بعض المصنوعات ونقلوها إلى بلادهم، مثل المنسوجات الحريرية الموشاة والأقمشة القطنية، هذا إلى جانب صناعة الورق والصابون والخزف والزجاج والحلي والعقاقير... الخ.

أما التجارة، فقد انتعشت بين الشرق والغرب بشكل لم يعرف من قبل، فكانت قوافل المسلمين ترد إلى الموانئ الصليبية على ساحل الشام تحمل سلع الشرق، كاللؤلؤ والأحجار الكريمة والعاج والعمود والبهار، وكان على تجار المسلمين عند دخولهم تلك الموانئ أن يدفعوا ضريبة على بضائعهم مقدارها قيراط على كل سلعة ثمنها دينار واحد (الدينار ٣٤ قيراطاً). وكانوا يعاملون في تلك الموانئ معاملة طيبة، ولهم فيها خانات أو فنادق ينزلون فيها ببضائعهم ودوابهم. وكانت حركة التجارة مستمرة بين الجانبين، ولم تتوقف حتى في أوقات الحروب بينهم، وقد نص على ذلك الرحالة المعاصر ابن جبير عند قوله: "اختلاف القوافل من مصر إلى دمشق على بلاد الفرنج غير منقطع، وأهل الحرب مشغولون في حربهم، أما الرعايا والتجار فالأمن لا يفارقهم في جميع الأحوال سلباً أو حرباً".

وكان من نتائج ازدياد النشاط التجاري بين الشرق والغرب، أن ظهرت المدن التجارية في أنحاء أوروبا، وهي ظاهرة جديدة أدت إلى اجتذاب الفلاحين إلى المدن

وانهيار النظام الإقطاعي.. كذلك ظهر نظام المصارف في تلك المدن التجارية، وكثيراً ما عاونت هذه البنوك الطبقات الحاكمة بالقروض المالية وتحالفت معها ضد رجال الإقطاع. وقد نتج عن هذه المعاملات المالية إصدار صرف يعرف بالصك أو الشيك، وكذلك البساتج - جمع بستاجة بمعنى الحوالة - وهي أنظمة مشرقية الأصل. ومن الناحية المعمارية العسكرية، نلاحظ أن العمارة الإسلامية أضافت إلى التراث الفني العالمي نظاماً لم تكن معروفة من قبل، ما جعل لها في العصور الإسلامية طابعاً مميزاً. ومن أمثلة ذلك أشكال العقود، وأنظمة المساجد والمدارس والقصور والحمامات والأضرحة. كذلك ابتكر المسلمون المداخل ذات المرافق أو المنعطفات المتعددة في المدن والحصون الإسلامية. والغرض من ذلك التحكم في العدو المهاجم من باب الحصن عبر هذه الممرات الضيقة الطويلة الملتوية.

ولقد انعكس هذا الأسلوب المعماري العسكري على الحصون والقلاع التي شيدها الصليبيون في الشام أو في أوروبا بعد ذلك.

وقد انتبه علماء العرب إلى الأمراض النفسية وأثرها على الصحة العامة وحاولوا رفع معنوية المريض وإعادة الثقة لنفسه وإخراج الأوهام التي تعتريه، وكتب ابن الهيثم عن اثر الموسيقى في الأمراض النفسية والعصبية.

وقد قالت زيزريد هونكه: "ولنا أن نذكر نظرة الغرب إلى هؤلاء المرضى المساكين خلال القرون الوسطى، فنرى هولاً وبشاعة بالغين مبعثهما الاعتقاد السائد آنذاك، والذي غذته الدعاوات الخاطئة، بأن المرض لعنة من السماء حلت بصاحبها عقاباً له على إثم زعموا أنه ارتكبه وإن شيطاناً دخل في نفسه فحلل عذابه، وأصبح علاج الفرنجة يتركز على طرد الشياطين من الأجسام الضعيفة، وكم كانت هناك من حالات خطرة استبد الشيطان بصاحبها ولزم طرده شر طردة وبأية وسيلة من الوسائل فكان هؤلاء البشر المعذبون يوضعون في سجون مظلمة وقد قيّدت أيديهم وأرجلهم أو يُعزلون عن العالم وعن أهلهم في "المستشفى السجن" أو "البيت العجيب" أو برج المجانين أو القصر العجيب كما كانوا يسمونها آنذاك، ويُسلم أمرهم إلى رجال أفضاظ لا يعرفون الألفة غير الضرب والشتم والتعذيب وذلك مدى الحياة"<sup>(١١)</sup>.



ونعطي نموذجاً حضارياً وهو مدرسة بلرمو للترجمة.

كانت، مدينة بلرمو عاصمة صقلية وقاعدة ملوكها أيام حكام المسلمين والنورمان والجرمان وتقع على ساحل الجزيرة الشمالي. ويفهم من كلام الإدريسي (٤٩٣-٥٦٠) (١٠٩٩-١١٦٦)<sup>(١٢)</sup> أنه كان يوجد بوسط بلرمو مدينة إسلامية قديمة تعرف بالخالصة، كانت مقر السلطان وجنوده أبان الحكم الإسلامي، وكان المسلمون يعرفونها باسم المدينة، والنصارى يعرفونها باسم بلرمو، ثم غلب الاسم القديم بلرمو على المدينة كلها بعد ذلك.

ولقد زارها ووصفها الرحالة والجغرافيون المسلمون أمثال "ابن حوقل البغدادي" (ت ٣٨٠هـ)، و"الشريف الإدريس السبتي" (ت حوالي ٥٤٨هـ)، و"لابن جبير البليسي الأندلسي" (ت ٦١٤هـ).

وهكذا كانت بلرمو حاضرة صقلية في العصر الوسيط، وقد قامت فيها في القرن الثالث عشر الميلادي (٧هـ) مدرسة للترجمة عن العربية عرب، غرار مدرسة طليطلة في شمال أسبانيا. وتوطدت بين المدرستين علاقات ثقافية تبودل فيها الكتب والترجمات فضلاً عن العلماء.

وممن تردد على مدرسة بلرمو العالم الاسكتلندي "مايكل سكوت" M. Scott أحد تلاميذ مدرسة طليطلة الذي ترجم أعمال أرسطو وشروح ابن رشد عليها. ومن المحتمل أنه تعرف على الإمبراطور فردريك الثاني الذي ازدهرت مدرسة بلرمو في عهده.

هذا ومن المعروف أن معاني القرآن الكريم ترجمت إلى اللاتينية في النصف الأول من القرن الثاني عشر الميلادي أو السادس الهجري. كذلك، ترجمت قصة الإسراء والمعراج، بأمر من الملك الإسباني الفونسو العالم، إلى اللغات القشتالية والفرنسية واللاتينية، وانتشرت في أسبانيا وإيطاليا منذ القرن الثالث عشر الميلادي (٧هـ) واستفاد منها الشاعر الإيطالي دانتي كما سبق أن أسلفنا، ولم تلبث هذه الترجمات أن انتقلت إلى جامعات باريس ونابولي وبولونيا.

١٢ - هو أبو عبد الله بن محمد بن عبد الله بن إدريس الشريف، يكنى بالشريف الإدريسي، ويعد من أعظم جغرافى العرب في القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) أهم أعماله "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" وه أعظم موسوعة جغرافية، وقام الإدريسي بإعداد خريطة للعالم المعروف آنذاك نقشها نقشاً غالياً على لوح من الفضة.

على أنه يلاحظ أن حركة الترجمة في مدرسة بلرمو، اتجهت في معظمها - على غرار مدرسة طليطلة - إلى العلوم الرياضية والفلسفية والطبيعية. وكان من أهم ما ترجم فيها على سبيل المثال كتب ابن سينا "Avicenne" (ت ١٠٣٧م) (مثل كتاب القانون في الطب، وكتاب الشفاء في الفلسفة، وكتب أبي بكر محمد الرازي "Razes" (ت ٩٣٢م) مثل كتاب الحاوي في الطب... الخ.

وكان من، أعلام المترجمين فيها أوجين البلرمي "Eugenius" وليوناردو البيزاني "Leonardo pisano". ولعل من مظاهر هذه النهضة العلمية، آلاف المخطوطات العربية المحفوظة في مكتبة الفاتيكان بروما إلى الآن.

وكانت جزيرة صقلية في العصر الوسيط، هي المعبر الثاني الذي عن طريقه انتقلت الحضارة الإسلامية إلى الفكر "أوروبي". وينبغي أن نوضح أن الباحثين ورجال العلم المسلمين لم يكونوا مجرد نقلة أو مترجمين، ولكنهم عدلوا التراث الكلاسيكي، ونفخوا فيها من روحهم الإسلامية. وعلى هذه الصورة نقلوها إلى عقول أوروبا التي جاءت تطلب العلم في أسبانيا وصقلية.

ومن مظاهر اللقاء الحضاري تلك الرحلة التي قام بها جريبر دي أورياك Gerbert d'Aurillac الذي أصبح فيما بعد بابا باسم البابا سلفستر الثاني<sup>(١٣)</sup> Silvestre II، إلى قرطبة، "طلبا للحكمة". ولم يعد الجادون من المؤرخين يشكون في قيامه بهذه الرحلة التي شهد بها معاصره المؤرخ ادمار دي شابان Ademar de Chabannes خصوصا ومن الثابت أنه زار أسبانيا وأمضى بها ثلاث سنوات من سنة ٩٦٧ إلى سنة ٩٧٠، بجوار أسقف فتش Vich، فماذا عسى أن يطلب العلم في قطلونيا خلال هذه السنوات الثلاث؟ لم يكن في قطلونيا من العلم آنذاك ما يشغل ذهن هذا الراهب ثلاث سنوات، لهذا فمن المؤكد أنه رحل من قطلونيا إلى حيث مركز العلم والثقافة في ذلك الحين، أعني إلى قرطبة الزاهرة في عهد الحكم الثاني (المتوفى سنة ٣٦٦هـ). فكان لهذه الرحلة أثرها البالغ في اهتمام جريبر بالعلم العربي ومحاولة نشره في أوروبا المسيحية.

وبلغ هذا التبادل أوجه في طليطلة بعد أن استردها الأسبان سنة ١٠٨٥، فأصبحت على الحدود بين الدولة الإسلامية في الأندلس وبين الدولة النصرانية في

١٣ - أنظر عبد الرحمن بدوي، دور العرب في تكوين الفكر الغربي، دار الآداب - بيروت، 1965، وسوف نستعرض أهم ما ناقشه الفيلسوف المصري في هذا الكتب القيم.

سائر أسبانيا. وكانت مدينة جلييلة الشأن منذ عهد بعيد إذ كانت عاصمة مملكة القوط الغربيين. وفي عصر ملوك الطوائف بلغت مكانة كبرى على أيدي ملوكها من بني ذي النون إلى أن استولى عليها الفونس السادس سنة ١٠٤٧٨هـ. فقد امتازت بمكتباتها العظيمة، خصوصاً وقد انتقل إليها آلاف المجلدات من المشرق. وكان فيها ثلاث طوائف قوية تعيش إلى جوار بعضها: المسلمين والنصارى واليهود. وتولت الطائفة الثالثة التوسط بين الطائفتين الأخريين، سواء في التجارة أو في نقل العلوم. وشجع على قيام حركة نقل الكتب العربية إلى اللاتينية - إما بتوسط اللغة العبرية أو اللغة الدارجة الرومانية - مطران طليطلة ريمندو (Raimundo 1126-1152). وتلاه خلفاؤه من المطارنة، حتى استمرت هذه الحركة طوال أكثر من قرن. ولقد اعتاد المؤرخون أن يتحدثوا عن "مدرسة المترجمين" في طليطلة ولكن ليس المقصود وجود مدرسة بالمعنى المادي، أي هيئة وبناء يضمها يتولى القيام بالترجمة، مثل بيت الحكمة الذي أنشأه الخليفة المأمون للمترجمين من اليونانية أو السريانية إلى العربية في سنة ٢١٥هـ، بل كان هناك جماعة حرة من المترجمين يعملون في طليطلة في نفس المكتبات، وبنفس الطريقة، وفي ميدان واحد هو العلوم العربية.

لكن أول ما اهتم به هؤلاء المترجمون هو العلوم العربية المنقولة عن العلوم اليونانية. ذلك أن أوروبا كانت قد أقفرت أو كادت من العلم اليوناني، وانحصرت بضاعتها العلمية في متون جافة عقيمة، هي تلك التي وضعها مارشيانو كابلا Marciano Capella الذي عاش في شمال أفريقيا في عهد الوندال في القرن الخامس، أو التي وضعها بوتيوس Boece في القرن السادس في إيطاليا في عهد القوط الشرقيين، أو تلك التي كتبها القديس "إيسيدور" الذي عاش في أسبانيا في القرن السابع على عهد القوط الغربيين، وأخيراً في القرن الثامن ما كتبه بيد Bede الموقر الذي عاش في بريطانيا. وهذه المتون كانت مجرد خلاصات شاحبة لآثار ضئيلة من العلم اليوناني، فبقيت الدراسة في أوروبا تافهة كل التافهة، محصورة في فئة نادرة من الرهبان. وما كان يمكن هذه الدراسة أن تغير مجراها إلا إذا أمدّها مصدر خصب جديد، فكان هذا المصدر هو العلوم العربية، وبخاصة ما تنطوي عليه من علوم اليونان. لهذا اتجه المترجمون إلى نقل الكتب العربية التي تتضمن علوم اليونان أولاً.

وكان على رأسهم الشماس دومنجو غنصاليه Domingo Gonsalvo المتوفى حوالي سنة ١١٨٠. وبرز نشاطه في الفترة ما بين سنة ١١٣٠ وسنة ١١٧٠م، ويعد أشهر رجال الترجمة في العصر الوسيط من العربية إلى اللاتينية عن طريق الأسبانية العامية. فقد كانت الطريقة في الترجمة أن يقوم يهودي مستعرب بترجمة النص العربي شفويًا إلى اللغة الأسبانية العامية، ثم يتولى "غنصاليه" الترجمة إلى اللاتينية. ومن بين ما ترجمه "غنصاليه" على هذا النحو بعض مؤلفات "الفارابي" و"ابن سينا" و"الغزالي" و"ابن جبيرول". وشاركه في الترجمة أحياناً "خوان بن داوود" إذ اشتركا معاً في ترجمة كتاب "في النفس" لابن سينا. ويخلط أحياناً بين "ابن داوود" هذا وشخص آخر هو "يوحنا الأسباني" الذي ترجم من العربية إلى اللاتينية عدة مؤلفات في الفلك والنجوم، من بينها كتب للخوارزمي، بفضلها انتقل الحساب الهندي إلى أوروبا والنظام العشري في الحساب؛ حتى عرفت العمليات الحسابية باسم Alguarismo. والغريب أننا ترجمناها حديثاً باسم "اللوغاريتمات" وهي في الأصل منسوبة إلى الخوارزمي!! والصحيح أن نترجمها بـ "الخوارزميات" أو "الجدول الخوارزمية" بدلا من الترجمة المضحكة: "اللوغاريتمات" أو "جداول اللوغاريتمات" كما تسمى في كتب الطلاب في المدارس الثانوية في البلاد العربية، ومن كتب الخوارزمي عرفت أوروبا "الصفر"، وهو في العربي ترجمة للكلمة الهندية سونيا Sunya أي "خال، خاو"، والصفر هو الخالي أو الخلو، وقد نقلت كلمة "صفر" العربية إلى اللاتينية هكذا: Cifra Cifrum بمعنى "الصفر"، ثم أطلقت من بعد على العدد عامة، كما نجد في اللغات الأوروبية: chiffre في الفرنسية و cifra الأسبانية. ومنها أخذت كلمة "السفرة" في الدبلوماسية أي اللغة الرمزية، لأنها تقوم على أرقام.

ومن المرجح أن أول الأوربيين غير الأسبان الذين استفادوا من حركة الترجمة هذه من العربية إلى اللاتينية هو "أدلهارد أوف باث" Adelhard of Bath. وكان رحالة وعالمًا، جال خلال فرنسا وصقلية وقلبيّة وسوريا حوالي سنة ١١١٥؛ وقد ترجم من الأسبانية سنة ١١٢٦ الزيج الذي وضعه الخوارزمي وعرف باسم "السند هند" وفي أوروبا باسم Tablas Astronomicas وقد أصلحه "مسلمة المجريطي". أما المركز الثاني للتبادل الثقافي فكان كما قلنا في صقلية بعد أن استولى النورمان عليها ٤٨٤هـ. وكان العرب قد فتحوها سنة ٢١٢هـ على يد الأغالبة

فكانها ظلت تحت حكم العرب ٢٧٢هـ سنة. وأما التأثير العربي فقد ظل طوال عهد السنورمان، "فروجار الثاني" تأثر في كل مظاهر بلاطه بمظاهر الخلافة الفاطمية في مصر، فكان يظهر وعليه عباءة فاخرة مكتوب عليها بالحروف العربية الكوفية، وأنشأ أكاديمية كان يعمل فيها العلماء النصارى واليهود جنباً إلى جنب، وأحسوا بالحاجة إلى ترجمة العلوم العربية إلى اللاتينية، فبدأت حركة مناظرة لحركة "طليطلة" وإن تأخرت عنها بعشرات السنين.

ففي عهد "جيوم الأول"، ابن روجار الثاني، نشطت حركة الترجمة ليس فقط من العربية بل وأيضاً من اليونانية، حتى أن وزيره المشهور "انريكو ارستيو Enrico Aristippo" ترجم "الآثار العلوية" لأرسطو من اليونانية وكذلك ترجم محاورتين لأفلاطون، كما ترجم هو و"الأميرال يوجنيو دي بالرمه" Eugenio de Palermo كتاب "المجسطي" لبطلميوس من العربية إلى اللاتينية حوالي سنة ١١٦٠، وترجم يوجيـ أيضاً كتاب "المناظر" لبطلميوس من العربية. كما اشترك في حركة الترجمة من العربية مترجم إيطالي فذ هو "جيرردو الكريموني" Gerardo de Cremona (1114\_1178) الذي رحل إلى طليطلة طمعاً في دراسة العلوم الفلكية، وعنى خصوصاً بكتب الفلك لبطلميوس، وعلى رأسها "المجسطي"، وهي كلمة يونانية تعني في أصلها: "الأعظم"، وقد أطلقها اليونانيون على أكبر كتب بطلميوس في الفلك، وعربها العرب كما هي: "المجسطي". فقام "جيرردو" بترجمته إلى اللاتينية سنة ١١٧٥ وهو لا يعرف أن الكتاب قد ترجمه أيضاً "أرستيو"؛ على أن ترجمته هي التي حظيت بالشهرة الأوسع. كذلك ترجم "جيرردو" أكثر من سبعين كتاباً عربياً في الفلك والجبر والحساب والطب.

واستمرت حركة الترجمة في طليطلة في القرن الثالث عشر وأُمّ طليطلة علماء أوروبا الكبار مثل "ميخائيل أسكوت" الذي شارك أيضاً في حركة الترجمة فترجم لابن سينا. ومن بين كبار المترجمين نذكر "ماركوس" شماس طليطلة الذي ترجم من العربية بعض مؤلفات "جالينوس" الطبية كما ترجم القرآن الكريم وبعضه الكتب في علم التوحيد. كما نذكر خصوصاً هرمانوس المانوس Hermannus Alemanus الذي ترجم شرح "ابن رشد" على الأخلاق "لأرسطو" سنة ١٢٤٠، وتلخيص الخطابة "لابن رشد".

وفي عهد "الفونسو الحكيم" انتشرت حركة الترجمة من العربية إلى الأسبانية الناشئة. فترجمت "كليلة ودمنة" و"مختار الحكيم" للمبشر بن فاتك، وعشرات من كتب الفلك من اللغة العربية إلى اللغة الأسبانية، فكان لهذا أثره العظيم ليس فقط في تقدم الدراسات العلمية في أسبانيا ومنها إلى أوروبا كلها، بل وخصوصاً في قيام اللغة الأسبانية.

ومن هذا كله نتبين مدى حركة الترجمة من اللغة العربية إلى اللغتين اللاتينية والأسبانية، مما سيكون له أخطر الأثر في بعض العلم والأدب في أوروبا.

#### ابن سينا (الشيخ الرئيس) :

وليسست تأثيرات ابن سينا في الفكر الأوروبي إلا جزءاً من أثر الحضارة الإسلامية على أوروبا<sup>(١٤)</sup>، بالرغم من أن كثيراً من المتعصبين يحاولون جاهدين التقليل من دور الحضارة الإسلامية، فيأتي دور ابن سينا ليثبت أن للمسلمين حضارة بلغت من الخلق والإبداع أن أثرت في الفكر الأوروبي..

وفي القرن الثاني عشر قام جيراردو دا كريمونا Gerardo da Cremona ١١١٤-١١٨٧م<sup>(١٥)</sup> بترجمة كتاب القانون لابن سينا إلى اللاتينية. ومنذ ذلك الوقت بدأ الاهتمام به حتى إذا ما جاء عصر الطباعة كان من أوائل الكتب التي طبعتها المطبعة، فلاقى انتشاراً واسعاً حتى أنه طبع ست عشرة مرة في الثلاثين سنة الأخيرة من القرن السادس عشر.

ومن أقدم الطبوعات الأوروبية طبعة (ميلانو-١٧٤٣) وطبعة (بادوا-١٤٧٦) و(البندقية-١٤٨٣). وقد طبع كاملاً في البندقية (١٥٩٥-١٥٨٢-١٥٤٢). ومن الطبوعات الجزئية طبعة باريس (١٦٥٧) وهال (ألمانيا-١٧٩٦)، وفريبورج (١٨٤٤). كما وقام ناتان هامنتي بترجمته إلى العبرية في روما سنة ١٢٧٩، وطبع في بابلي (١٤٩١).

أما التعليقات باللغتين اللاتينية، والعبرية واللغات الأخرى فما لا حصر لها. وهناك ترجمات جزئية حديثة للقانون، منها ترجمة جرونز الذي ترجم الجزء الأول

١٤- أنظر صبيح صادق: تأثيرات الفيلسوف والطبيب المسلم ابن سينا في الثقافة الأوروبية، وقد استفدنا كثيراً من هذا المقال المميز.

١٥- داكريمونا: راهب فرنسي نقل إلى اللاتينية فلسفة الكندي والفارابي وابن سينا والرازي ويقال أنه ترجم كتاباً في جميع فنون المعرفة من علوم وآداب وطب.

مع دراسة للكتاب. وترجم دي كوننج القسم الخاص بالتشريح (١٩٠٣)، وترجم هر شبرج ولبرت القسم الخاص بالرمد (ليزج ١٩٠٢).

أما أول طبعة باللغة العربية فقد كانت سنة ١٥٩٣ في روما، ثم تبعها طبعات أخرى منها طبعة بولاق في القاهرة عام ١٨٧٧.

وترجم كتابه (النجاة) ترجمة جزئية جند يسالفي Gundisalvi. وتوجد كذلك ترجمة لاتينية جزئية حديثة للقسم الثالث من كتاب النجاة. أما كتابه (الشفاء) فقد ترجم ترجمات جزئية كذلك؛ من ذلك ترجمة ماكس هورتن Max Horten (1907-1909).

وترجم فورجية J.Forget كتاب الإشارات والتنبيهات وطبعه في ليدن عام ١٨٩٢.

أثر كتاب القانون في أوروبا لقد بقي كتاب القانون يدرس في أوروبا مدة طويلة، وظل المرجع العام للطب ستة قرون كاملة. أما في الشرق فقد بقي حتى القرن العشرين..

ولهذا فإن كتاب القانون يعتبر بحق اعظم كتاب طبي انتشر في العالم كله.. حتى أن المجمع الطبي عام ١٣٤٠ قرر الأولوية لجالينوس وابن سينا. وفي سنة ١٥٠٠ حكموا بالسبق لابن سينا في خمس سنوات محاضرات من أصل عشر لجالينوس في أربع ولايقراط في واحدة!!.

ويتبين من مناهج جامعة (لوفان) سنة ١٦١٧ أن الطب فيها اعتمد على كتب الرازي وابن سينا. وقد وافق البابا كلمنت الخامس سنة ١٣٠٩ على أن تكون كتابات ابن سينا والرازي ضمن الكتب التي يجب أن يمتحن فيها الطالب إجبارياً للحصول على إجازة الطب من جامعة (مونبليه).

وقد قام أحدهم بمحاولة إحصاء التأثير العربي، واليوناني على طبقة المتقنين آنذاك، والتعبير عنه بشكل أرقام كأبي إحصاء عادي، فانتقى كتاباً للنبييل فراري دوجرادو De Grado الأستاذ في (بافيا) في إيطاليا وكان قد جمعه بفضل ملاحظته الخاصة فطالعه محصياً فيه أسماء العلماء العرب، واليونانيين بدقة ووصل إلى النتائج التالية: ذكر سينا ما ينيف على ثلاثة آلاف مرة، والرازي وجالينوس ألف مرة وأبو قراط مائة وأربعين مرة!!.

وقد أدلى السير هيو لينستن رئيس الاتحاد الدولي للصيدلة في المؤتمر الصيدلي العربي الثامن الذي أقيم في القاهرة عام ١٩٦٢ أدلى بأن مجمع الصيدلة في إنكلترا أراد أن يختار أعظم اثنين تدين لهما علوم الصيدلة بالفضل، فوقع اختياره على جاليت اليوناني وابن سينا المسلم.

ويقال أنه كان في المكتبة الأهلية بباريس جوهرتين ثمينتين هما كتاب جالينوس في الطب العام وكتاب القانون لابن سينا!

وكان الأطباء الأوروبيون يفخرون بألقاب مثل Anima Avicenne أو Avicennista Insignis أي روح ابن سينا. ويدين علم الطب في أوروبا بالكثير لابن سينا، بل وإن ابن سينا قد سبق بعض أطباء أوروبا في اكتشافاته، ومن جملة تلك الإنجازات التي حققها ابن سينا في مجال الطب اكتشاف الانكستوما، وسماها الدودة المستديرة قبل أن يكتشفها العالم الإيطالي دوبييني سنة ١٨٣٨ أي بتسعمائة عام تقريباً. وابن سينا هو أول وصف إعراض حصى المثانة السريرية. وكان من المهتمين بمرض السكر. وأول من أدخل أمراض الشيخوخة وذلك في رسالته "رعاية المسنين والشيخوخ".

وأول من قال بقابلية الأعضاء الصلبة في الجسم كالعظام للالتهاب والتضخم والأورام، مخالفاً بذلك التعاليم اليونانية. وميز بين التهاب المنصف الصدري (أو الحيزوم) وبين ذات الجنب، ونص على أن السحاف ينتقل بالعدوى. وقال بأن عدوى الأمراض تسري بواسطة الماء والتراب.

واستعمل المخدر في الجراحة؛ كاستخدامه الخمرة الممزوجة مع بعض العقاقير، كما استخدم الإبر للحقن تحت الجلد في علاجه.

وقد شرح ابن سينا قبل بوتال Botal الخصائص التشريحية الفيزيولوجية التي تميز بها الجنين، حيث قال "أن الشريان والوريد النافذين من القلب والرئة لما كان لا يستنقع بهما في ذلك الوقت في التنفس منفعة عظيمة، صرف نفعهما إلى الغذاء، فجعل لأحدهما على الآخر منفذاً ينسد عند الولادة، وأن الرئة إنما تكون حمراء في الأجنة لأنها لا تتنفس هناك بل تتغذى بدم أحمر لطيف..." وفي ذلك شرح دقيق لآلية الدوران وآلية التنفس أثناء الحياة داخل الرحم "المنفذ" هنا ليس إلا القناة الشريانية بين الوتين والشريان الرئوي، وقد نسب هذا الاكتشاف خطأ إلى بوتال Botal الذي جاء بعد ابن سينا بمئات السنين".



**دوره في الطب النفسي :**

وقد ذهب بعض الباحثين إلى اعتبار ابن سينا أياً للطب النفساني.. حيث استعمل طريقة التحليل النفسي Psychoanalysis واستعمل فيها طريقة تداعي الأسماء Association قبل استعمالها في أوروبا.

وقد وضّح ابن سينا العلاقة التفاعلية الوثيقة بين الجسم والمؤثرات النفسية حيث يقول "تأمل حال المريض الذي توهم أنه قد صح، والصحيح الذي توهم أنه مريض، فإن كثيراً ما يعرض من ذلك أن يكون إذا تأكدت الصورة في نفسه وفي وهمه، انفعّل فيه عنصره (أي جسمه) فكان الصحة أو المرض، ويكون ذلك ابلغ مما يفعله الطبيب بآلات ووسائط. فالصور إذا استحکم وجودها في النفس واعتقاد أنها يجب أن توجد، فقد يعرض كثيراً أن تتفعل عنها المادة التي من شأنها أن تتفعل".

والتوهم الذي يشير إليه ابن سينا هو الإيحاء Suggestion "أما تأكد الصورة واستحکام وجودها في النفس" فهو عين عملية التطبيع والتكيف Conditioning. كما جاء بها بافلوف، وقد أعطى ابن سينا هذه العملية أساساً وانفعلاً مادياً على خلاف الأساس النظري كما هو الحال في مدرسة فرويد، فيكون ابن سينا أقرب إلى النظرية المادية في الانفعالات النفسية، وهو الاتجاه الأكثر إقناعاً وقبولاً في يومنا هذا.

وبالإضافة إلى ذلك فإن ابن سينا قد تقدم بنظرية اللاوعي.. أو اللاشعور وأعطى هذا الكيان من حياتنا العقلية قوة دافعة.

بل وأن ابن سينا قد سبق فرويد بألف سنة في بحثه في الأمراض النفسية وقد يكون فرويد نفسه قد أطلع على مؤلفات ابن سينا، ذلك أن فرويد - وهو يهودي الدين - قد قرأ التراجم العبرية لكتاب القانون وبهذا افتتح الباب في بحثه واكتشافاته في الأمراض النفسية.

وقد ذكر ابن سينا الكثير من العقاقير التي دخلت في علم النبات، وعلم الصيدلة الأوروبيين، وظل الكثير منها بأسمائها العربية في اللغات الأجنبية كعنبير Ambra، والزعفران Safaran والكافور Kampfer، والتمر الهندي inda Tamar وعود النديش Aloe والحشيش Haschisch والمسك Muskat والصندل Sandelholz وغيرها..

**أثره في الجيولوجيا :**

وفي علم الجيولوجيا تؤكد جميع الأبحاث على أن ابن سينا قد أثر على أوروبا في هذا المجال حتى أن ماكس مايرهوف Max Meyerhof يقول "نحن مدنيون لابن سينا برسائلته في تكوين الجبال والأحجار والمعادن".

تكلم ابن سينا عن منشأ الجبال، فقال بان الجبال تنشأ عن سببين؛ فأما أن تكون نتيجة ارتفاع في قشرة الأرض بفعل أحد الزلازل الشديدة مثلاً، وأما أن تكون نتيجة عمل الماء بان يشق طريقاً جديداً، ويحفر أودية، ويحدث جبالاً، وذلك لأنك تجد صخوراً لينة ذات صلابة، فيذهب الماء والرياح بالصخور اللينة، ويترك الأخرى سليمة، وهكذا تحدث أكثر التلال..

كما ووضح أن الزلازل: حركة تعرض لجزء من أجزاء الأرض بسبب ما تحته، ولا محالة أن ذلك السبب يعرض له أن يتحرك ثم يحرك ما فوقه، والجسم الذي يمكن أن يتحرك تحت الأرض هو أما جسم بخاري دخاني قوي الانفداع، وأما جسم مائي سيال، وأما جسم هوائي، وأما جسم ناري، وأما جسم أرضي، والجسم الناري لا يكون ناراً صرفة وفي حكم الرياح المشتعلة. ويقول أن الدليل بأن أكثر أسباب الزلزلة هي الرياح المحترقة أن البلاد التي تكثر فيها الزلزلة إذا حفرت فيها آبار وقنى كثيرة حتى كثرت مخالص الرياح والأبخرة قلت الزلازل بها، وأكثر ما تكون الزلازل في بلاد متخلخلة غور الأرض متكاثفة وجهها أو مغمورة الوجه بماء يجري، أو ماء غمر كثير لا يقدر الرياح على خرقه...

وقال "وربما احتسبت الأبخرة في باطن الجبال فانعقدت وجمدت فحدث منها الجواهر المشقة التي لا تتطرق، وأكثرها تكون مختلفة بالمائية، وربما انعقد كذلك على ظاهر الأرض لطبيعة الموضع والأدخنة التي تحتبس داخل الأرض، ربما اضطرها شدة حركتها وما تتكلفه من شقها الأرض، أن تشتعل وتخرج ناراً. وأشار ابن سينا كذلك إلى المتحجرات وقال بان المعمورة يغلب أن تكون في سالف الأيام غير معمورة بل مغمورة في البحار فتحجرت ولهذا كثيراً ما يوجد في كثير من الأحجار إذا كسرت أجزاء الحيوانات المائية كالأصداف وغيرها. وكان لهذه الآراء أثرها على طابع الفكر الجيومورفولوجي الحديث. بل وان هذه الآراء كان لها الأثر الواضح على العالم الإيطالي ليونارد دو دافنشي Leonardo da Vinci أخذها عن ابن سينا ليبدأ به علم الجيولوجيا.

أثره في الفلسفة وأثر ابن سينا في الفلسفة الأوربية كذلك، حيث ترجمت كتبه الفلسفية إلى اللغات الأوربية. ويعود الفضل في ترجمة كتب الفلسفة العربية إلى اللغة اللاتينية إلى رئيس أساقفة طليطلة مونسينيور دريموند حيث أنشأ في طليطلة من سنة ١١٣٠ إلى سنة ١١٥٠ دائرة لترجمة الكتب العربية. وكانت كتب ابن سينا هي أهم الكتب التي ترجمت آنذاك..

وقد أثارت كتب ابن سينا وشروحه بعد ترجمتها، جدالاً بين المفكرين والفلاسفة.. حتى حرم الاكليريوس سنة ١٢١٥ تلخيصات ابن سينا على أرسطو. وحمل غليوم دوفرن على فلسفة ابن سينا خاصة، والفلسفة العربية عامة. أما اللاهوتي البير الكبير فقد اعتبر ابن سينا أستاذاً له!!.

وقد خلف ابن سينا أثراً واضحاً في الفلسفة المدرسية اليهودية والمسيحية، وتبدو أشد ما تكون لدى جندسا لينوس، وغليوم الافرنى، والبرت الكبير، والقديس توما الإكويني، وروجر بيكون الذى استوعب الكثير من الفكر العربى والعلم العربى، وعرف العربية<sup>(١٦)</sup> واستشهد فى كتاباته بعلماء ومفكرى الإسلام.. وفقد اخذ البرت الكبير على الفارابي، وابن سينا، كثيراً من الآراء؛ كنظرية الفيض وما تستبعه من القول بوجود عقل فعال تفيض من المعاني على النفوس الإنسانية.

أما توماس الاكويني فقد اعتمد على أقوال للرد على ابن رشد. وكذلك في تعريفه للنفس اعتمد على ابن سينا. ولا يبعد أن يكون ديكارت قد تأثر بابن سينا ذلك أن كتاب الشفاء طبع باللغة اللاتينية ثلاث مرات بين سنتي ١٥٤٦ - ١٤٩٦ في البندقية أي قبل خمسين سنة من ولادة ديكارت. وإذا لم يكن ابن سينا قد أثر في ديكارت فانه قد سبقه في بعض ما توصل إليه في فلسفته، فقد ذهب ديكارت إلى الإيمان بوجود النفس عن طريق الشك، يقول ديكارت "... اقتنعت من قبل بأنه لا شيء في العالم بموجب على الإطلاق. فلا توجد سماء، ولا أرض، ولا نفوس، ولا أجسام، وإذن فهل اقتنعت بأنني لست موجوداً كذلك؟ هيهات فأني أكون موجوداً ولا شك أن أنا اقتنعت بشيء، أو فكرت في شيء". ويضيف قائلاً كذلك "لا أسلم الآن بشيء، ما لم يكن بالضرورة صحيحاً، وإذن فما أنا على التدقيق إلا شيء مفكر، أي ذهن، أو روح، أو فكر، أو عقل... فأنا إذن شيء واقعي وموجود حقاً، ولكن

أي شيء؟ لقد قلت أنني شيء مفكر".

بينما قال ابن سينا في كتابه الإشارات والتنبيهات "أرجع إلى نفسك وتأمل إذا كنت صحيحاً، بل وعلى بعض أحوالك غيرها، بحيث تظن للشيء فطنة صحيحة، هل تغفل عن وجود ذاتك، ولا تثبت نفسك؟ ما عندي أن هذا يكون للمستبصر، حتى أن النائم في نومه، والسكران في سكره، لا تعذب ذاته وأن لم يثبت تمثله لذاته في ذكره. ولو توهمت ذاتك قد خلقت أول خلقها صحيحة العقل والهيئة، وفرض أنها على جملة من الوضع والهيئة بحيث لا تبصر أجزائها ولا تتلامس أعضاؤها، بل هي منفردة، ومعلقة لحظة ما في هواء مطلق، وجدها قد غفلت عن كل شيء، إلا عن وجود انيتها".

#### شذرات من دور المسلمين في تكوين الفكر العلمي الأوروبي<sup>(١٧)</sup>

وبروى الدكتور عبد الرحمن بدوي<sup>(١٨)</sup> أن أبرز دور للمسلمين في تكوين الفكر الأوروبي هو في العلم بمختلف فروع: الطب، والطبيعة، والكيمياء، والفلك، والرياضيات، والتاريخ الطبيعي، والفلاحة. أما في الرياضيات فقد كان للمسلمين الفضل الأكبر لأنهم هم الذين أدخلوا النظام العشري في العدد، إذ كان اليونانيون إنما يستعملون في العدد حروف الأبجدية للعد من ١ إلى ٩٩٩، ثم يستعملون الشرطة والشولة والنقطة للعد فيما بعد ذلك حتى آلاف الآلاف، وكان الرومان يستعملون سبعة أحرف من الأبجدية هي IVXLCDM وتبدل على التوالي على ١ ١٠ ٥٠ ١٠٠ ٥٠٠ ١٠٠٠ ثم يضعون فوقها شرطة أفقية تدل على أن العدد مضروب في ١٠٠٠. وجاء الهنود فاخترعوا نظام العد

١٧- أنظر عبد الرحمن بدوي، دور العرب.

١٨- عبد الرحمن بدوي: فيلسوف مصري، ومؤرخ للفلسفة. فلسفته هي الفلسفة الوجودية في الاتجاه الذي بدأه هيدجر. وقد أسهم في تكوين الوجودية بكتابة "الزمان الوجودي" الذي ألفه في سنة ١٩٤٣ وقدمه رسالة للحصول الدكتوراة في الفلسفة من كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول (القاهرة حالياً)، ونوقشت هذه الرسالة في ٢٩ مايو سنة ١٩٤٤ وحصل بها على إجازة الدكتوراه في الآداب-تخصص فلسفة. وتنازع وجوديته من وجودية هيدجر وغيره من الوجوديين بالوعاء الديناميكية التي تجعل للفعل الأولوية على الفكر، وتستند في استخلاصها لمعاني الوجود إلى العقل والعاطفة والإرادة معاً، وإلى التجربة الحسية هذه بدورها تعتمد على ملكة الوجدان بوصفها القدر ملكات الإدراك على فهم الوجود الحي وقد احاطت بكل تاريخ الفلسفة، وتعمق في مذاهب الفلاسفة المختلفين والألمان منهم بخاصة لكن القوى تأثير في تطوره الفلسفي إنما يرجع إلى اثنين هما هيدجر، ونيتشة.

العشري وفيه تتوقف قيمة العدد على موضعه فالعدد ٥ على يمين الواحد غيره على شماله وهكذا. واستعملوا الصفر للدلالة على الخلو من الوحدة. وجاء المسلمون فاخترعوا طريقة لكتابة الأعداد هي طريقة "الغبار"، وهي التي انتشرت في المغرب ومنه انتقلت إلى أوروبا ولا تزال تستعمل اليوم فيما نسميه نحن الأرقام الأفرنجية، وما يسميه الأوروبيون بالأرقام العربية، وهي في الحقيقة عربية وليست إفرنجية، بينما ظل المشاركة من المسلمين يستعملون الطريقة الهندوستانية وهي التي لا تزال نكتب بها الأرقام في المشرق الإسلامي حتى اليوم.

وقد دخلت الرياضيات الإسلامية أوروبا على يد "ليوناردو دي بيزا" في القرن الثالث عشر.

ومن أشهر الرياضيين المسلمين الذين عرفتهم أوروبا وترجمت مؤلفاتهم إلى اللاتينية:

١- أبو عبد الله محمد بن موسى الخوارزمي الذي برز في عصر "المأمون"، وتوفي سنة ٨٣٥، أو سنة ٨٤٤، أو سنة ٨٤٦ ميلادية على خلاف في ذلك. وهو أول عالم مسلم يكتب عن الحساب الهندي، وكتابه في الحساب بالعربية مفقود، لكن لدينا منه أربعة كتب مترجمة باللغة اللاتينية<sup>(١)</sup> وقد ترجم له كتاب لا نعرف غير ترجمته اللاتينية بعنوان Alg numero indorum الذي نشره "بونكومباني" في روما سنة ١٨٥٧ وفيه يشرح النظام العشري مستعملاً الأرقام الهندوستانية. أما كتابه الرئيسي ذو الأثر الحاسم فهو كتاب "حساب الجبر والمقابلة" الذي فيه درس تحويل المعادلات وحلها. وقد ترجمه إلى اللاتينية "جيراردو دي كريمونا" ونشر النص العربي روزن مع ترجمة إنكليزية في لندن سنة ١٨٥١. ولم يتأثر فيه بالجبر اليوناني الذي وضعه ذيوفنطس بل تأثر بالهنود والفرس.

٢- بنو موسى بن شاكر، وكانوا ثلاثة أخوة: محمد، وأحمد والحسن وعاشوا في القرن الثالث الهجري، وبرزوا في الحساب والفلك والحيل أي الميكانيكا، وكان محمد أوفرهم علماً، وأحمد أبرزهم في الميكانيكا، والحسن في الحساب، ولكنهم كانوا يشتغلون معاً، ويؤلفون معاً. ولهم كتاب في مساحة السطوح المستوية

١٩- دونالد هيل: العلوم والهندسة في الحضارة الإسلامية، ترجمة: أحمد فؤاد باشا، سلسلة عالم المعرفة، عدد ٣٠٥، يوليو، ٢٠٠٤، ص ٥٧.

والكروية ترجمه "جيرردو" إلى اللغة اللاتينية، ونشره "كرتسه" مع ترجمة إلى الألمانية.

وقد استطاع أبو كامل شجاع بن أسلم أن يحل قوانين المعادلات ذات المجهولات الخمسة وتوصل إلى حل للمسائل (المعادلات) غير المحددة<sup>(٢٠)</sup>.  
لم تكن جهود العرب وقفاً على الطب وإنما برزوا في الرياضيات وما زال الغرب يستعمل كلمة Algebra ولو غاربت في الرياضيات وقد وقف الغربيون بكل طاقاتهم لإبعادها عن أصلها الذي جاء من الخوارزمي بإعادتها إلى اليونانية طوراً وإلى الهندية أو اللاتينية تارة، فقد أبت نفوسهم الاعتراف لنا بهذه المفخرة الكبيرة، ومما يزيد النفس ألماً أن العرب أنفسهم وبخاصة هذا الجيل، يجهل كل الجهل من هو الخوارزمي، وحتى علماء الرياضيات لا يدرون بأنه أول من وضع قواعد الجبر وفصله عن الحساب وقد "رتبه وبوبه وزاد عليه زيادات مهمة تعد أساساً لكثير من بحوثه" وليس هنا ما يضاهي الجبر من العلوم التي عرفتها الإنسانية دقة وأحكاماً.

وما تزال الجداول الرياضية تستعمل حتى اليوم كما وضع العرب القاطع والقاطع تمام، فقد أدخل البزجاني هذين المصطلحين مع الجداول الرياضية، كما أوجد "طريقة جديدة لحساب جداول الجيب وكانت جداوله دقيقة حتى أن جيب جيب زاوية ٠٣ دقيقة كان صحيحاً إلى غاية عشرة أرقام عشرية".

ولولا فكرنا الرياضي لما وصل علم المثلثات إلى المرحلة المتطورة التي وصل إليها الآن وكان من جراء اختصار الحساب أن وضعت قواعد للحساب التي صعد بها الغرب إلى القمر (فقد وضعوه بشكل علمي منظم مستقل عن الفلك، وفي الإضافات المهمة التي جعلت الكثيرين يعتبرونه علماً عربياً).

ولن ينكر العصر الحديث أثر المثلثات في كثير من البحوث الطبيعية والهندسية والاكتشافات المعاصرة وتسهيل دروبها وتحقيق الانتصارات العلمية الكبيرة ودراسة الرياضيات عند العرب تحتاج إلى دراسة مفردة يقوم عليها مختص، لكنني سأمر سريعاً بها وأذكر بعض شواهداها وخير من كتب عنها قدري

٢٠- شاخت وبوزورث: تراث الإسلام (الجزء الثاني) ترجمة حسين مؤنس وإحسان صدقي، سلسلة عالم المعرفة، عدد ٢٣٤، الكويت أغسطس ١٩٧٨م، ص ١٩٦.

طوقان، فقد أفرد لها كتاباً ضخماً طُبِعَ أكثر من مرة ومما ذكره أن العرب قد توصلوا إلى إثبات نسبة جيوب الأضلاع بعضها إلى بعض كنسبة الزوايا المؤثرة بتلك الأضلاع بعضها إلى بعض في أي مثلث كروي واستعملوا الماسات والقواطع ونظائرها في قياس الزوايا والمثلثات. بل أن البتاني حل بعض العمليات المتعلقة بالمثلثات بطريقة جبرية.

وقد خطا العرب خطوة لا يمكن أن ينساها علماء الرياضيات عندما استعملوا الرموز الرياضية، فقد سهلت كثيراً من العمليات واختصرت الوقت، عندما سهلت حل المعادلات بدرجات مختلفة.

وقد كانت لهم نظرة رياضية ممتازة عندما اعتنى علماؤها بالجذر الأصم، وكان الخوارزمي أول من استعمل "أصم" لتدل على العدد الذي لا جذر له ومن هذه الكلمة أو من هذا المعنى استعمل الغرب لفظة Surd وهي تعني أطرش، Deaf، Mute. ولم يفت المنصفون من علماء الغرب تقديرهم للعقل الرياضي العربي، فقد قال كاجوري: "إن العقل ليدهش عندما يرى ما عمله العرب بالجبر، وقد كان لمحمد بن موسى الخوارزمي الفضل الأول في وضع علم الجبر والحساب عندما وضع كتابه "الجبر والمقابلة" في زمن المأمون (١٨)، وللخوارزمي فضل كبير في وضع كتاب في الحساب، من الأوائل في هذا العلم من حيث التبويب ووفرة المادة وقد نقله Adlord of Bath تحت عنوان الغورتمي.

وبقي المعمول عليه عند التجار والمحاسبين والعلماء في علومهم وحاجاتهم اليومية والعلمية Al Goritmi de Numero Mdorima. وبقي المعمول عليه عند التجار والمحاسبين والعلماء وحاجتهم اليومية والعلمية.

وبذلك كان الجيب تمام والقاطع والقاطع تمام والجذر الأصم ومعرفة الكسور والجداول الرياضية وغيرها من أصول الرياضيات، كان للعرب فضل وصفها وتطوير علم الرياضيات.

والصفر، ما هذا الصفر الذي تمر به في هذه الأيام من دون أن نعلم به أو نلتفت إلى أثره لأنه أصبح جزءاً من الحضارة المعاصرة وأصبح سهلاً متداولاً، فللغرب قصة مع هذا الصفر. فقد احتار الغرب في هذا الصفر الذي يزيد العدد كمية ويكون أحياناً لا يساوي شيئاً ولا يحسب، وأخذ الغرب فكان Cpher، و Chuffer ثم أصبح Zphyr ثم Zero بالإنكليزية. وباستعمال الصفر أصبحت

الأرقام التي يستعملها العرب أكثر مرونة وأيسر استعمالاً في العمليات الحسابية المختلفة فقد حلت الكثير من المعادلات مهما كانت درجاتها واستعمال الصفر مع الأرقام التسعة في الرياضيات أسهل من كتابة الحروف الرومانية، وأيسر استعمالاً ولا تأخذ مكاناً كبيراً عند تدوينها ولتأخذ رقماً مقارباً للألف (٩٩٨) ستكون DCCCLXXXVIII أي أربعة عشر رقماً وهي ثلاثة أرقام بالاستعمال العربي.

ولعل من الطريف أن نذكر أن روما أصدرت تحريماً بالاتصال بالعرب الوثنيين، ولما أراد أحد رؤساء الطوائف دراسة كتب أولاد موسى بن شاكراً في الميكانيك والفلك والرياضيات والساعات الشمسية، استأذن البابا في هذه الدراسة. ولما تعلم غربرت، الذي أصبح البابا سلفسترس الثاني، العلوم عند العرب، وكان يعدها ويحسبها بأرقامها ظنوه ساحراً لأنه لا يكتب غير أرقام محدودة ويعرف النتائج بينما الأرقام اليونانية تحتاج إلى صفحات للحساب.

ولا يستغرب القارئ العربي إذا عرف بأن الغرب لم يعرف الهندسة إلا عن طريق علماء العرب وكتبهم ومؤلفاتهم، فقد كان هذا العلم مجهولاً، لأن كتب اليونان في الهندسة لم تصل إلى الغرب، وقد ظهر مؤخراً في أوائل هذا القرن رسالتان في الهندسة وفي كنيسة وستر، الأولى كتبها البابا غربرت الذي مر ذكره والذي أصبح بابا باسم سلفسترس الثاني سنة ٩٧٩م. والثانية ترجع إلى أوائل القرن الثاني عشر للميلاد كتبها ادلر أوف باث وكلاهما تعلم العلوم عند العرب في الأندلس.

وفي الوقت الذي كانت حياة الغرب يسيطر عليها الإقطاع ويلفها غيم كثيف من الخرافات وترقد في أذهانهم الأساطير ويسخر الإقطاعي أبناء جنسه كما يسخر البهائم ويستعبد الإنسان كما يستعبد الحيوان، كان العرب يسخرون علم الهندسة لتكون وسيلة من وسائل تسهيل الفيزياء ولتكون العلوم أداة من أدوات الحضارة تقضي على الكهانة والطيرة والشعوذة، فقد وضع الحسن بن الهيثم قوانين الضوء مجرباً المرايا والعدسات المخروطية والكروية وهي خطوة أساسية في اختراع آلة التصوير المعاصرة. (وبذلك فقد سخر ابن الهيثم الهندسة بنوعها المستوية والمجسمة في بحوث الضوء وتعيين نقطة الانعكاس في أحوال المرايا الكروية والأسطوانية والمخروطية والمحدبة منها والمقعرة وابتكروا لذلك الحلول العامة)



وأبعد ابن الهيثم في الاستفادة من الحلول المعقدة المتعلقة بالضوء وتناول دراسة (نقطة تعيين الانعكاس على أساس منطقي سليم).

وقد صدق غوستاف لوبون بقوله: "إن العرب الذين أخرجوا الغرب من ظلمات التوحش إلى نور الحضارة. وإذا كانت أمة تقرّ بأننا مدينون لها بمعرفتنا وما انطوت عليه القرون القديمة من العلوم فإن العرب هم تلك الأمة، فعلى العالم أن يعترف بجميل صنعهم في إنقاذ تلك الكنوز الثمينة".

ومن ينكر أن جود العلماء العرب كان سبباً مهماً لإبراز العلماء في أوروبا فلولاً الخوارزمي وابن الهيثم وجابر بن حيان لما ظهر غاليليو وبرز نيوتن، فهم مهّدوا لهؤلاء الإعلام وإلا لاحتاجوا إلى قرون أخرى حتى تبدأ النهضة الأوروبية التي بدأت بفضل العرب من النقطة التي انتهى إليها علم العرب التي وصلت للغرب عن عدة طرق ومسارب تارة من الأندلس وآونة من طريق إيطاليا عندما نشأت الجامعات في صقلية وجنوب إيطاليا، كما وصلت الحضارة العربية عن طريق الحروب الصليبية التي بهرت الغربيين عندما جاءوا إلى الشرق حتى سجل الغرب بطولتهم وفروسيّتهم في ملحمة، فقد تحدث البطل عن تسامح العرب وإنسانيّتهم وأخلاقهم الكريمة فإذا انتقلنا من الرياضيات إلى الفلك وجدنا المسلمين قد أثروا تأثيراً بالغاً فيما يتعلق بالأرصاد الفلكية: ومن المسلمين الذين عرفتهم أوروبا في هذا الباب محمد بن موسى الخوارزمي الذي ذكرناه آنفاً، فإن الألواح الفلكية التي وضعها وفقاً لأرصاد بعضها قام هو بها وبعضها تأثر فيها بالهنود، قد ترجمها إلى اللاتينية "أدلهرد أوف باث" سنة ١١٢٦ ميلادية. كذلك نذكر "أبا العباس أحمد بن محمد بن كثير الفرغاني" وله في الفلك كتاب كان ذا أهمية بالغة، فترجمه إلى اللاتينية خوان الأشبيلي و"جيرردو الكريموني"، كما ترجمه إلى العبرية "يعقوب الأناضولي"، ونشرت الترجمة اللاتينية مع النص العربي في أمستردام سنة ١٦٦٩م. وهو الذي قاس قطر الأرض بمقدار ٦٥٠٠ ميل. ولا يفوتنا أن نذكر "أبا معشر جعفر بن محمد بن عمر البلخي" المتوفى سنة ٨٨٦م (سنة ٢٧٢هـ). وترجم له إلى اللاتينية كتاب بعنوان: *Introductorium In Astronomiam Albumasar Abalachi*. وترجمه "خوان الأشبيلي" وطبع سنة ١٤٨٩ في أوجسبورج وسنة ١٤٥٩ في فينسيا. وفيه وضع نظرية عن المد والجزر.

وكان نصير الدين الطوسي (١٢٠١-١٢٧٤م) يعتبر كتابه "التذكرة في علم الهيئة" أشهر أعماله التي بدأت المسيرة نحو فهم أوسع لبنية الكون، وقد حظى كتاب التذكرة باهتمام بالغ في العصور الوسطى<sup>(٢١)</sup>.

وأصالة علم الفلك عند المسلمين نشأت من كونهم طبقوا حساب المثلثات على الأرصاد الفلكية، واخترعوا وصنعوا آلات جديدة للرصد، مما أدى بهم إلى كثير من الاكتشافات وإلى تعديل شامل لفلك بطليموس. "البتاني" اكتشف تغير أوج الشمس؛ وحسب السنة بمقدار ٣٦٥ يوماً وخمس ساعات و٤٦ دقيقة و٢٤ ثانية. والفلكيون اليوم يحسبونها بمقدار ٣٦٥ يوماً، وخمس ساعات و٤٨ دقيقة و٤٧ ثانية. كما تتبأ الفلكيون المسلمون بكسوف الشمس وخسوف القمر بدرجة من الدقة المتناهية أذهلت الناس. وأولوا القمر اهتماماً خاصاً، لأن السنة الإسلامية قمرية، فانتهى "أبو الوفاء البوزجاني" (٩٤٠م-٩٩٨م) إلى اكتشاف التغيرات القمرية؛ كذلك عنوا بدراسة عطار أو الكاتب كما كان يطلق عليه فوضع "البتاني" نظرية عن حركات عطارد.

وخير شاهد على أثر العرب في حياة الغرب وحضارته وجود الكلمات العربية في علم الفلك كالعقرب Acrab، والجدي Algadi، والطائر Altair، وذبب Daneb، وفرقد Phrkod، ونظير Nadir، وسمت Zamth، والغول Algol، والكور Alkor، وفم الحوت Fam alkhout.

وقد هلك الغرب لنظرية كوبرنيكوس بأن الأرض تدور حول الشمس مع أن هذه النظرية حقيقة عند العرب فقد اكتشفوا بأن الأرض تدور حول الشمس وتدور حول النجوم. ومن يقرأ البيروني وابن الشاطر الفلكي الدمشقي، يجد مصداق هذا القول.

ولم يكن كوبرنيكوس الوحيد الذي استفاد من العرب، فقد استفاد غاليليو من الجداول الرياضية، وقياس قطر الأرض.

ومن الطريف أن تعتمد روما على تحديد موعد الجمعة الحزينة وموعد عيد الفصح المجيد على "أولاد الشياطين" من العرب عندما تاه حساب روما، ولم تعد تدري كيف تحتفل بمواسمها الدينية، فأرسلت إلى الأندلس تسأل عن التاريخ الذي يقع

فيه العيد، ولماذا نذهب إلى التاريخ ونوغل في القدم فإن دليلنا واضح في أثر العرب على حياة الغرب الحضارية في أسماء الأيام التي يستعملونها فلو عدنا إلى أصلها لما بعدت الحقيقة عن أنهم أول من فكر فيها فقد جاء عن أخوان الصفا (٢٢).

اعلم أن الليل والنهار وساعاتهما مقسومة بين الكواكب السيارة، فأول ساعة من يوم الأحد للشمس، وأول ساعة من يوم الاثنين للقمر، وأول ساعة من يوم الثلاثاء للمريخ، وأول ساعة من يوم الأربعاء لعطارد، وأول ساعة من يوم الخميس للمشتري، وأول ساعة من يوم الجمعة للزهرة، وأول ساعة من يوم السبت لزحل.

ودعنا نبحت عن أسماء الأيام باللغتين الإنكليزية والفرنسية، فستكون النتيجة مطابقة لا مثيل لها أخذت من حسابات العرب والمسلمين وحضارتهم، فالأيام: الأحد Sunday والاثنين Monday، الثلاثاء Tuesday، الأربعاء Wednesday، الخميس Thursday، الجمعة Friday، السبت Saturday.

فالأحد يوم الشمس والاثنين يوم القمر والثلاثاء يوم تموز وهو آلهة الرعد قديماً والجمعة يوم الآلهة في Frie زوجة عطارد وتشبه الزهرة في صفاتها وزحل للسبت، أما في الفرنسية فإن Mardi فهو مارس المريخ ليوم الثلاثاء، وMardi الأربعاء عطارد، وMercredi ليوم الخميس المشتري، Jeudi يوم الجمعة وهو يوم الزهرة، فإذا كانت الحضارة الغربية بحاجة إلى الاستعانة وبالأسماء العربية وأخذتها من الحضارة الإسلامية فكيف ينكر أثرها الواضح.

٢٢- أخوان الصفا هي فرقة فكرية عُرفت باسم "إخوان الصفاء وغلان الوفاء"، اشتهرت بتصنيفها مجموعة من الرسائل في مختلف فروع الفلسفة والعلوم الإنسانية. وقد عرفت هذه الرسائل رواجاً كبيراً في مختلف أنحاء العالم الإسلامي، كما يظهر من خلال العدد الكبير الذي وصلنا من نسخها المخطوطة، ومنها نسخة أُجريت في بغداد عام ٦٨٦ هـ، ترتبها مئمتان بديعتان مختصرتان جمالية فن التصوير العباسي الخاصة بفن الكتاب. اختلفت الآراء في تحديد مذهب هذه الجماعة ودورها في الحياة الفكرية والاجتماعية والسياسية، والثابت أن اسم الجماعة خرج إلى النور في القرن العاشر الميلادي حيث "اضطربت أحوال الخلافة، ولم يبق لها رونق ولا وزارة، وتلك البويعيون، وصارت الوزارة من جهتهم والأعمال إليهم"، على ما كتب ابن الطقطقي في "الفخري في الآداب السلطانية". وكان البويعيون من الشيعة الذين اتبعوا مذهب الزيدية، وهي من أقرب الفرق إلى آراء مذهب السنة، ذلك أنها لا تحصر الإمامة في سلالة الإمام الحسين بن علي (ع)، كما أنها لا تشارك غيرها من الفرق الشيعية في ذم الخلفاء أبي بكر وعمر وعثمان (رض)، والقدح في الصحابة الذين لم يبايعوا الإمام علي بالخلافة بعد وفاة الرسول (ص). الأخوان على الخير يحزم الكثير من البحالة بتشجيع إخوان الصفاء، إلا أنهم يختلفون في تحديد الفرقة التي ينتمون إليها، فمنهم من يحسبهم من الإسماعيليين، ومنهم من يرجح انتماءهم إلى الإلثني عشرية، ومنهم من يربط بين مذهبهم ومذهب الزيدية، ثميد من التفاصيل أنظر دراسة الأستاذ الكبير محمود اسماعيل عن هذه الجماعة.

وقد ظن العالم القديم بأن الأرض مسطحة حتى أدخل العرب فكرة كرويتها إلى الأذهان ومن هذه الفكرة تشجع كولومبوس للسفر والمجازفة بالرحلة إلى غرب الأرض واجتياز بحر الظلمات، فقد قرأت الفكرة باللغة اللاتينية. وقد أكد الشريف الإدريسي في كتابه "زهرة المشتاق" وبصورة الأرض التي رسمها وجسمها ذلك الرأي في وقت كان الغرب ينظر لمن قال هذا القول بأنه من الكافرين، فقد قال أحد رجال الكنيسة لاكتانيوس: "هل هذا من المعقول؟ أيعقل أن يجن الناس إلى هذا الحد فيدخل في عقولهم أن البلدان والأشجار تتدلى من الجانب الآخر من الأرض؟ وإن أقدم الناس تعلق رؤوسهم؟".

وقد قام العلماء العرب بعدة رحلات لقياس قطر الأرض إضافة إلى دور الرصد التي كانت منتشرة في العالم الإسلامي، فقد كان في الشماسية دار للرصد وأخرى في جنديسابور والقاهرة وفي جبل قاسيون لمراقبة النجوم بدقة ولمقارنة النتائج بين هذه الدور. وقد قاس محمد بن موسى محيط الأرض في سنجار وفاقت هذه القياسات في الدقة ما قام به غيرهم حتى بطليموس، وقبل كولومبوس تخيل الأصفهاني وجود عالم آخر في الجانب الثاني من الأرض بقوله: "لا أمانع أن يكون ما انكشف عنه الماء من الأرض من جهتنا منكشفة من الجهة الأخرى، وإذا لم أمانع أن يكون به الحيوان والنبات والمعادن مثل ما عندنا أو من أنواع وأجناس أخرى".

إن هذا الرأس واضح بأن الأصفهاني يرى وجود أرض تقابل الأرض المعروفة في زمنه ولم يقف عند الحدس والتخمين إنما حاول العرب الخروج من أرضهم التي يعيشون عليها لاعتقادهم بوجود أرض.

وقد أبحرت من لشبونة جماعة لمعرفة مكان النهاية من هذا البحر، فإنهم لم يعتقدوا بأن هذا البحر ليست له نهاية أو أن الجن أو الغيلان والمردة تسكنه كما يظن الغربي، فقد قال الإدريسي: "اجتمع ثمانية رجال كلهم أبناء عم فأنشأوا مركباً وأدخلوا فيه الماء والزاد ما يكفيهم لأشهر ثم دخلوا البحر". وقد وصف الإدريسي المكان الذي حلوا فيه بعد أحد عشر يوماً وذكر الصعاب والمشقات التي قابلتهم في طريقهم حتى وصلوا إلى جزيرة ترعى فيها الأغنام من دون راع، وبينما هم في استطلاعهم ألقى القبض عليهم رجال شعورهم شقراء منبسطة، وبعد أربعة أيام من إلقاء القبض عليهم دخل عليهم رجل يتكلم العربية وكان مترجم الملك، ولما قابلوا

الملك أخبروه بجلية أمرهم ورغبتهم في الاستكشاف فما كان منه إلا أن أمر بوضعهم في زورق وقد غُصبت عيونهم وأُخذوا إلى جزيرة أخرى وقد تركوهم مُكْتَفَيْن حتى جاءتهم جماعة من البربر فَأَنْقَذَتْهُمْ<sup>(٢٣)</sup>.

أما في الكيمياء والفيزياء فللمسلمين أثر واسع في تكوين الفكر الأوروبي. وأبرز المسلمين أثراً هو "أبو علي الحسن بن الحسن (أو الحسين) بن الهيثم" المتوفي سنة ١٠٢٩م. وقد عرفه اللاتين باسم Albazen وبرز خصوصاً في علم البصريّات، وأصله من البصرة ولكنه أقام طويلاً في مصر. وقد ترجم إلى اللاتينية كتابه في "المناظر" أي البصريّات بعنوان: *Opticae thesaurus libri septem* ونشره *Risner Fried* في بازل سنة ١٥٨٢ ويتضمن نظريات جيدة عن المرايا المستوية والمخروطية والأسطوانية والكروية والبيضاوية، وفي الانحراف والانكسار والإبصار، والغرفة المنظمة، وهو أول من استخدم الغرفة المظلمة لرصد الخسوف وقال أن الضوء خاصة جوهريّة ذاتية لبعض الأجسام مثل الكواكب والنار والشموع والفحم المحترق، وصفة عرضية في الأجسام المعتمة أو الشفافة التي تعكس ضوء الأجسام الأخرى وقال أن الضوء ينبعث في خط مستقيم وفي كل الاتجاهات، ونقد نظرية القدماء التي كانت تقول أن الشعاع ينبعث من العين ويتجه إلى الشيء المرئي ثم يرتد إلى العين، واستبدل بها نظرية أخرى تقول أن الأجسام هي التي تبعث ضوءها الخاص أو المنعكس في كل اتجاه، وما تتلقاه العين هو الذي يجعلها تبصر.

وفي الكيمياء قام المسلمون باكتشافات هائلة من بينها: الماء الملكي، وحمض الكبريتيك، وحمض الأزوتيك، ونترات الفضة. والمسلمون في العمليات الكيميائية التي قاموا بها قد استطاعوا تحضير: حمض الزرنيخ، وأكسيد الزئبق، وأكسيد الحديد وأكسيد النحاس، وكبريتات النحاس، وكبريتات الزئبق، وحمض الكبريتيك، وحمض الكلورودريك وحمض الأزوتيك، والماء الملكي وكان عبارة عن حمض النوشادر محلولاً في حمض الأزوتيك؛ كذلك حضروا: كربونات النوشادر، وملح النوشادو، وكلورور الذهب، ونترات الفضة، وكلورور الزئبق الذي حضره "جابر بن حيان" بغلي الزئبق مع الملح العادي والنترات والألومن. وأشهر الكيميائيين

المسلمين الذين عرفتهم أوروبا هو من غير شك جابر بن حيان الذي كان يعيش في سنة ٧٧٦م.

وفي الطب قام الأطباء المسلمون باكتشافات بارزة جعلت دراسة الطب في أوروبا عيلاً عليهم لأكثر من أربعة قرون. فبخلاف ما نقله المسلمون عن الأطباء اليونان، اكتشف المسلمون عدة اكتشافات بالغة الأهمية: منها الجرب الذي اكتشف جرثومته الطفيلية "ابن زهر". والمسلمون وضعوا قواعد التشخيص معتمدين على النبض والبول. وبذلوا مجهودات عظيمة في اكتشاف ما سموه باسم الأسباب والعلامات، أي أسباب الأمراض وأعراضها؛ كما عتوا بدراسة أنظمة الطعام وأضافوا الكثير إلى الفارما كوييا مستعينين بأبحاث علماء النبات. كما كان لهم الفضل في إنشاء وتنظيم المستشفيات العامة التي كان المرضى يعالجون فيها مجاناً على حساب الدولة، وفي بعض المدن أنشأوا وظيفة كبير الأطباء أو مقدم الأطباء، وكانوا يطلقون عليه في البداية إسما سريانياً هو "اعورا" أي مقدم الأطباء.

وانتقل الطب الإسلامي مبكراً إلى أوروبا، فانشئت مدارس للطب في "مونبلييه" و"رانس" و"بولونيا" و"بادوا" و"أورليان" و"نابلي" و"اكسفورد" و"كمبردج" و"انجيه"، وكلها كانت تستخدم الكتب العربية المترجمة إلى اللاتينية أساساً لتدريس الطب.

والطبيب المسلم الذي يبرز أسمه في الحال هنا هو "محمد بن زكريا الرازي" (٢٤) والذي توفي سنة ٩٢٣م. فكتابه "الحاوي" هو دائرة معارف طبية كبرى، وقد ترجم إلى اللاتينية بعنوان *dictus Elhavi Liber* وطبعت الترجمة اللاتينية في برشيا سنة ١٤٨٦م. وهذا الكتاب يتضمن آراء جديدة طريفة عن: الحميات والفتق والحجامة وأعصاب وعضلات منطقة الحنجرة. وكتابه "المنصوري" ترجم أيضاً، وطبع سنة ١٤٨١، وكذلك رسالة صغيرة عن الجدي والحسبة وصفهما وشخصهما لأول مرة بدقة وأصالة.

ويأتي بعده في التأثير وأن كان أقل منه أصالة: "أبو علي ابن سينا" المتوفي سنة ١٠٣٧م. فكتابه: "القانون في الطب" إلى جانب "الحاوي" للرازي و"الملكي" لعلي بن

٢٤- ولد الرازي سنة ٨٢٥ م وتوفي ٩٢٦م، وبعد إمام الطب العربي الإسلامي بلا منازع، لقب بـ"جاليوس العرب" وقد ترجمت أعماله إلى اللاتينية والألمانية والفرنسية والإنكليزية مرات عديدة ويقال أن رسائله في الجدي والحسبة طبعت بالإنكليزية وحدها أربعين مرة بين أعوام ١٤٩٨-١٨٦٦.

العباس كان عمدة الدراسة الطبية لستة قرون في مدارس أوروبا الطبية. وفي الكتاب ملاحظات أصيلة عن الالتهاب الرئوي وعدوى السل، وفيه حوالي ٧٦٠ دواء وقد ترجمه إلى اللاتينية "جيرردو الكريموني"؛ وطُبعت الترجمة اللاتينية عشرات الطباعات. أما النص العربي فنشر لأول مرة في روما سنة ١٥٩٣.

كذلك نذكر "أبا القاسم خلف بن عباس الزهراوي" الذي ترجم كتابه "التصريف" إلى اللاتينية وطبع عشرات الطباعات، وهو أول كتاب تفرد فيه الجراحة علماً مستقلاً قائماً على معرفة التشريح. و"أبو القاسم الزهراوي" هو أول من أجرى عملية إزالة حصوة المثانة في النساء.

وكان المأمون (الخليفة العالم) يبحث عن الأطباء ويقربهم إليه، وأجزل لهم العطاء، بغض النظر عن دينهم (٢٥).

وقد عاش الغرب على الكتب العربية في الطب حتى القرن الخامس عشر، فقد كانت كتب الرازي وابن سينا والزهراوي منهل العلم والأطباء لقرون طويلة وترجمت إلى عدة لغات. إما رسالة الرازي في الجدي، فقد ترجمت إلى اللاتينية في مدينة البندقية سنة ١٥٦٥ ومنها ترجمت إلى اللغات الغربية الأخرى، واعتمد الطبيب المغربي بخلصة علمه في الطب على كتاب "الحاوي" للرازي الذي ترجم إلى اللاتينية سنة ٩٧٢١م وذكر أحمد بديع المغربي بأن صورة الرازي ما تزال معلقة في كلية الطب في باريس ومع صورة الرازي في الكلية نفسها صورة ابن سينا صاحب كتاب "الشفاء" الذي صنف في مختلف العلوم والفنون ومنها "القانون في الطب" والصحة والصيدلة ووظائف الأعضاء والعلاج (٢). وبقي كتاب ابن سينا هذا يستفيد منه الغرب حتى القرن السابع عشر وربما لم يدرس كتاب في الطب على مر العصور كما درس هذا الكتاب، وقد بلغ الطب الإسلامي عن طريق ابن سينا عميد الأطباء مرحلة عالية (٣) وقد طبع القانون في الطب عدة طباعات وترجم جزء منه إلى الإنكليزية وقد قال عنه أوسلر Osler في كتابه تطور الطب الحديث "إن كتاب ابن سينا بقي إنجيل الطب، وكان الزهراوي الجراح الكبير صاحب "التصريف لمن عجز عن التأليف" مخلصاً لعلمه متقناً لمهنته، وبارعاً في طبه، وقد قال عنه الدكتور عبد اللطيف البديري "بأن معلوماته ووسائله وآلاته أساس

الجراحة الحديثة، وهو أول من فصل الجراحة عن الطب الباطني، وأول من خاط الأعضاء بخيوط مصنوعة من الأمعاء، وأول من بتر رباطين وأول من أوصى بجعل الأطراف السفلى اعلى من الرأس عند إجراء العمليات في البطن<sup>(٢٦)</sup> . ومن تتبع علم الطب يقف مذهوشاً من تقدمه على يد العرب في استعمال الكاويات وتفتيت الحصاة في المرارة وضرورة ترشيح الأحياء، وقد وصلتنا صور الآلات الجراحية الدقيقة التي استخدمها العرب وطوروها حسب مقتضى المرض والعلاج، وخصت كل آلة بعمل وفي مقالة الزميل الدكتور البدرى أشياء طريفة عن الآلات الجراحية من مجارد ومشارط ومكاسب ومباضع، أعدت من مختلف المعادن، ويكفي العرب فخراً ما بقي من الأسماء الطبية في اللغات الغربية كالكحول والصداع Soda وقد سجل الأستاذ ويسلر في كتابه الحضارة العربية الكلمات العربية التي دخلت اللغات الأجنبية.

وللعرب فضل على الطب باستعمالهم المخدر عند إجراء العمليات الجراحية، ولا تختلف أساليب فحص المريض عن أساليب العصر الحديث، وقد علموا الغرب التعقيم الذي تركوه ثم عادوا إليه بعد ذلك. وقد فكّر الرازي بالمرضى الذين يشكون من حساسية مرفهة ويعجزون عن تناول الأدوية، فغلف حبوب الدواء بالسكر ومزج الأدوية بعصير الفاكهة والعسل. وقد كان العرب يستعملون التلقيح ضد الجدري منذ العصور القديمة عن طريق فتح جرح في المكان البيض الكائن بين الإبهام والسبابة، فقد ذكر ويسلر وهونكه ان ابن رشد "اكتشف المناعة التي يتركها داء الجدري الاسود لدى أصابته الأدمي مدى الحياة، بينما يصدر الإمبراطور ماكسيمليان بأن الجدري وسيلة من وسيلة وسائل الله لتهذيب البشر وعن طريقه تعرف عذاب الله ومن لا يؤمنون بهذا فهم كفار" ولم يدخل التطعيم ضد الجدري إلا في القرن الثامن عشر في أوروبا متتبعاُ الأسلوب العربي نفسه الذي تبعة العرب قبل مئتي سنة بالتلقيح بواسطة الجراثيم الضعيفة وخلق المناعة صناعياً. وقد بقيت رسالة الرازي في الحصبة مرجعاً للغرب فقد كتبها بملاحظات دقيقة عن المرض وتطوره وهو الذي فرق بين مرض النقرس الذي يصيب الأطراف وبين الروماتيزم.



وبالرغم من ان اكتشاف الميكروبات والجراثيم لم يتم إلا متأخراً فقد عرف العرب بأن العدوى تأتي من التراب والماء والملابس ورأى الطبيب العربي بأن العدوى تنتقل من المريض إلى السليم ولما نشر محمد بن الخطيب رسالته في الطاعون، أظهر أثر العدوى في انتشار الطاعون التي تأتي من ملابس المريض ومن فضلاته وأدواته التي يستعملها ونادى بضرورة الحجر الصحي على الغرباء الذين يفدون من المناطق الموبوءة.

في الوقت الذي يظن الغربي بأن الطاعون يأتي من التقاء الكواكب، ومن يقف مباشرة في محيط تأثيرها يقع صريعاً في براثن الطاعون المميت فهو نتيجة الأجرام السماوية وهو ناتج من غضب الله وليس لديهم من مكافحة لهذا المرض غير إقامة الصلوات ونشر البخور (والطريف ان أستاذاً في جامعة مونيخ خرج عام ١٣٤٨ - وهو عام انتشار الطاعون انتشاراً فاحشاً ومخيفاً - بنظرية تقول ان المريض هو المسؤول عن انتشار الطاعون وبالتالي فقد نصح الطبيب أو الكاهن ان يطلبوا من المريض إغماض عينيه ووضع خرقة عليها قبل ان يعمدا إلى معاینته. وهي السنة التي أخذ الطبيب العربي ابن الخطيب يذكر أساليب انتقال المرض ويرد على المعترضين قائلاً: "لقد ثبت وجود العدوى بالتجربة والاستقراء والحس والمشاهدة والأخبار المتواردة، هذه مواد البرهان ثم انه غير خفي على من نظر في هذا الامر ان من يخالط المصاب بهذا المرض يهلك، ويسلم من لا يخالطه". وقد منع النبي صلى الله عليه وسلم انتشار العدوى بقوله: "إذا دخل الطاعون بلدة فلا تدخلوها، وإن حلّ فيها فلا تخرجوا منها حتى لا تنتشر العدوى بين الناس".

وكان الأطباء المسلمون يشخصون الأمراض ويفحصون بول المريض بدقة ويسألون عن عاداته والأمراض التي أصابته وحالة أسرته الصحية ومناخ بلاده وتظهر دقة ملاحظتهم بعد ذلك.

ومن الطريف أن يذكر الباحث ويسلر قصيدة المتنبّي في الحمى ويقف عند

بيته:

إذا ما فارقتني غسّلتني \*\*\* كانا عاكفان على حرام  
كان الصبح يطردها فتجري \*\*\* مدامتها بأربعة سجام  
ويعلق بأنه سبق مولير بثمانية قرون في وصفه الحمى شعراً.

**دور المشافي والعزل :**

وهل تنسى البشرية المؤسسات الطبية الكبيرة التي أنشأناها لرعاية المرضى في إرجاء المعمورة فلا تكاد حاضرة تخلو من مستشفى مثل بغداد والقاهرة وتونس ومراكش والرباط وأرجاء الأندلس وتنظيم هذه المشافي والسير بها على أساليب علمية وطبية وإدارية دقيقة والعمل على مداواة المرضى ومعالجتهم بنظام ممتاز وتخصيص لكل مرض مستشفى خاص به وعزل المرضى بأمراض سارية بمؤسسة خاصة بهم لحماية السليم وتركيز التدوي ووضع مستشفى خاص بالمصابين بالأمراض العقلية وأخرى للمجزومين والعميان والأيتام والنساء، ولم تقتصر المستشفيات على البناية المستقرة فقد كانت هناك وحدات متنقلة تدوي المرضى وتعطيهم الأدوية والعقاقير اللازمة لكل مرض.

ولكل مستشفى أقسام متنوعة وقاعات معدة لأنواع الأمراض، امتازت كل قاعة أو جناح بالدقة في التنظيم والنظافة والإتقان بالعمل، وقد كان كل المرضى من الأغنياء أو الفقراء يُعالجون من دون مقابل، ويعطى للمريض الذي يترك المستشفى مبلغاً من المال يعينه على حياته الجديدة، وكانت المشافي مضرب المثل بالرفاهية وحسن العناية وكريم الرعاية ومن طريف ما أوردت هونكه: "ان المريض كان يريد ان يبقى اكبر وقت ممكن في المستشفى، بل كان السليم يشناق ان ينام فيها # ٠٢٣٦. وإن رجلاً نبيلاً من نبلاء فارس جاء مرة لزيارة مستشفى النوري في دمشق، وكانت له دوماً شهوة قوية ومتجددة للأكل، ولدى زيارته هذه فاحت رائحة الشواء أمامه فملأت منخريه وسال لعابه، وود في ذات نفسه ان يصبح بأسرع ما يمكن مريضاً عليلاً، فدخل المستشفى وأنيه يملأ الجو فعائنه الطبيب طويلاً من دون ان يجد فيه علة، فطرح عليه بعض الأسئلة وأيقن انه أمام جشع نهم علة في بطنه، فلم يقل له اي كلمة إنما حوله إلى قسم الأمراض الباطنية ووصف له الطبيب هناك شيئاً من العسل مع كبد الطيور والكما المقلّي وقليلاً من المربيات والليمون وكل أنواع الحلوى المسيلة للعاب، وذلك مرتين في اليوم، ولم تكد تمضي ثلاثة أيام حتى ضَعُفت مقاومة المريض وأصبحت معدته في خطر، عندئذ قال له الطبيب: لقد تمتعت يا صاحبي بالضيفة العربية أياماً ثلاثة، فاذهب الآن في سلام الله".

وقد كانت الجراحة متقدمة، فقد أجرى الجراح العربي عدة عمليات ناجحة في الوقت الذي كانت أوروبا تنظر للجراح بأنه نحس لأن الجراحة كان يزاولها الطبيب والقصاب (الجزار). ومن الطريف أن يستعمل الطب العربي الشحنات الكهربائية لمعالجة المرضى في الوقت الذي لم يكن أديسون قد اكتشف الكهرباء، فإن ابن سينا استخدم السمك الرعاد "الكهربائي" في مداواة الصرع والأمراض العصبية، (بواسطة وضع السمك في الماء حتى يبقى حياً) لأنه اكتشف أنه إذا مات فقد هذه الخاصية الكهربائية.

وبقيت كتب الطب الإسلامي تدرس في الجامعة الغربية، ومن الطريف أن مكتبة كلية الطب في جامعة باريس لم يكن فيها غير كتاب واحد، هو كتاب "الحاوي" للرازي، فقد حدثنا الدكتور شاكز مصطفى وهونكه بأن الكتاب كان مقيداً بسلسلة ضخمة كيلا يسرق، فلما أراد ملك المسيحية الشهير لويس الحادي عشر استعارته للاستفادة منه في معالجته هو وأسرته، وإن تنسخ منه نسخة، عودل بكميات من الذهب والفضة من العملات الرائجة آنذاك. وقد اعترف أهل باريس بقيمة هذا الكنز أو بفضل صاحبه عليهم وعلى الطب إجمالاً، فأقاموا له تمثالاً في باحة القاعة الكبيرة في مدرسة الطب إضافة إلى تعليق صورته وصور الرازي في إحدى قاعاتها الأخرى في شارع سان جرمان.

إن كتب ابن سينا وأبي إسحاق والزهرراوي والرازي وابن زهر وحنين بن إسحاق هي المراجع التي اعتمد عليها العالم في تدريس الطب والانتفاع بها، فقد أصبح كتاب "القانون" لابن سينا وحى الغرب في الطب وقانونهم في العمل وإنجيلهم في صدقه فقد امتاز بالمنهج العلمي حتى تفوق على غالينوس.

وقد حرّر العرب الطب من الخرافات والصلوات والبخور ومن قيود رجال الدين في الغرب، وفتحوا أمام الفكر الغربي مغاليق الحياة وأبواب التطور والتقدم.

فقد كان "القانون" من أول الكتب التي اعتمدوا عليها في بدء النهضة الغربية الحديثة، فقد ظهر في ميلانو مترجماً سنة ١٤٧٩م وطبع بعد سنين مع المنصوري والحاوي والكليات وإيساغوجي حنين بن إسحق، والملكي (أو كمال الصناعة) الطبية لعلي بن العباس سنة ١٥٠٠م، وقد طبع "القانون" ست عشرة مرة ووصلت العشرين طبعة حتى القرن السابع عشر مع شروح وتعليقات كثيرة. وقد كان الكتاب "الملكي" شاملاً لعلوم الطب وكان خير هدية منحت لأطباء العالم ولم يسبق

ان احتفى به الأطباء من قبل وأعطى الزهراوي الأندلس "التصرف لمن عجز عن التأليف" خلاصة تجارية في الجراحة فهو الذي أسس الجراحة في الغرب وبقي من أهم مراجع الأطباء في الجراحة وآخر طباعته سنة ١٧٧٨ في أكسفورد.

أما ابن زهر الاشبيلي فقد ألف "التيسير في المداواة والتدبير" وضاهى الرازي في مكانته وفضله. أما ابن رشد فله كتاب "الكليات في الطب"، وكتب حنين بن اسحق، وكتاب "الاصول" لابن رضوان وكان ابن رضوان طبيباً مصرياً مشهوراً بأعماله في الطب الوقائي<sup>(٢٧)</sup>، "تقويم الأبدان" ولابن جزلة كتابه في الأمراض و"تقويم الصحاح" لابن بطالان في اثر المناخ والتغذية والحركة والنوم و"زاد المسافر" عن أسباب المرض لابن الجزار القيرواني.

ومن طرائف الكتب ان أحد علماء الغرب الدكتور هارتمان شيدل كان كلف بالكتاب "الملكي" لعلي بن العباس ولم يكن يقدر الحصول عليه في نورنبرغ. وشاعت الصدف ان يخبره في سنة ٣٩٤١م الشاب هولز شوهر بالحصول على نسخة من الكتاب فكان مسروراً به، فقد حصل عليه مترجماً إلى اللاتينية ومطبوعاً في البندقية وأخبر صديقاً له كان أشد إعجاباً بالكتاب هو مونتسر فكان فرحاً شديداً، وكان تقديره للشاب كبيراً حتى زوجه ابنته الوحيدة دوروثيا، وقد خلد هذه القصة الرسام دور بلوكة من رسمه وقد أصبح الزوج عمدة نورنبرغ فيما بعد.

وحديث الدورة الدموية التي باهى الغرب بأن مكتشفها وليم هارفي قد تبذل عندما اعترف أبناء الغرب أنفسهم ومنهم الكاتبة الفاضلة هونكه (ان أول من نفذ بصره إلى أخطاء غالينوس، وجاء نقدها بنظرية الدورة الدموية لم يكن سارفييتوس الأسباني ولا هارف الإنكليزي، بل رجلاً عربياً أصيلاً من القرن الثالث عشر الميلادي، هو ابن النفيس<sup>(٢٨)</sup> اكتشفها قبل هارفي بأربعة قرون. وقد كان رجال

٢٧- هوارد تيوتن: العلوم عند المسلمين، ترجمة فتح الله الشيخ، المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٤، المشروع القومي للترجمة، عدد ٦٤٤، ص ١٤٧.

٢٨- ابن النفيس: ولد في دمشق سنة ١٢١٠ م ويقال أنه توفي ١٢٨٨ أو ١٢٩٦، وكان رئيساً لأطباء اليمارسطن الناصري بمصر، ووضع كتاباً مهماً شرح فيه قانون لابن سينا يحمل اسم شرح تشريح القانون الذي ترجم إلى اللاتينية سنة ١٥٤٧ م وقد ظل هذا الكتاب منسياً لما يقرب من ثلاثة قرون حتى اكتشفه سنة ١٩٢٤ م طبيب مصري (محي الدين السطاوي) وكان يعد لرسالة الدكتوراة في جامعة فرايبورج الألمانية، وفي هذا الكتاب شرح ابن النفيس الدورة الدموية الصغرى وبعد ترجمة هذا الكتاب إلى اللاتينية بست سنوات أصدر الأسباني ميشيل سرفية (سريافيتوس) كتاباً إعادة المسيحية ناقلاً فيه عن ابن النفيس دون الإشارة إليه وقدم أعدم ميشيل سرفية حرقاً بسبب هذا الكتاب.

الغرب يمنعون مرضاهم من الاستفادة من الطب العربي والأطباء العرب الكفار، غير أن الشعب كان يفضل الذهاب إلى جانب الأعداء للتداوي على رغم زجر الكهنة لهم وتحريم الكنيسة، فلم يكن ينفع في هذا المجال لا وعيد ولا تهديد، وكثيراً ما ردد رجال الكنيسة على أسماع الناس كلمات بهذا المعنى: تحت ستار طبهم وعلاجهم للجروح وعقاقيرهم، يخبئ أطباء الكفر للمسيحيين خبئاً ومكرراً لإلحاق الضرر بهم وقتلهم غيلة.

وقد حاول الغربيون تجاهل الأمر ولكن الحقيقة غلبت، وبدأ الغرب الاهتمام وترجمت آثار الطب، ولم تجر أول عملية جراحية إلا بعد وفاة ابن النفيس بمئتي سنة الذي اعتمد على الملاحظة الفردية والدقة العلمية وقد ناقشها الدكتور غليونجي في كتابه "ابن النفيس" وقارن بين نظريته والرأي السائد قبله عند ابن سينا وغالينوس وأنه "اهتدى إلى العلم بأن اتجاه الدم ثابت وأنه يمر من التجويف الأيمن إلى الرئة حيث يخالط الهواء ومن الرئة عن طريق الشريان الوريدي إلى التجويف الأيسر" ولم يبعد ابن النفيس كثيراً عن الحقيقة عندما قال إن الدم يمر في مسام بين العرقين أو من منافذ محسوسة هي بمثابة الأوعية الشعرية. وهذا الرأي قال به قبل اكتشاف العدسة المكبرة وقبل أن يتحدث مالبيجي عن الأوعية الشعرية. وفي الفهرست وطبقات الأطباء لأبن أبي أصيبعة أخبار عن الأطباء كثيرة.

وهكذا كان تقدم الطب في البلاد الإسلامية يأتي إليها المرضى من الغرب، وقد انعكست الآية فأنتم اليوم تأتون إلى بريطانيا للتداوي واستشارة أطباء الغرب في أمراضكم<sup>(٢٩)</sup>.

أما الآداب فقد أفردت كتاباً عن أثر الأدب العربي في الأدب الغربي وبخاصة الأدب الإنكليزي الذي هو إبداع عربي خاص لا يحمل حضارات الأمم السابقة لأنه فن عربي أصيل فيه صدق المشاعر وعميق الإحساس ورقة البناء والصور الصادقة لحياته ولمجتمعه. الحق إن الغرب لم يقبل على أدبنا بادئ الأمر لاختلاف المشاعر والمحيط والأصول التاريخية والنفسية ولكن بعد أن كثرت التعريب والترجمة أخذ الأديب الغربي يتذوق هذا الأدب وبخاصة من أولئك الذين اتصلوا بالحضارة العربية، فانتقل الأدب بصورة واضحة عن طريق الأندلس، كما أثرت

صقلية في سريان الذوق العربي في الغرب. ومن آثار هذا تأثير التروبادور بالأدب العربي كما تقول سهير القلماوي ان الشعر الغنائي الأسباني القديم ربيب الأندلسيين المسلمين وهو المورد الذي استفاد منه الفرنسيون ومنه تنوعت أنواع الشعر في الغرب ومن الطريف ان الباحثين كانوا يشكون في ما ادعاه ريبيرا حتى جاءت المفاجأة سنة ١٩١٢ عندما قال بوجود شعر غنائي مكتوب باللغة اللاتينية الدارجة في الأندلس الأسبانية واعتمد على نصوص وموشحات أكدت بأن أوروبا قلّدت شعر الوشاحين والزجالين الذين سبقوهم بقرنين واكد ذلك نيك لما طبع ديوان ابن قرحان بالحروف اللاتينية وكتب يود الحجج التي ذهب اليها ريبيرا وزاد الأمر تأكيداً المستشرق الانكليزي ستيرن وقد ذكرت الدكتوراة سهير القلماوي الحجج كلها وأكدت الرأي بالأمثلة (أثر العرب والإسلام في النهضة الأوروبية) ومن الآثار التي يذكر ويسلر ملحمة رولان التي ظهرت سنة ١٠٨٠ والتي تمثل اثراً أدبياً بدائياً غربياً بوجودها لاحتكام الأندلس بالعرب عبر جبال الأندلس.

ويقول: وبوساطة أسبانيا الإسلامية خضع بوكاسيو جوسر وكثير من المؤلفين القصصيين الألمان للتأثير العربي وهي التي أوحى بأعظم أشعار تنسون Tenyson وبراونك والكوميديا الإلهية لدانتي المدينة للفيلسوف المتصوف ابن العربي في القرن الثالث عشر وهذا الشعر الخالد من جهة أخرى مليء بالأوصاف العربية في النصوص التي تحكي الرحلة عبر ملكوت السماء والجحيم (١٦٥-١٦٦) وقصص الغرب مشحون قبل هذا ومن درس الفرنسية والإنكليزية يعرف ذلك في مجموعة الفونسو وفيها عدد كبير من الحكايا العربية التي اربت على الثلاثين وأكثرها متأثر بألف ليلة وليلة ولعلها أثرت هي وكليلة ودمنة وقصص السندباد عندما ترجمت إلى لغات الغرب.

وقد أثرت كليلة ودمنة في لافونتين بتقليد ماهر واصبح هذا الكتاب شعبياً في القرن الرابع عشر حتى اضطر أحد الأساقفة ان يهاجم المسيحيين الذين يقرأون هذا الكتاب لأنه خطر يهدد الكاثوليك. ونعرف ان بوكاسيو قد تأثر في الأدب العربي بما عرفه من الأدب العربي وبما ألف من قصص ووضح أثر الأدب العربي في ديكامرون.

ومن دراسة واسعة واسعة ومعقدة نجد ان أهم عناصر النهضة الفكرية والأدبية تأثرت بالأدب العربي ومن أشهر الشعراء في الغرب الذي اعجب بالعرب وادبهم:

قرأ غوته الشاعر الألماني الكبير القرآن الكريم في ترجمة ألمانية ولايتينية ودقق في دراسته واستشهد بالقرآن في أدبه منها:  
 "بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ" (البقرة آية ١١٢)  
 "وَاللَّهُ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ"  
 (البقرة آية ١١٥)

ويقول إن القرآن الكريم يرد تعاليم الدين ويكرر البشر والنذير سورة بعد سورة ويرى في التكرار والترديد ما لا يراه النقاد في الغرب لأنه لم يرسل برسالة شاعر للتغني بالقول والتنويع في ضروب الكلام وعرض الصور المزوقة من الأخيلة والأوهام لاستحداث اللذة وإدخال الطرب وإنما محمد نبي مرسل لغرض مقدر مرسوم يتوخى إليه ربط وسيلة واقوم طريق وهذا الغرض هو إعلان الشريعة وجمع الأمم حولها لينضوا تحت لوائه<sup>(٣٠)</sup>.

نتائج قصصية إسلامية أثرت في الأدب الغربي<sup>(٣١)</sup> :

من التأثيرات البالغة العمق في الأدب الأوربي الحديث تأثير القصص الإسلامي، وكان انتقالها إلى أوروبا إما شفاهاً، وإما كتابة. أما شفاهاً فكان نتيجة حركة التبادل التجاري النشطة كل النشاط على مسرح البحر الأبيض المتوسط بين شواطئه الشمالية في أوروبا وشواطئه الجنوبية في العالم العربي والإسلامي. إذ كانت أساطيل البندقية ولوقا وجنوة وبيزا دائبة الإبحار إلى سواحل سوريا والإسكندرية وتونس والجزائر وآسيا الصغرى، ثم في إبان الحروب الصليبية حين كان الأسرى يتبادلهم الأطراف المتنازعة، ومنهم من بقي حيث رحل أسيراً سواء في العالم الإسلامي وفي أوروبا، وكان لهؤلاء دورهم في هذا التبادل الشفاهي للأخبار والقصص. أضف إلى ذلك توغل العثمانيين في أوروبا حتى استولوا على المجر بعد معركة موها كس سنة ١٥٢٦ وحاصروا فينا بعد ذلك بثلاث سنوات، وتوالت هجماتهم في اتجاهها إلى أن كان حصارهم الأخير لها بقيادة الوزير الأعظم قره مصطفى سنة ١٦٨٣. وامتدت سيطرة العثمانيين على دول البلقان عدة

٣٠- نفسه.

٣١- أنظر عبد الرحمن بدوي، دور العرب.

قرون، مما بث الكثير من الأدب الإسلامي في هذه البلاد. أما كتابة فقد تم الانتقال بترجمة قصص أو كتب أمثال وحكايات إلى اللغات الأوروبية الحديثة. وأهمها على الترتيب التاريخي:

- ١- كتاب كليله ودمنة، الذي ترجم إلى الأسبانية سنة ١٢٥١م، ثم إلى اللاتينية عن الترجمة العبرية التي قام بها ربي يوثل. وذلك في الترجمة التي قام بها يوهانس دي كبوا اليهودي المتتصر في سنة ١٢٦٣-١٢٧٨ بعنوان "المرشد إلى الحياة الإنسانية" ومن ثم انتشرت في أوروبا انتشاراً واسعاً.
- ٢- ورحلات السندباد ترجمت إلى العبرية بعنوان "مشليه سندباد" وانتشرت في أوروبا بعنوان: "الروساء الحكماء السبعة" وقد ترجمت إلى اللاتينية ترجمة لا تزال محفوظة في العديد من المخطوطات، وقد نشرها هلكا Hilka.
- ٣- ثم قام بطرس ألفونسو في أوائل الثاني عشر الميلادي بترجمة مجموعة من القصص العربية وضمها كتابه "تعليم الكتاب" باللاتينية، ويتضمن أربعاً وثلاثين قصة، أصبحت فيما بعد تدرج في كتب القصص اللطيف في أوروبا كلها. وقد ثبت من بحث الباحثين أن ثلث هذه القصص مترجم عن العربية، وجامعها نفسه بطرس ألفونسو يقرر أنه استمد شطراً منها من العربية لكنه لم يحدده. فقام الباحثون بتحديد ذلك. فجوزف بدييه اهتدى إلى الأصول العربية لأربع منها: "حكاية الصديق غير الصدوق"، و"حكاية صاحب الكروم"، و"حكاية الكلبة الباكية"، و"الفلاح والطائر". وجاء باسيه في كتاب حافل بعنوان "ألف قصة وحكاية وأسطورة" (في ثلاثة أجزاء سنة ١٩٢٤-١٩٢٧)، فأرجع عدداً كبيراً من قصص "تعليم الكتاب" هذا إلى أصول عربية، وهي "الشاعر"، "الأحدب" "الينبوع"، "الأعمى وزوجته ومناقسه"، "الصناديق العشرة"، "كيس النقود المفقود"، "اللس و ضوء القمر".
- وقصة الكلبة الباكية خلاصتها أن عجوزاً أقنعت سيدة كريمة أن كلبتها - وكانت تجعلها تبكي بواسطة فطائر محشوة بتوابل حريفة - إن هي إلا بنتها وقد تحولت إلى كلبة لأنها هجرت حبيبها. واعتقدت السيدة صدق ذلك. وقد ترجم هذه القصة اشتيهوفل (المتوفى حوالي سنة ١٤٨٢) وباولي (المتوفى حوالي سنة ١٥٣٠)، وجاء الشاعر الألماني هانز ساكس (١٤٩٤-١٥٧٦) فوضع قصة على قالبها.



- ٤- وفي القرن الرابع عشر في أسبانيا وضع خوان مانويل (١٢٨٢-١٣٤٩) ابن أخي ألفونسو الحكيم مجموعة من القصص القصيرة بعنوان "كتاب بترونيو أو كوند لوكانور" الذي فرغ منه في سنة ١٣٣٥، وصلة الوصل بينها هي شخصية لوكانور، وهو كوند شاب غير مجرب، ثم معلمه بترونيو الذي كان يلقي بالشكوك، ويقوم هذا بحلها بواسطة حكاية قصيرة. والحكايات، وعدتها أربع وخمسون، متنوعة أشد التنوع، ومصادرها عديدة، وصار لها فيما بعد تأثير واسع، ليس فقط في الأدب الأسباني، بل الأوروبي كله، خصوصاً عند بوكاتشيو في "الديكاميرون" (العشرة أيام) الذي بدأ تأليف قصصه سنة ١٣٤٨. والأثر الإسلامي في هذه المجموعة واضح جداً حتى في اسم الكوند وهو "لوكانور"، إذ أن هذا الاسم تحريف لاسم "لقمان" الحكيم الذي تنسب إليه حكايات عديدة جداً في الأدب القصصي العربي. ومن بين الحكايات المأخوذة عن العربية فيها حكاية "التاجر الذي عاد من الغربية" وتتضمن مغزى حكاية عطيل، الذي استوحاها شكسبير فيما بعد في مسرحية "عطيل" المشهورة. غير أنه يلاحظ أن خوان مانويل كان ينهي الحكايات بنهايات سعيدة، في حين أن أصولها العربية كانت تنتهي بخواتم فاجعة.
- ٥- وهناك مجموعة أخرى بعنوان "أعمال الرومان" لا يعرف لها جامع ولا مكان تأليف، على وجه التحقيق. والكثير من الحكايات والأساطير الواردة بها من أصل عربي: من "كليلة ودمنة" ومن حكايات أصلها عربي في مجموعة "تعليم الكتاب" الذي أشرنا إليه من قبل.
- ٦- وفي إيطاليا إلى جانب الأصول العربية للقصص الواردة في "الديكاميرون" لبوكاتشيو، والتي لم تنل حتى الآن حظها من عناية الباحثين، نجد أولاً مجموعة قصصية عنوانها "الليالي الممتعة" من تصنيف استربرولا وفيها مشابه عديدة مع قصص عربية، خصوصاً قصص "ألف ليلة وليلة". كذلك ألف بازيل مجموعة قصص بعنوان "الأيام الخمسة" فيها يروى قصصاً كانت تتناقل شفاهاً في إقليم نابلي وأخرى في أفريطش، وهي قصص تركية الأصول، وهذه بدورها عربية الأصل. وبعض الأساطير التي حيكت حول الكبار الملوك في أوروبا ترجع في تركيبها إلى أصول إسلامية. ونذكر هنا مثالين. الأول الأسطورة التي حيكت حول الإمبراطور فردريك الثاني، ملك

صقلية، وخلّصتها أنه لم يمت، بل هو ينعس في جبل أتنا، والذي يوجد في البركان المشهور. وهذه الحكاية مأخوذة عن اعتقاد فرقة الكيسانية التي تزعم أن محمد بن الحنفية، "حي بجبال رضوى، أسد عن يمينه، ونمر عن شماله، يحفظانه، يأتيه رزقه غدوة وعشية إلى وقت خروجه" (مقالات الإسلاميين للأشعري، ج ١ ص ٩٠، القاهرة سنة ١٩٥٠) وفيه يقول الشاعر كثير صاحب عزة:

وسبط لا يذوق الموت حتى \*\*\* يقود الخيل يقدمها اللواء  
تغيب لا يرى فيهم زمانا \*\*\* برضوى، عنده عسل وماء

والثاني هو فردريك الأكبر والأسطورة التي صيغت حول ما جرى له مع صاحب طاحونة صان سوسي. فقد ثبت من البحث الذي قام به ل. شنيدر أن الحكاية المشهورة التي تقول إن فردريك الأكبر ملك بروسيا في القرن الثامن عشر لما أراد أن يبني قصره المشهور في بوتسدام سنة ١٧٤٥ وجد في المكان الذي عنده سيبنى القصر طاحونة. فأراد شراءها وهدمها ليوسع في المكان. فرفض صاحبها الطحان جريفنتس ولم يستطع الإمبراطور الاستيلاء عليها عنوة - نقول إن شنيدر أثبت أن الواقع لم يكن كذلك. وإنما الصحيح هو أن الطحان لم يرث الطاحونة عن أجداده، وإنما بنى الطاحونة قبل البدء في بناء قصر الإمبراطور بوقت قصير، ولما تم بناء القصر رأى الطحان أن ينقل الطاحونة من مكانها لأن القصر حجب عنها الرياح وهي تدار بالرياح، فهو إذن صاحب المصلحة في نقلها لا الإمبراطور الذي كان على العكس من ذلك من ذلك يريد الإبقاء عليها تزيينا للمنظر المحيط بالقصر.

ولكن الأسطورة التي تألفت حول هذا الموضوع صورت الأمر بخلاف ذلك لتدل على المغزى المقصود وهو العدالة وأنها فوق الحكام والأباطرة مهما علا سلطانهم. والأسطورة بهذه الصورة أصلها شرقي. إذ تروى الكتب الإسلامية حكاية مماثلة تماماً عن كسرى انوشروان وبيت امرأة عجوز ملاصق لقصره لم يستطع الاستيلاء عليه لأن صاحبه رفضت أن تبيعه، فاضطر كسرى إلى جعل قاعة عرشه ملتوية البناء تجنباً لبيت هذه المرأة العجوز، وأبى عليه عدله أن يستولي على بيتها، وهو صاحب السلطان الأعظم وهي امرأة فقيرة لا حول لها ولا طول.

وقد روى هذه الحكاية ياقوت الحموي في "معجم البلدان" (ج ١، ص ٤٢٦ نشرة فستفلد) والقزويني في "آثار البلاد وأخبار العباد" (ج ٢، ص ٣٠٤).

ورواها الأبيشي في كتاب "المستطرف" فقال إن قيصر الروم أرسل رسولا إلى كسرى أنوشروان. وكانت له قاعة للعرش شهيرة بعظمة بنائها. ولما تأمل الرسول هذه القاعة لاحظ أن فيها انحناء. فسأل المترجم عن ذلك فقال المترجم أنه يوجد بيت تملكه امرأة عجوز لم تشأ بيعه، وهناك لم يشأ الملك إرغامها على بيعه. وأمر بترك البيت على حاله، وبناء قاعة العرش ملتوية لتجنب البيت، وأن هذا هو السبب في الإلتواء البارز فيها. فقال رسول قيصر: أن هذا الإلتواء أجمل مما لو كان الجدار مستقيماً، وما صنعه الملك أمر عظيم لم يسمع بمثله من قبل ولن يسمع بمثله من بعد.

وهذه الحكاية نقلها على هذه الصورة كرسثوفورس ليمان (المتوفى سنة ١٦٣٨). ومن هنا عرفت في أوروبا، وكانت الأساس في أسطورة فريدرك الأكبر وطاحونة صان سوسي.

الغرب الفيلسوف في القرون الوسطى وأستاذية الفلسفة الإسلامية (٣٢) :

دور المسلمين في تكوين الفلسفة الأوربية في العصور الوسطى دور مزدوج: دور الرسول الحامل لهم رسالة اليونان في الفلسفة، ودور الفاعل المؤثر بما ابتكر وأنشج. فعن طريق المسلمين عرفت أوروبا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر مؤلفات أرسطو وقطعاً من فلسفة أفلوطين وأبرقلس، ومعالم من فلاسفة أفلاطون. إذ قام المترجمون في طيطلة وفي صقلية، وهم الذين تحدثنا عن نشاطهم في مستهل هذا البحث، بترجمة كتاب "البرهان" من منطق أرسطو أعني "التحليلات الثانية"، و"السماء والعالم"، و"الكون والفساد" و"السماع الطبيعي" و"الأثار العلوية"، كما ترجموا كتاب "الخبر المحض" المنسوب إلى أرسطو، وهو في الحقيقة فصول منتزعة من "إلهيات" أبرقلس.

وعن هذا الطريق عرفت أوروبا أرسطو وأبرقلس، فكان لهما أثر هائل في إخصاب الفكر الأوروبي الذي سرعان ما خضع لفلسفة أرسطو خضوعاً تاماً.

وأعمق من هذا أثراً بكثير، أثر الفلاسفة المسلمين أنفسهم في أوروبا لما أن ترجمت بعض مؤلفاتهم إلى اللاتينية، وبعض اللغات الأوروبية الحديثة الناشئة. فترجم يوحنا الأسباني "منطق" ابن سينا، وترجم جونديسالفي (غنصاليه) بمساعدة يوحنا الأسباني قسم "الطبيعيات" من كتاب "الشفاء" وقسم "النفس" و"الإلهيات" من "الشفاء" لابن سينا أيضاً، كما ترجموا "مقاصد الفلاسفة" للغزالي. ومن ناحية أخرى ترجم جيراردو الكريموني جملة رسائل للكندي منها رسالة في العقل ورسالة الجواهر الخمسة، كما ترجم - فيما يبدو - رسالة "في العقل" للفارابي.

فلما ترجمت هذه الكتب ظهر أثرها في الحال. وكان طبيعياً أن يظهر أول ما يظهر على شيخ المترجمين وهو جنديسالفي. فقد ألف كتباً نجد فيها لأول مرة آثار الفلسفة الإسلامية. ففي كتابه "تقسيم الفلسفة" نجد أنه قد أضيف إلى ربايع العلوم التي كان القوم في أوروبا لا يعرفون غيرها: الطبيعيات، والنفس، وما بعد الطبيعة، والسياسة، وتدبير المنزل أو الاقتصاد. وفي كتابه الرئيسي، وهو "صدور العالم" يفسر المؤلف كيفية نشأة الكون على النحو الذي بينه ابن سينا في إلهيات "الشفاء" وابن جبرول في "عين الحياة"، كما تأثر ابن سينا أيضاً في كتابه "في خلود النفس"، وبدأ تأثير أفلوطين والأفلاطونية المحدثة يظهر في كتابه "في التوحيد".

وقد أنتج الإسلام عدداً كبيراً من كبار الفلاسفة الذين تميز جهدهم الفكري بتقبله لمشكلات الفلسفة اليونانية ومنهجها<sup>(٣٣)</sup>.

ولما بدأت عقول ممتازة في قراءة آثار الفلاسفة المسلمين بدأت النهضة الحقيقية للفكر الفلسفي الأوروبي، وذلك في القرن الثالث عشر. فأحدث ابن سينا أولاً تأثيراً عميقاً واسعاً، خصوصاً إلهياته، المتأثرة بأرسطو والأفلاطونية المحدثة معاً، والتي يفسر فيها الكون ابتداء من الأول الذي يصدر عنه العقل الثاني، ثم الثالث وهكذا حتى العاشر، وهو العقل الذي يؤثر في الإنسان مباشرة. فهذا التصوير لصدور العالم عن الله الواحد هو الذي سيعتقه الفلاسفة الأوروبيون، بدلا من التصوير الوارد في التوراة والذي كان سائداً حتى ذلك الحين.

فلنستعرض الآن كبار الفلاسفة الأوروبيين في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين، لنرى أثر الفلاسفة المسلمين فيهم.

٣٣- توبي هف: فجر العلم الحديث، ترجمة محمد عصفور، سلسلة عالم المعرفة، أغسطس ٢٠٠٠ سنة، عدد ٢٦٠، ص ٨٣.

فأولهم هو البرتس الكبير (سنة ١٢٠٧-١٢٨٠) الذي درس ما ترجم إلى اللاتينية من مؤلفات الفلاسفة المسلمين دراسة عميقة، وكاد أن ينقل عنهم كل نظرياته الرئيسية في الفلسفة، وإن لم يستطع أحياناً الجهر بذلك خوفاً من السلطات الدينية.

فقد أخذ عن ابن سينا القول بأن النفس جوهر عقلي، وأن كونها صورة للجسم ليس تحديداً لماهيتها، بل هو وظيفة من وظائفها، وأنها تستضيء من إشراق العقل الفعال عليها، وهذا العقل الفعال متصل بالعقل العاشر الذي هو عقل فلك القمر. كما أخذ عن ابن سينا نظرية الواحد وصدور العقول عنه. وفضلاً عن ذلك فإنه في إدراكه وفهمه للفلسفة الأرسطية، إنما اعتمد كل الاعتماد على الفارابي وابن سينا وابن رشد.

وإذا ما انتقلنا من البرتس الكبير، إلى أكبر الفلاسفة الأوروبيين في القرن الثالث عشر، وهو القديس توما الإكويني وجدنا آثار الفلسفة الإسلامية أعمق وأنضج، وإن كانت أخفى في الظاهر لأنه لم يكن يذكر مصادره، بعكس البرتس الكبير الذي كان يشير غالباً إلى المصادر التي نقل عنها، أما توما فلا يذكر إلا أسماء الذين ينقدهم.

وأول شيء يظهر فيه تأثير الفلاسفة المسلمين في القديس توما هو البراهين التي أوردها لإثبات وجود الله بطريق العقل. فالبرهان الثالث من بين براهينه الخمسة - وهو أقواها إنما أخذه من الفارابي وابن سينا، ويقوم هذا البرهان على أساس تقسيم الوجود إلى واجب وممكن. والممكن لا يمكن أن يستمر في حال الإمكان إلى غير نهاية، بل لا بد من موجود واجب الوجود تنتهي إليه الممكنات، وهذا الكائن الواجب الوجود هو الله، فإن الممكن هو الذي يوجد ثم يفسد، وهو الذي وجد أو سيوجد، وكان من الممكن ألا يوجد، أما الواجب فهو الذي لا يمكن إلا أن يكون موجوداً. والممكن لا يستطيع بنفسه أن يفسر وجوده، إذ لو لم يوجد إلا ممكنات، لأمكن ألا يوجد شيء. فلكي يوجد شيء كان لا بد أن يكون هناك موجود واجب الوجود، وهذا الواجب الوجود هو الله.

وكان هذا البرهان عمدة البراهين لإثبات وجود الله. وهو نفس البرهان الذي عرضه الفارابي في كتابه "آراء أهل المدينة الفاضلة"، وعرضه ابن سينا في الهبات كتابيه "النجاة" و"الشفاء". ومن الثابت بيقين أن توما قد قرأ ابن سينا

والفارابي لأنه يشير إلى مؤلفاتهما هذه صراحة. فمن الثابت بيقين أيضاً أن توما إنما أخذ برهانه الرئيسي على وجود الله من الفارابي وابن سينا. كذلك أخذ القديس توما فكرة ضرورة الوحي الإلهي عن الفلاسفة المسلمين. فقد ذكر في المقالة الثالثة من شرحه على كتاب "الأقوال" في رسالته عن "التثليث"، وفي رسالته عن "الحقيقة" أسباباً ثلاثة لتبرير ضرورة الوحي الإلهي، لأنه بغير هذا الوحي لن يستطيع النجاة غير قليل من الناس، وبعد دراسة شاقة مجهدة لا يقوى عليها إلا القليلون، وبعد زمن طويل، فضلاً عما سيدخل عملهم هذا من أخطاء عديدة. فهذه الأسباب الثلاثة ذكرها ابن رشد في كتابيه "فصل المقال" وتقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال" ثم الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة". وعن ابن رشد أيضاً أخذ القديس توما مذهب في النقل والعقل، أي الصلة بين العقل الوحي، أو النظر والإيمان، فكلاهما يقرر أن العقل يقدر على البحث عن الحق شيئاً فشيئاً، وكلاهما يعترف بعجز العقل أمام بعض الحقائق الإلهية، والاتفاق بينهما - كما بين ذلك أسين بلاثيوس - اتفاق في كل شيء: في الموقف العام الذي وقفه كلاهما من هذه المسألة، واتفاق في الآراء والأمثلة التي أوردها كلاهما، بل اتفاق أحياناً في العبارات التي يستعملها كل منهما. ولا يمكن أن يكون اتفاقاً بالعرض ومن طريق توارد الخواطر، وإنما هو في الحقيقة نقل، أعني أن القديس توما أخذ هذه الآراء بحذافيرها من ابن رشد.

وهذا يفضي بنا إلى التحدث عن تأثير هذا الفيلسوف العظيم، ابن رشد، وهو تأثير لا يجاريه فيه أي فيلسوف مسلم آخر؛ لأننا لا نستطيع مثلاً أن نتحدث عن فارابية أو سيناوية لاتينية، ولكننا نجد في مقابل ذلك رشدية لاتينية قوية جداً توافر لها أنصارها في أوروبا طوال أكثر من قرنين من الزمان.

وقد بدأت حركة الرشدية اللاتينية، أي اتباع ابن رشد من الأوربيين منذ أن ترجم ميخائيل اسكوت شروح ابن رشد على مؤلفات أرسطو في الفترة الواقعة بين سنة ١٢٢٨ و ١٢٣٥ ميلادية، لما أن كان فلكياً في بلاط فريدريك الثاني في بالرمو بصقلية. وتزعمها سيجر البرابنتي (سنة ١٢٣٥ - سنة ١٢٨١ أو ١٢٨٤م) الذي رأى في مذهب ابن رشد الحقيقة نفسها، لكنه لم يتردد أيضاً في أن يؤول هذا المذهب تأويلاً خاصاً في بعض الأحيان. وأهم ما أخذه أو أوله سيجر في مذهب ابن رشد هو القول بوجود حقيقتين: إحداهما نتأدى إليها من العقل والبرهان

المنطقي؛ والأخرى نتأدى أو بالأحرى نتلقاها من الوحي والإيمان، الأولى هي الحقيقة الفلسفية، والثاني هي الحقيقة الدينية؛ وابن رشد كان صريحاً في موقفه هنا عند تعارض كلتا الحقيقتين: فقد رأى وجوب تأويل ما أتى به الإيمان كيما يتفق مع ما قضى به العقل، أما سيجر البرابنتي فلم يكن صريحاً إلى هذا الحد الجريء، بل اضطر إلى القول بازدواج الحقيقة فأمن بالحقيقة الدينية بوصفه مؤمناً متديناً، وأيقن بالحقيقة الفلسفية بوصفه فيلسوفاً.

وقال سيجر أيضاً كما قال ابن رشد بقدّم العالم، أي أن العالم ليس مخلوقاً في الزمان، بل هو قديم قدم البارئ نفسه. وأن الله يعلم الكلّيات، ولا يعلم الجزئيات، لأن العلم بالجزئيات أي بالتفاصيل يقتضي تغيير العلم الإلهي تبعاً لوقوع الأحداث. وليس العالم هو وحده القديم؛ بل أيضاً الأجناس والأنواع ومن بينها النوع الإنساني. والحوادث التي وقعت في الماضي ستقع أيضاً في المستقبل، أعني أن سيجر كان يقول بنظرية العود الأبدي، أي عودة الأحداث التي كانت من جديد وهكذا دواليك. كذلك قال سيجر بوحدة العقل الفعال فقال إن العقل الفعال واحد في الناس جميعاً، وليس لكل إنسان عقل فعال خاص به. ولما كان العقل الفعال هو الجزء الخالد في النفس الإنسانية، فإن الخلود ليس لكل نفس إنسانية، بل للعقل الفعال الواحد المنتشر في الإنسانية كلها. ومن هنا لم يكن يقول بخلود النفس. كذلك لم يقل بالعناية الإلهية فيما يتصل بأفعال الإنسان الفرد، بل إنما تتعلق العناية الإلهية بالعالم ككل، لا بأفراد بني الإنسان.

وعلى الرغم مما لقيته الرشدية اللاتينية من هجوم واضطهاد من جانب السلطات الدينية، في أواخر القرن الثالث عشر، فإنها استمرت تنمو وتنتشر وتكسب الأنصار طوال القرن الرابع عشر؛ فنجد جان دي جاندان (المتوفى سنة ١٣٢٨م) يخلص كل الإخلاص لمذهب ابن رشد؛ ويدافع عنه ضد القديس توما؛ لأن ابن رشد هو في نظره نصير الفلسفة الكامل المجيد. ونجد كذلك مارسيليو البادوفاني (المتوفى بين سنة ١٣٣٦ و١٣٤٣م) الذي طبق نظرية الفصل بين العقل والنقل على السياسة فطالب بالفصل بين الدين والدولة، وصرح بنظرية ازدواج الحقيقة، أي أن ثمت حقيقتين منفصلتين قد تتعارضان أحياناً، وهما الحقيقة الدينية، والحقيقة الفلسفية واستمر تأثير ابن رشد في نمو مطرد في بعض الأوساط الفلسفية: أما تأثيره بوصفه شارحاً لأرسطو فقد استمر حتى القرن السابع عشر.

وهكذا نرى أن المذاهب الفلسفية الرئيسية والتيارات الكبرى في الفكر الفلسفي الأوروبي في القرون من الثالث عشر حتى السادس عشر تدين بوجودها وآرائها الجديدة الأصيلة للفلاسفة المسلمين.

ويقول فردريك كومبلسون: قد (كانت الفلسفة العربية إحدى القنوات الرئيسية التي بواسطتها كان أرسطو كامل التقديم إلى الغرب).

أما جون باكوت كلوب (كلوب باشا ١٨٩٨-١٩٨٦) يتساءل بأن هل ((كان العرب آنذاك فقط الحاملين وراث ثقافة اليونان وروما. وبعدئذ أرجعوها إلى أوروبا؟ فقط جزئي لذلك. بالفعل هم عملوا على صون كتابة الإغريق القدماء ونقلوها عن أوروبا إلى داخل العربية لتكون تترجمت إلى اللاتينية. ومع ذلك فإنهم قد أضافوا سواء كان ذلك إسهاماً كبيراً أو قليلاً إلى الكل من المعرفة التي نقلت من خلال أيديهم)).

وكذلك جون لويس يقول: ((لقد أصبح أرسطوطاليس في غمار النسيان وعلى كل فقد كان خارج الدين. ولم يعرض فلسفته آنذاك إلا للفلاسفة العرب الذين حافظوا على الفلسفة حية ترزق في إسبانيا وشمال أفريقيا من القرن التاسع حتى القرن الثاني عشر في الوقت الذي كانت فيه أوروبا على درجة من البربرية والجهل جعلت من العسير عليها أن تتقبل الفلسفة)).

هذا وعن حركة الإصلاح الديني يقول الكاتب الإنكليزي لرك هارت (١٧٢٩م - ١٧٩٧م) بأن: في القرون الوسطى كان النظر إلى باطن الإنسان وما حوله من الأشياء الخارجية بين النوم واليقظة قد سدل عليه ستار نسجه الدين والوهم والتعصب الأعمى منع الإنسان أن يرى العالم على ما هو عليه وما كان يحس الإنسان بنفسه إلا كفرد من جيل أو شعب أو حزب أو أسرة أو ((طائفة)) وما كان يحس لنفسه بشيء من الشخصية ورفع ذلك الستار أيام النهضة فرأى من الممكن أن يفكر فيما حوله من الأشياء سواء كان حكومة أو أي شيء في العالم. كما رأى من الممكن أن يفكر في نفسه واعتقد أنه فرد ذو روح حساسة. وامتاز ذلك العصر بشعور الإنسان فيه بشخصيته المطلقة وبمعارضته للسلطة وذويها. وذهابه شوطاً بعيداً في اعتبار العالم كله وطناً له. وهذه دلائل أعظم رقي يصل إليه الناس في تقدمهم العقلي. وقد أعلت النهضة شأن الطبيعة الإنسانية والحياة الدنيوية مخالفة في ذلك طريقة التفكير في القرون الوسطى. ولذلك يسمى العلماء الذي خصصوا



أنفسهم لدراسة آداب اليونان والرومان عند القدماء ((الإنسانيين)) كما تسمى عقائدهم ومثلهم العليا ((الإنسانية)) وكان من خير ما أحدثه هؤلاء الإنسانويون ((نمو الفردية)) وهو الرأي القائل بأن الإنسان ينبغي أن يفكر بنفسه لنفسه وهو رأي كان قد أهمل في عصر عبودية العقل. أي عصر المدرسي.

الشاعر الألماني الكبير شلر واستلهامه القصص الإسلامي<sup>(٣٤)</sup> :

من أوائل الشعراء الألمان الذين تأثروا بموضوعات من القصص الإسلامي الشاعر الكبير فريدرش شلر (١٧٥٩-١٨٠٥).

فقد اثبت أمدروز في بحث له بعنوان: "رواية عربية لإحدى قصائد شلر القصصية" "مجلة الدراسات الشرقية" RSO ج ٣ (١٩١٠)، وجود أصل عربي للقصة الشعرية Ballade التي صاغها شلر بعنوان: "الذهاب إلى مصهر الحديد" وخلاصة هذه القصة الشعرية أنه كان خادم تقي يدعى فريدولين يخشى الله ويخلص في خدمة الكونتيسة فون سافرن Von Savern ويبدل كل ما في وسعه لإرضاء مطالبها، فرفعته فوق سائر الخدم، وكانت تمتدحه أمامهم باستمرار، حتى عدته بمثابة ابن لها. فغلا صدر روبرت، الصياد بالحسد عليه. وذات يوم وهو عائد مع سيده الكونت من رحلة صيد نفث سموم الدس والوقية في صدر سيده، بأن اتهم الكونتيسة بأنها تخونه مع فريدولين الخادم الأشقر. وصدق الكونت هذه الدسيسة وأمر خادمين بأن يذهبا إلى مصهر الحديد وينظرا هناك. وعليهما أن يلقيا في نار المصهر بأول شخص يرسله إلى هناك ويسألها: "هل أطعمت كلمة مولاي". وبعث روبرت الدساس بفريدولين إلى مولاه، فقال هذا له: "اذهب فوراً إلى مصهر الحديد واسأل خادمي هناك هل أطاعا كلمتي". ولكنه قيل ان يذهب توقف وتساءل لعل الكونتيسة في حاجة إلى شيء، وراح يسألها: "إنني أرسلت إلى الحديد، فهل أنت في حاجة إلى شيء، لاتي في خدمتك" فأجابته الكونتيسة قائلة: "بودي لو أستمع إلى القديس، لكن ابني مريض، فاذهب أنت يا ولدي. ورتل الدعاء وأد الصلاة من أجلي، وكفر عن خطاياك، حتى احظى بالنعمة الإلهية". ومضى فريدولين، ولم يكذب نهاية القرية حتى سمع قرع نواقيس الكنيسة وهي تدعو

٣٤- أنظر عبد الرحمن بدوي: الشاعر الألماني الكبير شلر واستلهامه القصص الإسلامي، من كتاب دور العرب في تكوين الفكر الأوربي.

المصلين. فدخل الكنيسة، ولم يجد بها أحداً لأن الوقت كان وقت الحصاد والناس في الحقول، ولكنه صمم على أن يخدم القسيس في القداس، وساعده عند المذبح، وأدى فروض الصلاة بدقة وإتقان، واستمر حتى فرغ القسيس من الصلاة. وأعاد كل شيء إلى مكانه، ثم غادر الكنيسة راضي الضمير، متوجهاً إلى مصهر الحداد وهو يتمم ببعض الدعوات الدينية. ولما بلغ المصهر وشاهد المدخنة والخدمين صاح: "هل تم ما أمر به الكونت؟" فأشارا إلى قاع الفرن وقالوا: "لقد تم ما طلبه، وسيمتدحنا الكونت". وعاد مسرعاً بهذا الجواب إلى الكونت، فلما رآه هذا قادماً من بعيد لم يصدق عينيه وصاح فيه "أيها الشقي! من أين أقبلت؟" فأجاب فريدولين: "من مصهر الحداد". فقال الكونت: "ابداً! لا بد أنك أبطأت في المسير". فقال الخادم: "تلبثت فقط المدة التي قضيتها في الصلوات، لأنني قبل أن أمضي لتنفيذ أمرك، رحلت لأسأل سيدتي عما إذا كانت تريد شيئاً، فأمرتني بالذهاب لسماع القداس. فأطعته أمرها، وتمتعت بالدعوات لنجاتها ونجاتك". فدهش الكونت كل الدهشة واضطرب وقال: "قل! ماذا كان جواب الخادمين هناك في مصهر الحداد؟" فقال فريدولين: "كان كلامهما غامضاً، لقد أشارا إلى الفرن ضاحكين وقال: "لقد تم ما طلبه، وسيمتدحنا الكونت". فقال الكونت متعجلاً: "وروبرت؟ ألم يلتق بك؟ لقد أرسلته إلى الغابة" فقال الخادم: "مولاي لم أجده في الغابة ولا في الحقول". فصاح الكونت: "الآن، الله في السماء قدر كل شيء!" ثم أخذ بيد الخادم متلفظاً معه، وأتى به إلى زوجته وهو في غاية التأثر، وهي لا تعلم عن الأمر شيئاً، وقال: "هذا الولد لا يوجد له نظير في الطهارة بين الملائكة وأوصيك برعايته، لقد أساءوا النصيح وأسأت الانتصاح، أما هذا فالله معه وملائكته".

والأصل العربي لهذه القصة الشعرية نجده في قصة أحمد اليتيم. وخلصتها أن رجلاً محسناً ربي في كنف رعايته يتيماً اسمه أحمد، وأوصى حين وفاته ابنه أبا الجيش برعاية هذا اليتيم. فوضع كل ثقته فيه. وذات يوم فاجأ أحمد اليتيم إحدى القيان وهي بين أحضان أحد الخدم، وخافت على نفسها، فعرضت نفسها على أحمد حتى لا يفضح أمرها، لكنه أبى فخافت وسيقت هي باتهامه. فأمر أبو الجيش أحد أتباعه بأن يطيح برأس الرجل الذي سيأتي ومعه قارورة لملئها بالمسك، لكن أحمد توقف في الطريق، فجاء الخادم الذي كان على صلة بالقينة وتولى حمل القارورة، فأطاح برأسه ذلك التابع المكلف. بذلك وهناك سأل أبو الجيش أحمد اليتيم عن

حقيقة تهمة الخادمة. فروى له الحكاية بتمامها فأمر بإعدام اللقينة هي الأخرى. والتشابه في الهيكل العام والمغزى واضح بين القصتين، ولا خلاف إلا في بعض التفاصيل. وشلر استمد مادة القصة من قصة وردت في "المعاصرات" لريتيف دي لابريتون (١٧٣٤-١٨٠٦). وثم قصيدة أخرى لشلر عنوانها: "الرهن" أو "الضمان" تقوم على الوفاء في الصداقة حتى التضحية بالنفس. وخلاصتها أن دامون تسلك إلى مخدع ديونسيوس الطاغية، والحنجر مخبأ في ملابسه فانقض عليه الشرطة وقيدوه بالاغلال واقتادوه إلى الطاغية فصاح هذا فيه: "ماذا تريد بهذا الخنجر؟" فأجاب دامون: "أريد تخليص المدينة من الطاغية". فقال الطاغية: "ستكفر عن هذا على الصليب" فقال دامون: "أنا مستعد للموت، ولا أطلب منك العفو، كل ما أسالك إياه هو أن تمنحني مهلة ثلاثة أيام حتى أجد لأختي زوجاً، وأترك صديقي رهينة، وتستطيع إعدامه، إذا أنا لم أرجع". فتضاحك الملك ماكراً ساخراً وقال بعد تفكير: منحتك هذه المهلة، فإذا انقضت قبل أن تعود تحمل هو العقاب بدلاً منك". وذهب دامون إلى صديقه وقال له: "أن الملك يطلب مني أن أدفع حياتي ثمناً لفعلتي المتهورة، لكنه رضي بأن يمنحني مهلة ثلاث أيام حتى أجد لأختي زوجاً. فكن رهينة عند الملك".

وتركه الملك يذهب، وقبل مشرق فجر اليوم الثالث كان قد زوج أخته ومضى مسرعاً قبل انقضاء المهلة، فمر بعقبات شديدة ومصاعب: من أنهار وسيول وجبال، وأوشكت الشمس على المغيب حين شاهد أبراج مدينة سرقوسة. ولقيه في الطريق فيلوستراس، فتعرفه وقال له: "لن تستطيع إنقاذ صديقك! فانج بحياتك أنت، لأن صديقك يعالج القتل الآن". ولكنه استمر في طريقه، ولما بلغ باب المدينة وجد الصليب قد نصب، وتجمع الناس حوله، ورفع الصديق فعلاً بالحبلى إلى الصليب، فصاح دامون: "اشتقني أنا أيها الجلاد! فأنا الذي من أجله تشنق هذه الرهينة". فتلفت الناس متعجبين وشاهدوا الرجلين متعانقين. فأرسلوا عبراتهم ولم توجد عين لم تذرف الدمع في هذا الجمع الحاشد. فتجهروا وراحوا إلى قصر الطاغية رويوا له ما حدث. فقال الطاغية، بعد أن التمسوا منه العفو: "لكم ما طلبتم! لقد هجتم قلبي بالشفقة. ان الوفاء ليس كلمة جوفاء. فخذوني معكم إلى هذين الصديقين. ولأكن صديقهما الثالث". وفكرة الرهينة هذه ووفاء الصديق لها نظيرها في قصة كثيراً ما وردت في الكتب الإسلامية للدلالة على الوفاء. ومن بينها القصة التالية

التي رواها الأبشيهي في "المستطرف"، (طبع بولاق، ج ١، ص ٢٣٥ وما يليها)، قال: "وأما الوفاء بالعهد ورعاية الذمم فقد نقل فيه من عجائب الوقائع وغرائب البدائع ما يطرب السامع ويشنف المسامع، كقضية الطائي وشريك، نديم النعمان بن المنذر. وتلخيص معناها أن النعمان كان قد جعل له يومين: يوم يؤس من صادفه فيه قتله وأرداه، ويوم نعيم من لقيه فيه أحسن إليه وأغناه. وكان هذا الطائي قد رماه حادث دهره بسهام فاقتته وفقره، فأخرجته الفاقة من محل استقراره ليتزود شيئاً لصبيته وصغاره. فبينما هو كذلك إذ صادفه النعمان في يوم يؤسه. فلما رآه الطائي، علم أنه مقتول، وأن دمه مطلوب. فقال: "حيا الله الملك! إن لي صبية صغاراً، وأهلاً جباعاً. وقد أرقت ماء وجهي في حصول شيء من البلغة لهم. وقد أقدمني سوء الحظ على الملك في هذا اليوم العبوس وقد قربت من مقر الصبية والأهل وهم على شفا تلف من الطوى، ولن يتفاوت الحال في قتلى بين أول النهار وآخره. فإن رأى الملك في أن يأذن لي في أن أوصل إليهم هذا القوت، وأوصي بهم أهل المروءة من الحي لئلا يهلكوا ضياعاً، ثم أعود إلى الملك وأسلم نفسي لنفاذ أمره". فلما سمع النعمان صورة مقالته، وفهم حقيقة حاله، ورأى تلهفه على ضياع أطفاله، رق له ورثى لحاله. غير أنه قال له: "لا آذن لك حتى يضمّنك رجل معنا. فإن لم ترجع قتلناه" وكان شريك بن عدي بن شرحبيل نديم النعمان معه، فالتفت الطائي إلى شريك وقال له:

يا شريك بن عدي ما من الموت انهزام \*\*\* من لأطفال ضعاف عدمو طعم الطعام  
بين جوع وانتظار وافتقار وسقام \*\*\* يا أخا كل كريم أنت من قوم كرام  
يا أخا النعمان جُدلي بضمان والتزام \*\*\* ولك الله بأنّي راجع قبل الظلام

فقال شريك بن عدي: "أصلح الله الملك: عليّ ضمانه". فمر الطائي مسرعاً، وصار النعمان يقول لشريك: "إن صدر النهار قد ولى ولم يرجع"، وشريك يقول: "ليس للملك عليّ سبيل حتى يأتي المساء". فلما قرب المساء قال النعمان لشريك: قد جاء وقتك! قم فتأهب للقتل!" فقال شريك: "هذا شخص قد لاح مقبلاً، وأرجو أن يكون الطائي فإن لم يكن، فأمر الملك ممّتل". قال فبينما هم كذلك، وإذا بالطائي قد اشتدّ عدوه في سيره مسرعاً حتى وصل. فقال: "خشيت أن ينقضني النهار قبل وصولي". ثم وقف قائماً وقال: "أيها الملك! مر بأمرك!". فأطرق النعمان، ثم رفع

رأسه، وقال: "والله ما رأيت أعجب منكما! أما أنت يا طائي فما تركت لأحد في الوفاء مقاماً يقوم فيه، ولا ذاكراً يفتخر به. وأما أنت يا شريك! فما تركت لكريم سماحة يذكر بها في الكرماء. فلا أكون أنا ألام الثلاثة. ألا وأني قد رفعت يوم بؤسي عن الناس، ونقضت عادتي كرامة لوفاء الطائي، وكرم شريك". فقال الطائي:

ولقد دعتني للخلاف عشيرة فعددت قولهم من الإضلال

إني امرؤ مني الوفاء سجية وفعال كل مهذب مفضال

فقال له النعمان: "ما حملك على الوفاء، وفيه إتلاف نفسك؟" فقال: "ديني، فمن لا وفاء فيه لا دين له". فأحسن إليه النعمان، ووصله بما أغناه، وأعادته مكرماً إلى أهله، وأناله ما تمناه".

وبالمقارنة بين قصة شلر الشعرية وبين هذه القصة نرى الشبه التام حتى في أدق التفاصيل. فمن أين استقى شلر قصته؟ أثبت جرجر Gragger في مقال له "بمجلة الأدب المقارن" (سلسلة جديدة، ج ١٨ ص ١٢٠ وما يتلوها) أن شلر استمد مادة القصة من Krummachers . . Liebeskind . Herder . Palmblattern (ج ١ ص ٧٧) التي ظهرت سنة ١٧٨٦ في مدينة بينا. وبقي أن نثبت أن ما ورد في هذه قد أخذ عن مصدر إسلامي مثل الأبشيهي.

شهادات استشرافية أنصفت الحضارة الإسلامية<sup>(٣٥)</sup> :

لقد كانت العلاقات بين المسلمين وبلاد الغرب في العصور الخالية عدوانية في أغلب الأحيان فقد كان القوم يضطرمون حقداً وغيظاً وكرهاً للمسلمين الذين اقتطعوا من المسيحية أبهى مقاطعاتها ومهدوا وقد غدت الكنيسة الكاثوليكية في الغرب تغذية بالغة هذا الحقد، وصور المؤلفون الأوائل ورجال الكنيسة والتقاليد الشعبية الموروثة المسلمين على أنهم قتلة وثنيون مجرمون مدمرون لا أخلاق لهم ولا وازع يردعهم من ضمير أو أخلاق.

يقول الدكتور سعيد في كتاب الاستشراق "إن ما كان يشعر به المسيحيون تجاه الجيوش الإسلامية هو أنها تحمل مظهر سرب من النحل لها أيدي ثقيلة... تدمر كل شيء. هذا ما كتبه Erchembert الراهب في دير مونت كاسينو في القرن

الحادي عشر. ولقد نظر القوم في أوروبا إلى الإسلام على أنه تجسيد للربح والدمار، واتباعه على أنهم قبائل شيطانية من البرابرة المكروهين.

ولقد تعمدت الكنيسة أن تشوه صورة الإسلام والمسلمين عند اتباعها، كما وإن حقد الكنيسة ضد الإسلام تركز في شخص رسول الله عليه السلام. ولقد كانت أوروبا مهتمة بالرسول وبالإسلام، ولكنه اهتمام من نوع خاص، اهتمام قصده تصوير الرسول في العقل الغربي على أنه المسيح الدجال والنبي الكذاب ومؤسس اشنع وأقبح الفرق في تاريخ المسيحية.

ولقد أدت هذه الروح العدوانية والتعصب الأعمى وعداء الكنيسة، مع عوامل أخرى كثيرة إلى أن شنت الكنيسة الغربية حرباً مقدسة ضد الإسلام وفي بلادهم بقصد تدمير الإسلام واسترجاع البيت المقدس إلى أحضان الكنيسة، وهي الحروب المعروفة باسم الحروب الصليبية. وعلى الرغم من أن دوافع الحروب الصليبية لم تكن كلها دينية، إلا أن التعصب والكره والحقد هي التي غذتها طوال قرنين من الزمان.

ولقد مرت الحضارة الإسلامية في ثلاثة أدوار حتى تبلورت وظهرت شخصيتها وأمكنها أن تشع وتعطي الآخرين.

فأول هذه الأدوار هو دور قصير تميز بجمع القرآن الكريم في طرس واحد وضبط نصه وتوزيعه على الأمصار وذلك جسماً للخلاف بين مختلف الفئات. والقرآن كما هو معلوم هو أساس الحضارة الإسلامية ولبها وتمركز حوله عدد كبير جداً من الدراسات المبتكرة ولذلك فإن حفظ نص هذا الكتاب المقدس وتعميمه إرساء للأساس الصلب للحضارة الإسلامية.

أما الدور الثاني فهو دور نقل التراث الهيليني والفارسي والسرياني إلى اللغة العربية وقد تم ذلك على مدى قرنين من الزمان وأكثر. كما رافق هذا الدور جمع للتراث العربي من شعر ونثر ومعاجم ولغة وأنساب وقصص وأمثال وما شاكل. ويأتي الدور الثالث تنويعاً للدورين السابقين فيبدأ التأليف الأصيل في جميع فروع المعرفة بلا استثناء وفي طول البلاد الإسلامية وعرضها.

ومما يجب ملاحظته أن هذه الأدوار ليست منفصلة عن بعضها بحواجز زمانية أو مكانية وإنما هي متداخلة مع بعضها تداخلاً عجيباً.

وقد بلغت الحضارة الإسلامية ذروة مجدها وقمة نضوجها ابتداءً من القرن الرابع هجري واستمر الوضع كذلك حتى القرن السابع هجري وما بعده، بل قد استمر هذا التألق في بعض فروع المعرفة حتى القرن التاسع والعاشر هجريين. والذي ساعد على هذا الازدهار الحضاري هو انتشار التعليم انتشاراً واسعاً جداً، وتسامح المسلمين في نقل الكتب ولو كانت مخالفة لعقائدهم، وكذلك تسامحهم مع أهل الذمة حتى تعاون هؤلاء معهم عن طيب خاطر ورضا، كذلك كان لتشجيع الحكام على العمل والتأليف والنقل أثر طيب جداً وأمثال هؤلاء كثيرون كالمنصور والرشيد والمأمون وسيف الدولة الحمداني وآل سامان وغيرهم كثيرون. ومما ساعد على ازدهار الحضارة ورقيها إيجاد المؤسسات التعليمية لجميع المراحل بدءاً من الكتاب وانتهاءً مع الأكاديمية العلمية. وقد تأسست في العالم الإسلامي المعاهد والجامعات والكليات والمراسد والمكتبات الكبرى، وكلها كانت أماكن للبحث والدرس والتأليف الأصيل.

ولقد غمط كثير من مؤلفي الغرب الحديثين والمستشرقين هذه الحضارة حقها فوصفوها بأوصاف تكشف عن تعصبهم ضد الإسلام ومؤسساته الحضارية. على أن هناك نفرًا منهم درسوا هذه الحضارة دراسة وافية وأبدوا إعجابهم بها فيقول توماس أرنولد. كانت العلوم الإسلامية وهي في أوج عظمتها تضئ كما يضيء القمر فتبدد غياهب الظلام الذي كان يلف أوربا في القرون الوسطى. ويقول جورج سارتون في كتابه مقدمة في تاريخ العلم: إن الجانب الأكبر من مهام الفكر الإنساني اضطلع به المسلمون، فالفارابي أعظم الفلاسفة.. والمسعودي أعظم الجغرافيين والطبري أعظم المؤرخين.

كذلك يبدي تومبسون إعجابه بالعلم العربي "إن انتعاش العلم في العالم الغربي نشأ بسبب تأثر شعوب غربي أوربة بالمعرفة العلمية العربية وبسبب الترجمة السريعة لمؤلفات المسلمين في حقل العلوم ونقلها من العربية إلى اللاتينية لغة التعليم الدولية آنذاك ويقول في مكان آخر: إن ولادة العلم في الغرب ربما كان أمجد قسم وأعظم إنجاز في تاريخ المكتبات الإسلامية.

هذا وقد أبدى الباحث اليهودي فرانز روزنتال إعجابه الشديد ودهشته البالغة لسمو الحضارة الإسلامية وسرعة تشكلها، ذلك أن ترعرع هذه الحضارة هو موضوع مثير ومن أكثر الموضوعات استحقاقاً للتأمل والدراسة في التاريخ. ذلك

إن السرعة المذهلة التي تم بها تشكل وتكون هذه الحضارة أمر يستحق التأمل العميق وهي ظاهرة عجيبة جداً في تاريخ نشوء وتطور الحضارة، وهي تثير دوماً وأبداً، أعظم أنواع الإعجاب في نفوس الدارسين، ويمكن تسميتها بالحضارة المعجزة، لأنها تأسست وتشكلت وأخذت شكلها النهائي بشكل سريع جداً ووقت قصير جداً، بحيث يمكن القول إنها اكتملت وبلغت ذروتها حتى قيل أن تبدأ.

وقد أشاد أحد الباحثين وهو روبرت بريفولت بالحضارة الإسلامية وخص العلم العربي فيها بهذه الإشادة "إن القوة التي غيرت وضع العالم المادي كانت من نتائج الصلة الوثيقة بين الفلكيين والكيميائيين والمدارس الطبية. وكانت هذه الصلة أثراً من آثار البلاد الإسلامية والحضارة العربية. إن معظم النشاط الأوربي في مجال العلوم الطبيعية إلى القرن الخامس عشر ميلادي كان مستقداً من علوم العرب ومعارفهم، وإنني قد فصلت الكلام في الدور الذي لعبته العربية في البقطة الأوربية، لأن الكذب والافتراء كانا قد كثرا في العصر الحاضر، وكان التفصيل لا بد منه للقضاء عليهما.



الفصل السابع  
أوروبا عصر النهضة



## الفصل السابع أوروبا عصر النهضة

الصعود إلى أسفل!!  
رابعاً: عصر النهضة<sup>(١)</sup> :

مباركة هي تلك العصور السعيدة التي لم تكن تعزف ضراوة أدوات المدفعية  
الشیطانية التي أنا واثق من أن مخترعها يثوى الآن في الجحيم  
دون كيشوت  
سرفانتس

أن إحياء التراث الغربي انطلاقاً من عصر النهضة كان يهدف إلى توظيف  
نزعته الإنسانية للدفاع عن قيم جديدة عن طريق الصراع بين الفكر الإقطاعي  
والكنيسة الكاثوليكية الحامية له وذلك بقيادة هذه الطبقة الجديدة، طبقة البورجوازية  
الناشئة التي جعلت من العودة إلى هذا التراث سلاحاً ضد النزعة الكهنوتية، وقيماً  
"تورية" للتمرد ضد القديم وترسيخ وعي جديد بالإنسان.

وأبرز ما خرج به عصر النهضة هو التنوير الذي كان من أقوى مظاهره  
احتدام الصراع بين طبقة العلماء والمفكرين والفلاسفة والكتاب والأدباء وبين  
الكنيسة.

وشهد عصر النهضة الحروب الطويلة والدامية التي دارت في الغرب بين  
الكاثوليك والبروتستانت والتي تجاوزت المناوشات أو التناقضات الثانوية إلى  
الاقتتال المروع.

١- مصطلح يطلق على فترة الانتقال من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة وهي القرون ١٤-١٦ ويؤرخ لها بسقوط  
القسطنطينية عام ١٤٥٣م حيث نزح العلماء إلى إيطاليا حاملين معهم تراث اليونان والرومان. كما يدل مصطلح عصر  
النهضة على التيارات الثقافية والفكرية التي بدأت في البلاد الإيطالية في القرن ١٤، حيث بلغت أوج ازدهارها في  
القرنين ١٥ و١٦، ومن إيطاليا انتشرت النهضة إلى فرنسا وإسبانيا وألمانيا وهولندا وإنكلترا وإلى سائر أوروبا. ازدهر  
شأن النهضة الإيطالية إذ وجدت لها أنصاراً يصرفون عليها المال الوفير، مثل أسرة ميديشي في فلورنسا وسوفرزا في  
ميلانو والبابوات في روما. بلغت النهضة ذروة عظمتها الثقافية في أواخر القرن ١٦. من أعظم شخصيات النهضة في  
الجمال الفني ليوناردو دافنشي ومايكل أنجلو وميكافيلي. كان لهذه الحقبة تأثير واسع في الفن والعمارة وتكوين العقل  
الحديث وعودة واعية للمثل العليا والأنماط الكلاسيكية. في هذه الفترة تم اكتشاف أراضي وشعوب جديدة حيث  
أتمت هذه الفترة بظهور طائفة كبيرة من الرحالة والمستكشفين والملاحين منهم الأمير هنري الملاح وكريستوفر  
كولومبوس وفاسكو دي كاما.

كما شهد الفصل بين السلطتين الدينية والدنيوية فان ذلك كان نتاجا لصراع ضد الكنيسة والسلطات التيقراطية الحاكمة من وراء ستار الدين وممارساتهما العنيفة ضد المعتقد الآخر والرأي الآخر وقد قادت هذا الصراع الطبقة البورجوازية الناشئة التي حملت لواء المثل الجديدة والتصور الجديد للعالم الرأسمالي الصاعد والآليات وطبيعة ممارسة السلطة فيه وإذا كانت الثورة الفرنسية في نهاية القرن ١٨ قد جسمت هذا الفصل الا أن إيرلندا لا تزال إلى اليوم مسرحا للعنف بين الكاثوليك والبروتستانت كما قامت عديد الأنظمة بالفصل بين الدين والدولة في أنحاء عديدة من العالم ومن حضارات مختلفة.

وقد انتج عصر النهضة كذلك ظاهرة الكشوف الجغرافية ومن ثم الاستعمار لفتح الدول بالقوة، فكانت الحروب بين الإمبراطوريات الاستعمارية وبينها وبين الشعوب المولّى عليها مروجاً في سبيل تحقيق هذه الأهداف قيم الحرية واحترام الذات البشرية وفصل الدين عن الدولة في صراعه ضد الإقطاع والكنيسة وإضفاء تبريرات "حضارية" لنزعه التوسعية خارج الحدود.

وكانت حرب المائة عام بين إنكلترا وفرنسا تجسيدا للصراع بين الأوربيين وكانت بشكل متقطع فيما بين العامين ١٣٣٧ - ١٤٥٣ ولم تكن سوى واحدة من صراعات عدة اجتاحت أوروبا وكانت تلك الحروب تصور بوضوح الكثير من التغيرات التي لحقت بالفنون الحربية وفيها ظهر البارود gun powder الذي أسقط الإقطاع والإقطاعي من أعلى قلعه الشامخة !! ليودع العصور الوسطى وإلى الأبد.

ويذكر الفيلسوف فرنسيس بيكون<sup>(٢)</sup> أن الطباعة والبارود والبوصلة قد غيرت صورة العالم كله وحالته.

أما المطبعة فقد وفرت للمدفعية ما ساعد على حشد الصفوف وتجميعها في أسرع وقت وأقل جهد كما كانت أداء فعالة في الهاب حماس الجماهير. وهكذا أصبحت أوروبا على عتبة ثورة عاتية في المجال العسكري سيحصد أرواح مئات الملايين من البشر واختفت تماماً مفاهيم العصور الوسطى عن القتال التقليدي وجهاً

٢- فرنسيس بيكون (١٥٦١-١٦٢٦) أحد أشهر رجالات النهضة الإنكليزية ونجحت شهرته في الفلسفة والسياسة وهو صاحب فلسفة الشك الديكارتي "أنا أخك إذن أنا موجود" من أعماله تقدم المعرفة، الأورجانون الجديد ودعا إلى الملاحظة العلمية والتجريب وتطوير ملكات العقل النقدية.

لوجه وتزايد دور رجال المدفعية ورماة البنادق وتضاعفت القوة البحرية اعدة دوا أوربية مثل هولندا وإنكلترا وأصبح هناك تزايد ملحوظ فى القوة والقدرة التدميرية للأعمال الحربية وظهرت الصبغة الاحترافية للجيش وتحسنت أساليب التدريب والتجديد.

وكانت هناك حرب الثلاثين عاماً ١٦١٨-١٦٤٨ وهى سلسلة من الحروب المنفصلة وصراعاً أوروبياً واسعاً أدت إلى مصرع ما يقدر بربع سكان أوروبا فى المعارك وامتلاء الفضاء الأوروبى بآثار الخراب والدمار وانتشر اليأس والقنوط. ولقد كانت حركة الإصلاح الدينى فيما بين القرن الخامس عشر والسابع عشر أعنف حركة دينية شهدتها التاريخ فقد أدت الخلافات الدينية إلى مشاحنات ومطاحنات واضطهادات كانت أشد ما عرف من نوعها فى تاريخ الأديان.

يقول المفكر و.ث. جونز ملخصاً فى دقة وتركيز الوضع الفكرى فى أوروبا فيما يعرف بعصر النهضة: "استحوذ الإنسان فى عصر النهضة بأهمية أكبر من الله، وأصبح الاهتمام بارتباط الإنسان ببني جنسه أكبر من الاهتمام بارتباط روحه بالله، واتخذ الإنسان الطبيعة والإنسانية هدفاً، عوضاً عما فوق الطبيعة والكمال الإلهي، وبات الأمر الأهم ما يحققه الإنسان فى دنياه، لا ما ينتظره فى العالم الآخر. ومطالب الإنسان فى هذه الدنيا إنما هي، عموماً، غنى شخصية الفرد، ونمو قواه العقلية، وقابلياته المعنوية، واستثمار مظاهر الجمال المتنوعة، والحياة المجللة بالنعم الدنيوية. وهكذا خرج الإنسان من كونه مرآة للمشينة الإلهية، ومظهراً ثابتاً للإنسان، ليصبح ميداناً لتجاذب قوى الطبيعة وصراعها. فلا مفرّ إذاً للإنسان من الالتحاق بحلبة التنافس هذه.

وتلك عقيدة كامنّة فى الوجدان الغربى وعقدة مترسبة فى فكر الغرب وثقافته، ومن الطريف أنه فى عصر النهضة أصبحت الموسيقى العسكرية جزءاً عضوياً من الجيش باعتبارها بالغة التأثير فى إثارة الشهوة إلى الدماء!!!





## الفصل الثامن العصر الحديث





## الفصل الثامن

### العصر الحديث

#### خامساً: العصر الحديث (الاستعمار والصهيونية والحروب العظمى) :

عليك أن تنبطح دائماً وتحمل حملك وتزحف ولا تتم الا قليلاً وتمدد بلا راحة وتحمل الجوع والعطش ورعشة البرد والذهاب إلى أى مكان متأهباً للقاء مصيرك أو حظك !!!  
لقد كان الصراع المتأصل فى الفكر الأوربى على المدى الزمنى الطويل وتواصل فى الحروب الإيطالية والحروب الألمانية<sup>(١)</sup> .

لقد طرحت فكرة (الصراع للحياة) فى القرن التاسع عشر فى أوروبا والتي حُلّت فى نظرية داروين مكان النظريات السالفة عن التوافق الطبيعى، وساد فى الأوساط العلمية والفكرية الاعتقاد فى وجود كثير من الصراع حتى فى الطبيعة، وأن هذا الصراع هو من سمات الطبيعة. والفكرة الأساسية التي تركز حولها الفكر الأوروبي هي أنه لا وجود لتشابه كامل بين الطبيعة والمجتمع، فهناك الكثير من الصراع فى المجتمع، ولكن الصراع بين الناس ليس من أجل الوجود، ولكنه من أجل تحقيق فرص أفضل للاستمتاع والارتقاء.

#### الكشوف الجغرافية (تهديد الاستعمار) :

قلبت الكشوف الجغرافية استراتيجية العالم القديم من صميمها وقفز الاستعمار من عالم متناه إلى عالم لا متناه، وبعد أن كان محلياً أو إقليمياً أصبح عالمياً كوكبياً تماماً<sup>(٢)</sup> .

وبعد أن كان العالم يتألف من يابس واحد ومحيطين اثنين، أصبح يتألف من محيط واحد ويابس متعدد<sup>(٣)</sup> .

وبعد فشل الحروب الصليبية، بقي الأوربيون يبحثون عن أرض جديدة قادرة على استيعاب طموحاتهم وأطماعهم. فبدأت حركة استكشافات جغرافية واسعة. لقد

١- لمزيد من التفاصيل أنظر عبد الحميد البطريق: التيارات السياسية المعاصرة، دار الفكر العربى، ١٩٩٩ عبد العزيز محمد الشناوى: أوروبا فى مطلع العصور الحديثة، ج ١، ط ٣، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٧.

٢- حمدان: نفس المرجع، ص ٥٧.

٣- نفسه، ص ٥٨.

كانوا يبحثون عن خيار آخر غير أوروبا التي ضاقت بهم، وضاقت إمكاناتها فأصبحت الحروب هي لغة التعامل في التنافس على الثروات والموارد الطبيعية والأراضي. وأصبح البحث عن أرض جديدة بمثابة الحل الأمثل للمشاكل التي تعانيها القارة الأوروبية، والصراعات السياسية، والأزمات الاقتصادية، والخلافات المذهبية والاضطهاد الديني.

وعندما بدأت أوروبا نهضتها العلمية والصناعية والحضارية وكانت في حاجة إلى المواد الأولية الخام لتغذية مصانعها، كما أنهم أصبحوا بحاجة إلى أسواق تجارية لتصريف بضائعهم كان لا بد لهم أن يتعرفوا إلى البلاد التي تمتلك الثروات الطبيعية ويمكن أن تكون أسواقاً مفتوحة لمنتجاتهم. فكان الشرق الإسلامي والدول الأفريقية والآسيوية هي ملاذ هذه البلاد فنشطوا في استكشافاتهم الجغرافية ودراساتهم الاجتماعية واللغوية والثقافية وغيرها<sup>(٤)</sup>.

وفي عام ١٤٩٢ م تم اكتشاف أميركا، وتم كشف الطريق البحري من أوروبا إلى الهند حول رأس الرجاء الصالح ١٤٩٨<sup>(٥)</sup> واكتشفت أستراليا عام ١٦٠٦ م فكان بمثابة الحل الذي انتظره الأوروبيون قروناً. فأخذت موجات المهاجرين تتدفق على الأرض الجديدة، لكنهم لم يجدوا حضارة مزدهرة كما في الشرق، بل قبائل بدائية وشعوباً متأخرة، سرعان ما أبادوها، وليقيموا فيها إلى الأبد.

وقد حاول مؤرخو الغرب الاستعماري ومفكروه أن يقوموا بعملية بتر للمسيرة التاريخية من أجل إقناع العالم بحقيقة واهية، مفادها أن الحضارة لم يعرفها إلا العالم الغربي، واعتماداً على العقلية المادية التي يعتمد عليها الغرب في سلوكه ومواقفه، بدأت مجموعة من المواقف الحاكمة التي تبناها بعض أقطاب الحضارة الغربية ضد العالم الآخر. وصفق هيجل لما أسماه بانتصار الروح الأوروبية وعودتها إلى مجدها عند احتلال فرنسا للجزائر !!.

#### العنصرية:

كان القانون الأمريكي الذي ظل سارياً إلى عام ١٨٦٥ م ينص على حق الأمريكي في مكافئة مجزية إذا هو قدم لأي مخفر شرطة أمريكي فروة رأس هندي

٤- أنور محمود زلالي: زيارة جديدة للاستشراق، ط١، مكتبة الأنجلو المصرية ٢٠٠٦، ص ٣٨.

٥- عبد العزيز محمد الشاوي: أوروبا في مطلع العصور الحديثة، ج ١، ط ٣، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٧، ص ١٠٤.

أحمر!! على أساس أن جريمته تلك أيضا هو إنجاز حضاري يسهم في تنظيف البيئة من الأمم المتخلفة حضارياً وفكرياً وأنه تنظيف مشروع للأرض من (الريش) الذي تتورط في نشره الأمم غير المتحضرة.

ومنذ نشوء الولايات المتحدة، اعتمدت القوة المجردة من أي أبعاد أخلاقية الأسس المركزي في اقتلاع الجنس الهندي وإحلال المستوطنين البيض القادمين من أوروبا الاستعمارية.

وبمنطق القوة لا غير أصبح الموطن التاريخي للهنود الحمر وطناً للبيض الأوروبيين، بل إن هؤلاء المهاجرين توسعوا على حساب أراضي شعوب أخرى مثل المكسيك، والولايات المتحدة أنشأت كياناتها على أساس القوة فقط عبر الاحتلال والإبادة .. حتى الوحدة بين الولايات المتحدة تحققت أيضاً بفعل القوة عبر الحروب الأهلية الطاحنة. ولم يتوقف اعتماد فلسفة القوة عند حدود النشأة والتكوين، بل تعداه لتستمر هذه الذهنية لتحكم عقول معظم المؤسسين والمخططين الاستراتيجيين ابتداءً من جورج واشنطن مروراً بالمفكر الاستراتيجي جورج كينان صاحب استراتيجية احتواء الاتحاد السوفييتي وحتى كيسنجر.

وفي عام ١٨٤٦م احتلت جيوش الولايات المتحدة كاليفورنيا وتقول الإحصائيات إن عدد هنود كاليفورنيا في تلك السنة كان أقل من ربع ما كانوا عليه في عام ١٧٦٩م ومع ذلك فخلال العشرين سنة الأولى من احتلال هذه الولاية أريد ٨٠ بالمائة من هذا الربع بسبب نظام السخرة. إن ثروة الأمم التي أعطت السلطة السياسية لأصحاب مناجم الذهب والمزارع الأسطورية سرعان ما شرعت استعباد الهنود كسلاح غير مباشر، لإبادتهم كما تم قبل ذلك في كولورادو وغيرها من ولايات الذهب. ولأنه لا بد من يد عاملة رخيصة لاستثمار هذه الولاية الغنية، فقد نشطت تجاراً خطب أطفال الهنود. وكانت الشاحنات المحشوة بأطفال الهنود، تهوي في الطرقات الريفية الخلفية إلى أسواق العبيد في سكرامنتو وسان فرانسيسكو. ومع نقص عدد النساء في سنوات الاحتلال الأولى فقد زاد الإقبال على خطف الفتيات اللواتي يقدمن خدمة مضاعفة. وأدى ذلك إلى هرب معظم الأسر الهندية من منعزلاتها وأماكن سكنها التقليدية. أما شركات الخطف فقد تحولت إلى ميليشيات خيرية، إذ صار الخاطفون يقتلون الآباء ويشاركون الدولة في القضاء على عناصر الشغب وهكذا فقد اعتبر خطف الهنود وبيعهم مهمة نبيلة وعملاً أخلاقياً يتباهون به.

في أوائل ١٨٥٠م<sup>(٦)</sup>، وفي أول جلسة تشريعية لكاليفورنيا سنت الولاية قانون حماية الهنود الذي أضفى الشرعية على خطفهم واستعبادهم، واقتضت حماية الهنود بموجب الملحقات التي أضيفت إلى القانون عام ١٨٦٠م إجبار أكثر من عشرة آلاف هندي على أعمال السخرة، ولأن معظم الذين هربوا بأرواحهم وفراخهم إلى الغابات والجبال الوعرة صاروا يعيشون في ما أصبح يسمى بأمالك الولايات المتحدة، فقد تحولوا بموجب قوانين الذين سرقوا بلادهم إلى لصوص معتدين على أملاك الغير!!

ولم تمض سنة على صدور قانون حماية الهنود حتى ضاق حاكم الولاية بيتر بيرنت ذرعاً بحمايتهم وعبر عن الحاجة إلى إبادة هذا الجنس اللعين، ووجه رسالة إلى المجلس التشريعي قال فيها إن الرجل الأبيض الذي يعتبر الوقت ذهباً، والذي يعمل طول نهاره ليبني حياة سعيدة لا يستطيع أن يسهر طول الليل لمراقبة أملاكه ... ولم يعد أمامه من خيار سوى أن يعتمد على حرب إبادة. إن حرب الإبادة قد بدأت فعلاً، ويجب الاستمرار فيها حتى ينقرض الجنس الهندي تماماً. إن إبادة حضارة المايا والأزيتا والبهواتن وغيرها ليست تهمة ينفها الأمريكيون، إنها جزء من كفاحهم المقدس في بناء أمريكا قوية وعادلة و(جاهزة) لمحاسبة سوريا على أساس المثل الأخلاقية لياها.

ونستحدث عن الفظائع التي ارتكبتها الأمريكيون إبان قيامهم بالمواجهة الدامية مع سكان الأرض الأصليين حيث تمت إبادة ما مجموعه ١١٢ مليون إنسان كانت ترتسم على وجوههم ضحكة الحياة وذلك ببساطة من أجل قيام العالم الجديد، وتم تسجيل ٩٣ حرباً جرثومية شاملة خاضها الأمريكيون بغرض إبادة ذلك الشعب البرئ، أما تلك القلة الضئيلة المشاغبة من الهنود فقد حفروا قبورهم بأيديهم في حروب متكافئة شريفة شفاف (مبررة) وفق المنطق الاستعلائي الأمريكي وأن الهنود (الآثمين) كانوا هم مسئولين عن إضرار نارها وحصد أضرارها، أو أنهم ماتوا قضاءً وقدرًا بالأمراض التي حملها الأوروبيون معهم دون قصد!!

إن دراسات محايدة غير قليلة تشير إلى أن الهنود كانوا ينتشرون في مساحة تزيد على مساحة أوروبا بنصف مليون ميل، وأن المؤرخ الأمريكي قام باختزال

العدد عن سابق إسرار وتصميم من عدد يزيد عن مائة مليون إلى مليون أو مليونين على أكثر تقدير عند وصول الغزاة الأوربيين وهو رقم تم حسمه في إحصاء ١٩٠٠ بأنهم يبلغون مليون فقط.

واستأنفت أوروبا وأمريكا بعد ذلك تاريخ الصراع عندما تفجرت الثورة الملاحية من الجزيرة الأيبيرية وجرفت في طريقها الأندلس لتمتد شريطاً ساحلياً يطوق العالم الإسلامي من طنجة إلى جزر سيلان عبر رأس الرجاء الصالح. وفي القرن التاسع عشر تتوئب الجيوش الأوروبية لاقتسام ما تبقى من العالم الإسلامي المريض في حركة استعمارية لا تتوقف حتى تلك واحدة فواحدة.

#### الحركة الاستعمارية:

هناك ربط عضوى بين العنصرية والاستعمار أى أن الاستعمار يعنى دائماً الاستغلال والإذلال واضطهاد الآخرين وإهانة كرامتهم وهى جرائم لا يمكن تبريرها تبريرها.

ويرى الدكتور كمال سيد قادر أن العنصرية هى إيديولوجية هدفها الرئيسى هو تبرير الاضطهاد والهيمنة وحرمان الآخرين من حقوقهم الطبيعية وهى تستند إلى ادعاءات باطلة وغيبية بان الاختلافات فى العرق والأصل والمنشأ وحتى الدين تؤدى إلى تفوق جماعة على أخرى. وهى بذلك نظرية تقسم المجتمع البشرى على أساس هرمى تكون لها نتائج وخيمة على الشعوب والجماعات.

والعبودية وجرائم الإبادة الجماعية والغزوات الاستعمارية كلها شكل من أشكال ممارسة العنصرية، ومن أهم خصائص الأيديولوجية العنصرية هى قدرتها على التكيف وتغير جلداء، فهى مرة تعتمد على النظرية البيولوجية وإذا أثبتت هذه النظرية فشلها فهى تتحول إلى النظرية الاجتماعية وفى حالة فشل هذه النظرية أيضاً فهى تلجأ إلى الدين كأساس لتبرير نفسها كما هو الحال مع الحملات العنصرية الجديدة ضد المسلمين فى بعض بلدان الغرب.

ويجب أن نعترف هنا أيضاً بأن ظاهرة العنصرية هى ليست اختراعاً غربياً بل وجدت منذ قدم التاريخ ولكنها كأيديولوجية تحاول تبرير نفسها بطرق علمية مزيفة فهى من صناعة غربية صرف.

ولو نظرنا إلى تاريخ الفلسفة الغربية نرى بأن أكثرية فلاسفتها الكلاسيكيين من أرسطو<sup>(٧)</sup> إلى كانط<sup>(٨)</sup> كانوا عنصرين في كتاباتهم وآراءهم حتى المعروفين من بينهم بالتقدمية. فمثلاً كان الفيلسوف الثوري فولتير يعتقد بأن السود هم صنف من الحيوان والفيلسوف كانط نفسه يعتبر من آباء المنهج العنصري والقائمة طويلة جداً لتشمل فيخته (1762-1814) ودافيد هوم<sup>(٩)</sup> ومونتيسكو.

وليسست الموجة العنصرية الجديدة ضد المسلمين وشعوب الجنوب الا امتداداً لهذه الفلسفة العنصرية مهما تغيرت أشكالها وطرق تبريرها فان هدفها الرئيسي يبقى الهدف الاستعماري نفسه وهو الهيمنة على الشعوب ونهب ثرواتها.

والاستعمار كمصطلح سياسى يعنى الهيمنة وفرض إرادة طرف على طرف آخر عن طريق القوة او التهديد بها وهو أيضا امتداد لسيادة دولة ما لتشمل دول وشعوب اخرى. وكمصطلح اقتصادى يستهدف الاستعمار إلى الهيمنة الاقتصادية بكافة أشكالها.

ولما انتهت الحروب الصليبية بهزيمة الصليبيين وبعد سقوط الأندلس عمل الأسباب على متابعة إسقاط الدول الإسلامية والسيطرة على مقدراتها الاقتصادية والدينية لذلك عملوا على الإلزام بطرق حياتها وتركيب سكانها مما أدى إلى ازدياد نشاط المبشرون والمستشرقين والرحالة وقدموا إلى الغرب دراسة شاملة عن المجتمع الإسلامي ومواطن الضعف فيه وقد عمل بعض المستشرقين كمستشارين لوزارات خارجية دولهم وكقناصل وتجسسوا على المسلمين<sup>(١٠)</sup> كما هو الحال بالنسبة للمستشرق الفرنسي هانوتو الذي كان يعمل مستشاراً لوزارة الاستعمار

٧- أرسطو (٣٨٤-٣٢٢ قبل الميلاد) فيلسوف يوناني قدم كان أحد تلاميذ أفلاطون ومعلم الإسكندر الأكبر. كتب في مواضيع متعددة تشمل الفيزياء، والشعر، والمنطق، وعبادة الحيوان، والأحياء، وأشكال الحكم.

٨- إيمانويل كانط ١٧٢٤-١٨٠٤: فيلسوف ألماني، ولد في شمال ألمانيا عام ١٧٢٤ في عائلة فقيرة ومتواضعة. في سن السادسة عشرة دخل الجامعة ليدرس الفلسفة. وفي الثلاثين، حصل على شهادة الدكتوراه في الفلسفة، ثم عين أستاذاً في الجامعة نفسها.

٩- دافيد هوم ١٧١١-١٧٧٦م صاحب نظرية النفعية Pragmatism التي وضعها بشكل متكامل والتي تقول بأن "الملكية الخاصة تقلد تبعه الناس وينبغي عليهم أن يعمروه لأن في ذلك منفعتهم.

١٠- لمزيد من التفاصيل انظر: إدوارد سعيد: الاستشراق، محمد الأمين: الاستشراق في السيرة، زفروق الخلفية الفكرية، العقيلي: المستشرقون (٣ ج)، أنور زنتاني، زيارة جديدة للاستشراق.

الفرنسية<sup>(١١)</sup> وكذلك إدوارد هنري بالمر البريطاني الذي تعلم العربية وكان له نشاط علمي غزير وقام برحله إلى الشرق وقد استغلت الحكومة البريطانية المعلومات التي جمعها عن الطرق والمسالك الصحراوية واحتلت مصر ١٨٨٢ وقد رجع إليها اللورد اللنبي وقد إستعان بها في حملته الشهيرة من مصر إلى دمشق خلال الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨)، وهناك دور كبير قام به لورانس العرب الذي وصل إلى دمشق عام ١٩١٧ مع الجيش البريطاني وكان أول شيء قام به زيارة قبر صلاح الدين ونزع قلادة إعجاب كان قد وضعها على القبر الإمبراطور الألماني وليم الثاني في زيارة له للقبر، وأخذها معه إلى بريطانيا وما زالت حتى اليوم في المتحف الحربي البريطاني ومعها ملاحظة مكتوبة من لورانس تقول "لم يعد صلاح الدين بحاجة لها بعد الآن". وكان لورانس قد درس العربية في أكسفورد على يد مستشرق آخر مشهور هو ديفد جورج هوجارث. في تلك الفترة أيضا أسست بريطانيا "القسم العربي في هيئة الإذاعة البريطانية" عام ١٩٣٨، كما تأسس المجلس الثقافي البريطاني الذي فتح فروعاً في كثير من العواصم العربية بهدف نشر الثقافة البريطانية وإيجاد صلات مع الشعوب العربية على أوسع نطاق. كان الهدف العسكري من وراء هذه المؤسسات منافسة الإعلام الألماني والإيطالي الموجه للمنطقة العربية. بعد ذلك بسنوات أي عام ١٩٤٤ تأسس في القدس أهم مركز للمستشرقين البريطانيين في الشرق الأوسط، وهو المركز الذي سيكون له صيت كبير في العقود اللاحقة وسوف تثار حوله الشبهات والخلافات، إنه مركز الشرق الأوسط للدراسات العربية أو "ميكاس".

ولم يدم مركز ميكاس في القدس سوى أربع سنوات حيث تم نقله قبيل اندلاع حرب ٤٨ إلى لبنان وتحديداً إلى قرية شمالاً حيث أصبح يعرف باسمها، وهناك اشتهر وتكون اسمه والخبرات التي صار يعرف بها.

وهناك أيضاً المستشرق صمويل زويمر وهو من أبرز المستشرقين الأميركيين الذين خاضوا عملاً ميدانياً في منطقة الشرق الأوسط خاصة جنوب العراق ودول الخليج العربية، وهو المحرر للمجلة الإنكليزية الاستشرافية الشهيرة.

١١ - أنظر محمد نعناع الحميدوي: الاستشراق الغربي وتأثيراته على العالم الإسلامي والعربي، صحيفة كتابات، ١-٩-

(عالم الإسلام) وقد اشتهر بدوره الاستعماري وعدائه الشديد للإسلام. وله مؤلفات عديدة عن الإسلام في العالم، وعن العلاقات بين المسيحية والإسلام، منها كتاب "يسوع في إحياء الغزالي" وكتاب "الإسلام تحدٍ لعقيدة" صدر سنة ١٩٠٨م. وكتاب "الإسلام" وهو مجموعة مقالات قُدمت للمؤتمر التبشيري الثاني سنة ١٩١١م بمدينة "لكناو" في الهند. ويعتبر زويمر من أكثر المستشرقين توجّهاً نحو التتصير، وتقديراً لجهوده التبشيرية أنشأ الأميركيون وقفاً باسمه على دراسة اللاهوت وإعداد المبشرين.. وهكذا وجدنا مدي مساهمة المستشرقين في الور الاستعماري فكان منهم الرحالة والمبشرون والضباط ورجال الإدارة الاستعمارية واللغويون واللاهوتيون والأنثروبولوجيون ومؤرخو الحضارات والرومانسيون والأركيولوجيون، ورجال المخابرات والمؤرخون والاقتصاديون، ومتدربو الشركات وخبراء الأسواق التجارية والسياسيون<sup>(١٢)</sup> وذلك لكي تسيطر على الشعوب الخاضعة لسلطانها<sup>(١٣)</sup> مما مهد الأرض للاستعمار الغربي.

لقد أفاد الاستعمار من الاستشراق التقليدي، الذي كان بمثابة دليل له في شعاب الشرق وأوديته، بما قدمه إليه من معارف، فالمعرفة - كما يقول الدكتور محمد البهي-<sup>(١٤)</sup> تمنح القوة، ومزيد من القوة يتطلب مزيداً من المعرفة، فهناك باستمرار حركة جدلية بين المعلومات والسيطرة المتنامية"، ولم يهدأ لهم بال حتي استطاعوا السيطرة الاستعمارية الكاملة علي العالم الإسلامي من المحيط إلى الخليج، وسخروا الغرب لتنفيذ هذه المهام أفواجا عديدة من الباحثين في أوروبا، ووجههم للتخصص بالتراث الإسلامي، وأمن لهم إمكانات مادية وبشرية ضخمة، من أجل دراسة هذا التراث، واكتشاف الشعوب الإسلامية، لبسط سيطرته عليها وبدأت تتضح الأهداف الاستعمارية.. "بحيث أصبح الاستشراق في آخر الأمر أسلوباً غريباً لفهم الشرق، والسيطرة عليه، ومحاولة إعادة تنظيمه وتوجيهه.. والتحكم فيه. وباختصار صار هذا المفهوم يهدف إلى إخضاع الشرق للغرب، وأداة للتعبير عن التناقض والتباين بينهما.

١٢- رضوان السيد: مجلة الفكر العربي، العدد، ٣٩، ص ٧.

١٣- مالك بن نبي: إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، مطبعة دار البيان ١٩٧٠، ص ١١.

١٤- انظر: محمد البهي: الفكر الإسلامي في تطوره، مكتبة وهبة، القاهرة ط ٢، ١٩٨١.



وهذه الفكرة "مأخوذة من" ميشيل فوكو Michel Foucault <sup>(١٥)</sup> ، فأسست مراكز للبحث والتحقيق، ودور نشر، ودوريات، وكليات، ومؤسسات متنوعة، تخصصت بترائنا، ومجتمعاتنا، وتاريخنا، وعاداتنا، كانت تؤمن خدمات هائلة لوزارات المستعمرات في الدول الاستعمارية حتى أن تزايد الاهتمام بالتراث الإسلامي، وتحقيقه ونشره، وفهرسته، وترجمته، كان يتناسب طردياً بشكل ملحوظ، مع تفاقم ظاهرة الاستعمار في ديارنا، فيما كان يتراجع هذا الاهتمام في حالات انكفاء الاستعمار وتراجعه وانحساره. وهكذا اتجه الاستشراق المتعاون مع الاستعمار - بعد الاستيلاء العسكري والسياسي على بلاد المسلمين - إلى إضعاف المقاومة الروحية والمعنوية في نفوس المسلمين وتشكيك المسلمين في معتقداتهم وتراثهم، حتى يتم للاستعمار في النهاية إخضاعاً تاماً للحضارة والثقافة.

والاستعمار يختلف عن الإمبريالية <sup>(١٦)</sup> بحيث أن الإمبريالية هي وليدة القرن التاسع عشر وهي مرتبطة بالتراكم الرأسمالي حيث تبحث القوى الإمبريالية عن أسواق جديدة والهيمنة السياسية وهي لا تعتمد بالضرورة على الاحتلال المباشر كالاستعمار الذي هو أقدم من الإمبريالية بكثير.

هناك نظريات عدة حول أسباب نشوء الإمبريالية والاستعمار وأشهرها النظرية الاقتصادية حيث اعتبر لينين <sup>(١٧)</sup> الإمبريالية كأعلى مرحلة للرأسمالية ولكن الفيلسوف شومبيتر في كتابه "الإمبريالية والطبقات الاجتماعية" يقول بأن للإمبريالية أسباب متنوعة كالأنانية وحب الهيمنة على الآخرين والميل لاستعمال العنف والإثراء الغير المشروع.

١٥- شكري النجار: لم الاهتمام بالاستشراق، مجلة الفكر العربي، العدد ٣١، ص ٦٠ وما بعدها.

وفوكو: مفكر فرنسي شهير، ويعتبر من آباء المدرسة الفكرية، وهي اتجاه في العلوم الاجتماعية يدعو إلى الابتعاد عن النمطية في تحليل الظواهر الاجتماعية مدعياً أن ذلك يعيق إلى حد كبير آفاق المعرفة البشرية، ويسقط أوهام الناس على الظواهر. فوكو كان كاتباً متهجناً، يستند في كتاباته إلى كل أنواع المصنفات، والتاريخ، وعلم الاجتماع، والعلوم السياسية، والفلسفة، ولكنه يتجاوزها جميعها. وبالتالي فهو يضفي، عامداً، على أعماله قدراً من العالمية.

١٦- الإمبريالية: السياسة أو الأعمال التي تقوم بها دولة للسيطرة على دول أخرى أو على أراضٍ أخرى. وتتم مثل هذه السيطرة في الغالب بطرق عسكرية لأهداف سياسية واقتصادية.

١٧- فلاديمير أليش (إيانوف المعروف بلينين) (بالروسية Ульянов Владимир Ильич) (١٨٧٠-١٩٢٤م). ثوري روسي قائد الحزب البلشفي والثورة البلشفية ضد الإمبراطورية الروسية إبان حكم القيصرية ومؤسس المذهب اللينيني السياسي. كما يُعد لينين أول رئيس للإتحاد السوفيتي.

وبما ان الاستعمار هو الهيمنة عن طريق استعمال القوة فهي لا يتم الا من خلال شن حروب استعمارية وهي أشرس أنواع الحروب وأكثرها دموية في تاريخ الشعوب لأنها حروباً شاملة ضد الشعوب وليست ضد الجيوش فقط. فالاستعمار يحتل أرضاً ليبقى فيها وممارسة الهيمنة الشاملة على شعبها لذلك فان للاستعمار أهداف شاملة تشمل كل مجالات حيات الشعوب الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والدينية وآثار الهيمنة الاستعمارية على شعب ما هي في الواقع اوسع من هذه المجالات بكثير كما يقول فرانتس فانون الطبيب النفسي والكاتب الثوري الفرنسي الذي اشترك في ثورة الجزائر ضد الاستعمار الفرنسي، إذ يقول في كتابه "معدومي الأرض" بأن الاستعمار يخلق حالة نفسية معينة لدى أفراد الشعوب الخاضعة للهيمنة الاستعمارية تؤثر على التصرفات الشخصية لهذه الأفراد كازدياد معدلات الجرائم والفساد بأنواعه والأمراض النفسية والجسدية. ولكن الأضرار هذه لا تنحصر على جانب واحد بل تشمل كلا الجانبين. حسب رأى فانون فان الاحتلال هو إذلال للمحتل أيضاً بسبب الممارسات اللاإنسانية التي يمارسها ضد الشعوب الخاضعة لاحتلال. وخير مثال على صحة هذا القول هو العراق الحالي إذ ان سمعة أمريكا بعد ممارساتها اللاإنسانية ضد الشعب العراقي تضررت كثيراً في العالم وأمريكا تعاني حالياً من فقدان المصداقية واصبح اسم أمريكا في العالم الثالث رمزاً للاضطهاد والعنف والتعذيب خاصة بعد نشر صور فضائح سجن ابو غريب.

هل الحملات العنصرية ضد المسلمين هي بداية لحملات استعمارية جديدة واسعة ضد الشعوب الإسلامية؟!

والنهب كان، وما زال، هو الهدف الأول لأي استعمار. والرعب كان، وما زال، هو الأسلوب الأول لأي استعمار. والكذب كان، وما زال، هو خطة التضليل الأولى لأي استعمار. وهذه الشروط الثلاثة توافرت وبصورة انموذجية واضحة في غزو العراق: النهب والرعب والكذب! لكن فريدة الاستعمار الأمريكي تتجلى، في أوضح صورها، في انضمام مخلوق رابع إلى (شياطين الاستعمار)، وهو المبيد فصار العالم يرى عصابة النهاب والرعب والكذاب والمبيد! بل ان اندماج هذه الخصائص الأربعة، اصبح هو ما يميز الاستعمار الأمريكي.

ويقول مالك بن نبي<sup>(١٨)</sup> ان الاستعمار قد زعزع دارنا، وسلب منا أشياء ثمينة، والاستعمار يعتبر من الوجهة التاريخية نكسة في التاريخ الإنساني؛ لأننا إذا بحثنا عنه فسنجد أصوله تعود إلى روما، حيث وضعت المدينة الرومانية طابعها الاستعماري في سجل التاريخ.

والربط العضوي بين العنصرية والاستعمار يمكن التأكد منه ميدانيا من خلال تحليل الحملات العنصرية الجديدة ضد الإسلام والمسلمين والتحركات والتهديدات العسكرية ضد العالم الإسلامي وخاصة الدول الغنية بالنفط أو الدول التي تبدي مقاومة ضد محاولات الهيمنة عليها.

الحملات الاستعمارية الجديدة ضد الشعوب الإسلامية تختلف هذه المرة قليلا من الحملات الأوربية السابقة إذ هي عبارة عن تحالف غريب بين دول انجلوساكسونية كأمريكا وبريطانيا والحركة الصهيونية العالمية.

كل البوادر والتجارب الاستعمارية السابقة تشير إلى إمكانية تحقيق هذه المخاوف لأنه كما يبدو فان التاريخ يكرر نفسه.

فمثلا قبل بدأ الحملات الاستعمارية الأوربية ضد أفريقيا بدأت الأوساط الاستعمارية آنذاك بشن حملة عنصرية ضد الشعوب الأفريقية ووصفتها بشعوب بدائية وهمجية غير متحضرة وصل إلى حد اتهامها بأكل لحوم البشر.

ولم يختلف الأمر كثيرا مع شعوب أمريكا الأصليين بعد اكتشاف هذه القارة إذ وصفت هذه الشعوب بالوحشية والتهام لحم البشر. فمثلا نشر في أطلس إنكليزي سنة ١٦٠٦ رسم مخططي لامرأة شبه عارية من السكان الأصليين وفي يدها آلة حادة يقول الأطلس عنها بأنها تستعملها لتقطيع لحم البشر تمهيدا لشويه على النار وثم التهامه فيما بعد.

وكولومبوس نفسه كان يطلق اسم Caribs على هنود البحر وهو بدوره اسم مشتق من مصطلح Canibals أي أكل لحوم البشر وأصله هو الاسم Canis ويعني في اللغة اللاتينية الكلب الذي يصطاد في قطيع.

من المعلوم بان اتهامات من هذا النوع فسحت المجال فيما بعد أمام الإبادة الشبه الكاملة لسكان أمريكا الأصليين على يد المهاجرين الأوربيين.

١٨ - مالك بن نبي مفكر إسلامي جزائري مرموق. من مقال له بعنوان الاستعمار... والشعوب المستعمرة.

ان إطلاق تسميات واتهامات مهينة للكرامة الإنسانية لم يقتصر فقط على الشعوب من غير الجنس الأبيض بل شمل كافة الشعوب المستهدفة من قبل الاستعمار، فمثلا كان العنصريون الإنكليز يطلقون اسم الشمبانزيا الأبيض على الأيرلنديين تمهيدا لاحتلال أراضيهم. وحتى بعد احتلال أراضي هذه الشعوب فإن الاتهامات هذه لم تتوقف بل تشتد في بعض المرات خاصة إذا تجرأ شعب ما على مقاومة الاحتلال. فمثلا كان الإنكليز بعد احتلالهم للهند وعدم مواجهتهم لمقاومة تذكر من قبل الأكثرية الهندوسية في المراحل الأولى من الاحتلال كانوا يطلقون على الهندوس اسم الهندوس الناعم للتعبير عن رضاهم عن قبول الهندوس بالاحتلال ولكن بعدما قام الهندوس بانتفاضة عام ١٨٥٧ انقلب عليهم الإنكليز واتهموهم باغتصاب النساء الإنكليزيات<sup>(١٩)</sup>.

حتى بعض الكتاب والعلماء الأوربيين المشهورين تأثروا بالادعاءات العنصرية ضد الشعوب الأخرى الغير الأوربية كشكسبير مثلا الذي لمح في مسرحيته أوتيلو (عطيل) إلى مصطلح Cabibalsim. وفي هذا المجال نقر بالآتي إن ما تعيشه الولايات المتحدة حالياً ليس شكل من أشكال الحضارة، إنه ليس أكثر من تقدم تقني، مادي لا يحمل في طياته أي روح تعطيه صفة الحضارة.

والتاريخ خير شاهد، فقد قامت تلك الحضارة المزعومة على العداوة، فإن لم يجدوا عدوا حقيقيا يوجهون له جهودهم ليدمروه، خلقوا داخلهم عدوا حتى ولو كان ذلك العدو هو جزء منهم. فمنذ مطلع الهجرات الأولى لشمال أمريكا أقروا مبدأ "البقاء" ولو على حساب أي شيء، حيث لا رحمة ولكن الأنانية هي شعار الأوحاد وإن لم يعلن بوضوح. وقد بدا ذلك واضحا منذ أول لحظات حرب الإبادة والمجازر الوحشية ضد السكان الأصليين للبلاد في كل من شمال وجنوب أمريكا، ثم انقلبوا لمحاربة أنفسهم بما سمي بالثورة وحرب التحرير.

وبمجرد أن أنشئت الدولة أخذ النصف في استعباد النصف الآخر كل في مجال مختلف من الزراعة والصناعة، وحتى عندما تم وضع الدستور للبلاد كان دستورا خاصا بالأقوياء والخاصة من المجتمع ولا يعم على الجميع، فكانت هي أبرز صور

العنصرية فى العالم والتي ما زالت قائمه حتى وقتنا هذا، وإن تحولت من العنصرية العلنية إلى العنصرية المستترة، من العنصرية المقننة إلى العنصرية بالممارسة.

تلك المسماة بالحضارة قد وضعت لنفسها قانونا لا ينطبق إلا عليها، ولا يصح ولا يجوز لغيرها فى العالم أن يطالب بالمساواة معها، وهذا هو ما أصبح أسلوبا لحياتنا اليومية في أيامنا هذه. فى كل مجالات الحياة أسس ذلك المجتمع قوة مهيمنة جبارة تستطيع السيطرة على كل شئ فى الوجود لصالح منفعتها الخاصة، لقد تلاعبت تلك القوة بالقانون فأصبحت الأمم المتحدة أداة فى يدها تسيرها ضد أعدائها وتصبح غير ذات قيمة، قوة خاوية إذا خرقوا هم القانون وكثيرا ما فعلوا، والأمثلة على ذلك بالعشرات ويعرفها الجميع، مثل كوبا، جواتيمالا، فلسطين، العراق، فيتنام ... وغيرهم الكثير.

وفقا للقانون العالمى الجديد لا تستطيع أى دولة فى العالم أن تحمى منتجاتها سرى الولايات المتحدة وبكل الوسائل. ولا تستطيع دولة فى العالم السيطرة على مواردها الطبيعية سوى الولايات المتحدة. ولا يحق لأى دولة فى العالم أن تتسلح لحماية نفسها، وللولايات المتحدة الحق فى أن تتزود بكل أسلحة الدمار حتى لو دمرت العالم كله. كل دول العالم يجب أن تحترم البيئة أما الولايات المتحدة فهي مستثناء من ذلك، وكل العالم يجب محاسبته وفق القوانين الدوليه التى لا تنطبق على الولايات المتحدة وحلفائها.

لقد عرف العالم طوال التاريخ نبل الجنود، حيث دورهم هو حماية المدنيين حتى لو كانت أرواحهم هي الثمن، ولكن الجنود فى عصر السيطرة الأمريكية يضحون بكل شئ إلا أنفسهم، وأصبح تفسير الولايات المتحدة للقانون الدولى يتوقف على كينونه أطراف الصراع، حيث يستطيع أى حليف لها أن يغزوا ما يشاء من بلاد العالم وإيادة من يشاء من شعوبها ولا يحق لغير حلفائها حتى الدفاع عن أنفسهم. لقد أصبح المجتمع ذاته من داخله ذو غالبية تتصرف من منطلق الأنانية المطلقة حيث أن أى غاضب يحق له قتل كل من يلقاه فى مدرسته، فى متجره، فى شارع... فلم تعد لحياة الإنسان قيمة على الإطلاق.

لقد أصبحت الحياة معقدة للغاية، فمختلف الإدارات داخل السلطة كل منها قوة انتفاع فى حد ذاتها حتى أن مصالحها أصبحت متداخلة ومتشابكة ولا حقوق لعامة الشعب أمامها، وأخطرها أن أجهزة التخابر أصبحت قوة ذاتية مستقلة وكل من تلك

الأجهزة يحارب للحفاظ على استقلاله وبقائه، وهكذا عادت نظرية البقاء لتظل حياتنا فهي الشعاع الحقيقي لها. لقد أصبح الهدف الأساسي من الحياة هو الحياة ذاتها ولم تعد الحياة لصالح المجتمع ككل ولصالح أبنائه، فأصبحت القوة هي العامل الأساسي للبقاء.

إن مقولة "الحضارة الغربية" تتكون من: الحضارة ككلمة كبيرة ذات قيمة ومعنى، فهي كل ما يعمل على إضافة قيم جديدة لحياة الإنسان ويعمل على ازدهار حاضر ومستقبل لكل البشرية وليس لمجموعة مختارة منها، إن الثقافة ولا شك هي من أهم مقومات الحضارة وشمال أمريكا ولا شك أبعد ما يكون عن الثقافة، وإن إدعى الثقافة فهي لا تزيد عن ثقافة الشواذ والرجل الوطواط والرجل العنكبوت، بينما مصادر ومنابع الثقافة الأصيلة التي لا يعرف غير إنتقادها والتهكم عليها واتهامها بالتخلف والجمود. والغرب، وهو مكان جغرافي يجمع مجموعة من البشر لا يمثلون مجتمع موحد ولا قيمة مشتركة وينقسم إلى أوروبا الغربية وشمال أمريكا كما نعرفها اليوم وهو ولا شك مكانان لا يملكان أية عوامل مشتركة بينهم فلا يمكن أن تمثل حضارة واحدة.

ولكن الولايات المتحدة كالعادة احتجرت العالم كله رهينة لأطماعها، تحت مسمى "الحضارة الغربية" وسخرت لذلك هذا المسمى الذي لا تملك منه أى من الظواهر أو الحقيقة، مدعية أنها تمثل حضارة وهي عنها بعيدة.

وحاول بعض العلماء الأوربيين في مجالات البايولوجيا والطب والعلوم الإنسانية إسناد النظرية العنصرية بطريقة علمية أو حتى تبرير الإبادة الجماعية للشعوب الغير الأوربية.

فكتب داروين مثلاً في كتابه Decent of Man سنة ١٨٧١ "الانقراض يكون عادة سببه المنافسة، المنافسة بين قبيلة وقبيلة أو جنس مع جنس وعندما تقابل الأمم المتمدنة الأمم البربرية فإن المعركة ستكون قصيرة". وفعلاً كانت المعركة قصيرة للسكان الأصليين في أمريكا وأستراليا وبعض مناطق أفريقيا حيث أبيدت شعوبها بأكملها. هذه النظرية تعرف الآن بالداروينية الاجتماعية وهي من المبادئ التي يؤمنون بها المحافظين الجدد.

وبعض من هؤلاء العلماء كانوا ينادون علناً لإبادة الاجناس الغير الاوربية كعالم اللانثروبولوجيا الألماني Theodor Waitz سنة ١٨٥٩ عندما كتب: "لو كانت هناك

أجناس بشرية مختلفة إذن لا بد من وجود جنس أرستقراطي بينها يهيمن على الأجناس الأخرى التي حددت الطبيعة مصيرها لخدمة الجنس الأرستقراطي بحيث يمكن تدجينهم لهذه الغاية كالحوانات المدجنة وكذلك يمكن إجراء التجارب العلمية على أجسادهم بدون أى تردد وإذا وقعت الأجناس السفلى هذه فى طريق الرجل الأبيض فإن أبادتها بصورة كاملة تكون حينئذ لها ما يبررها". هذه النظرية أى النظرية العنصرية الاجتماعية ظهرت بعد فشل النظرية البايولوجية القائلة بأن الجنس الأبيض يختلف عن الأجناس الأخرى فى تكوينه البايولوجى وأن التزاوج بين البيض والسود وغير ممكن بايولوجيا.

ولكن كان هناك أيضا كتاب وعلماء أوروبيون معارضين للنظريات العنصرية والاستعمار كالكاتب الإنكليزى Milton الذي قارن فى أشعاره "الجنة المفقودة" استعمار الشعوب بطرد آدم وحواء من الجنة لأن الاستعمار لا يجلب الا الفساد والتفسخ.

ولكن المعارضة هذه لم تأخذ شكلا عاما بل كانت النزعة العنصرية والرغبة فى التوسع وخوض الحروب الاستعمارية يتمتع بتأييد شعبى واسع بسبب فعالية الادعاءات العنصرية والمصالح الشخصية لبعض مواطنى أوروبا حيث كان باستطاعة الإنسان الأوروبى المعدوم العاطل عن العمل وحتى المجرم ان يتحول إلى إنسان أرستقراطى بين ليلة وضحاها فى إحدى المستعمرات. رئيس وزراء مستعمرة كاب فى جنوب أفريقيا كتب عام ١٩٠٨ بأن العمال البيض تنهال عليهم النعمة عند وصولهم إلى المستعمرات حيث يجدون أنفسهم فى موقع الإنسان الأرستقراطى.

ولا يختلف الحال الآن كثيرا فى العراق حيث ان بوسع الجندي الأمريكى الذى ربما كان مشردا فى شوارع أمريكا قبل مجيئه إلى العراق أو نادلا فى البيئسريا بان يتحول إلى حاكم يحكم على الحياة والموت فى العراق. وكما أن حالة الاحتلال توفر فرصة ذهبية لكل المجرمين ومرضى النفسيين لإشباع رغباتهم الإجرامية المريضة إذ لا مسؤولية لجرائمهم من القتب وا لترهيب والتخويف فى الأراضى المحتلة.

ويظن الفرد الأوروبى أنه من عنصر راق متميز وأن بشرته البيضاء فى حد ذاتها دليل على التفوق على غيره من تلك العناصر الملونة ثم قادة هذا الظن إلى الإيمان بأن الفرد الأبيض هو خالق الحضارة الحديثة.

لقد هاجر الإنسان الأوروبي الأبيض إلى أمريكا بعد اكتشافها وحمل معه كل ما تحتويه الطبيعة الأوربية من عنف وشهوة في السيطرة والتحكم وكان من الطبيعي ان تبدأ هذه الطبيعة الفاسدة في سياسة العنف والسيطرة علي مقدرات القارة الجديدة وسكانها ولم تكد تطأ قدم الرجل الأبيض أرض القارة حتي أخذ في مطاردة سكانها من الهنود والفتك بهم في وحشية يتقنها ويتميز بها ونصب نفسه حاكما بقوة الحديد والسنار وكانت النتيجة انقراض علي الكثير من سكان أمريكا الأصليين وأخذ يطارد الآخرين دون رحمة أو هوادة حتي وصل الأمر به إلى إجبار من بقي من هؤلاء علي الحياة في مناطق حددها المستعمر وفرض عليهم الأسلوب الذي يجب أن يتبع فيه كل أمور الحياة، وهكذا دفعت شهوة السيطرة الرجل الأبيض في القضاء علي شعب بأكمله وذلك لارضاء عنفه وشهوته وجبروته ولإشباع لذته في استعباد الآخرين.

ثم اشترى الرجل الأوروبي في أمريكا الرقيق الأسود الإفريقي وكون طبقه من العبيد علي أرض أمريكا وعمل علي استغلال واستعباد الشعوب الأفريقية ووضع القوانين لخدمته هو وحده وحرّم علي الأسود كل حق قانوني.

فمع اكتشاف القارة الأميركية في ١٤٩٢ ظهرت الحاجة إلى تنظيم نخاسة على حجم واسع باتجاه القارة الأميركية. ويتفق المؤرخون على رقم ١٢ مليونا لتقدير عدد الأفارقة الذين اقتيدوا كعبيد إلى القارة الأميركية.

وجاء في رسالة كتبها عام ١٦٥١ أسير من مدينة نابولي الإيطالية "يسينون معاملتنا ويضربوننا بالعصي ويجوعوننا ويصفوننا بالكلاب الفاقدة للإيمان إلى درجة أنني أفضل ان أغادر هذه الحياة والله وحده يعلم ما سيحدث لنا".

وبنيت المدارس الخاصة للجنس الأبيض ومنع الجنس الأسود من الدخول إليها والدراسة فيها وشيدت المدن الجميلة للرجل الأبيض واجبر الأسود علي الحياة في أحيائه وعازله القذرة ومثل التمييز العنصري وصمة عار في جبين الحرية الغربية الزائفة، ولم يرحل الإنسان الأبيض إلى أمريكا فقط وإنما رحل إلى أفريقيا أيضا وطبق فيها أسوأ أنواع الاستعمار وبنى لنفسه علي أراضيها دور السيد الحاكم لعبيد أذلاء وبنى لنفسه بقوة الحديد والنار مجتمعا لخدمته.

ومع بشاعة العنصرية والاستعمار فإن المرء يحتاج دائما إلى مبرر لقتل إنسان آخر وان هذا المبرر من الصعب إيجاداه في حالة قتل إنسان يتمتع بحق



المساواة الكاملة مع القاتل وعلى رأسها حق الحياة، لهذا فإن القاتل يلجأ أولاً إلى تجريد الضحية من خصائصها الإنسانية كما يقول الفيلسوف الفرنسي سارتر والنزول بها إلى منزلة القروء لتبرير جريمته. هذه التبريرات ساعدت على إبادة الكثير من الشعوب للاستلاء على أراضيها وثرواتها.

والسر وراء بقاء بعض الشعوب التي خضعت فيما مضى للاحتلال والعبودية على قيد الحياة كما يضيف سارتر هو ليست إنسانية المستعمر أو أسباده العبيد بل هى أسباب اقتصادية لأن المستعمر ومالك العبيد كان يحتاج إلى الأيدي العاملة الرخيصة، ولذا فإنه فى بعض الأحيان عندما لم تكن هذا الشعوب مستعدة لخدمة المستعمر كان يتم أبادتها مثلما حدث لهنود الحمر الأمريكيين عندما أعلنوا عدم استعدادهم للعيش كعبيد.

وهذه هى نظرية خطيرة جداً إذا طبقناها على الحملات الاستعمارية التي يتعرض لها العالم الإسلامى حالياً وخاصة الدول الغنية بالنفط لأن الاستعمار الجديد لا يحتاج إلى الأيدي العاملة الرخيصة بل إلى الثروات الطبيعية فقط وهذا يمكن أن يعنى على الأقل من الناحية النظرية بأن إبادة شعوب هذه الدول ليست إلا مسألة وقت كما حدثت لهنود الحمر ولكن بعد مجئ الفرصة المناسبة وليس تاريخ الإنسانية كله هو تاريخ جرائم الإبادة الجماعية. ولهذا فإن كفاح الشعوب المستعمرة يكون فى أكثر الأحيان على شكل حروباً شاملة ضد المحتلين الأجانب والتضحية بروح الملايين من أبناءها هو ليس إلا محاولة للإفلات من الإبادة الجماعية على يد المحتلين حتى لو كانت وسائل الدفاع عن النفس بدائية. فى انغولا التي كانت تخضع لاحتلال برتغالى وحشى إلى السبعينات القرن الماضى فإن السكان كانوا يقومون فى بعض الأحيان بهجمات انتحارية جماعية ضد جنود الاحتلال بحيث كان النساء والرجال والأطفال ينفذون بأجسادهم فوق أجساد جنود المحتلين وأسلحتهم لعدم توفر أسلحة لدى السكان للدفاع عن أنفسهم.

ولم يكن حصّة المسلمين من الحملات العنصرية والاستعمارية الأوروبية أفضل من حصّة الشعوب الغير الأوروبية الأخرى ولكن بفارق واحد وهو تميز هذه الحملات بطابع دينى أيضاً أى المعاداة للدين الإسلامى إضافة إلى العنصرية العرقية.

فصورة المسلمين في أوروبا قبل وخلال الحروب الصليبية كانت توصف بالبربرية والانتحاط والاعتقاد بان الإسلام لم ينتج الا الاستبداد والعنف والدمار. وفيما يتعلق بتاريخ العلاقات الأمريكية الإسلامية فان أولى الاتصالات بين الأمريكيين من اصل أوربي والمسلمين لم تكن ودية إذ ان نسبة لا بشس بها من العبيد السود المختطفين من أفريقيا إلى أمريكا كانت ذات أصول إسلامية تقدرها الباحثة الأمريكية اليزابيث صديقي في بحث لها نشر على موقع بحوالى ١٠%. ومن بين هؤلاء العبيد المسلمين كانوا علماء دين تفوق ثقافتهم ثقافة مالكي العبيد البيض في بعض الأحيان ولهذا لم يكن من المستغرب بان يصبح هؤلاء العبيد المسلمين مصدرا لتحريض العبيد على الثورة ضد العبودية. فصورة المسلم لم تكن من البداية كما يريد ان يراها الرجل الأبيض.

ويذكر الدكتور كمال سيد قادر أنه في يومنا هذا يعيش حوالى عشرون مليون مسلم في دول الاتحاد الأوربي وحوالى عشرة ملايين مسلم في الولايات المتحدة الأمريكية والحمالات العنصرية ضدهم هي في تزايد مستمر وتشتد حسب تقرير الاتحاد الهلسنكى العالمى لحقوق الإنسان الصادر في آذار ٢٠٠٥. التقرير المتكون من ١٦٠ صفحة يتكلم عن هجمات جسدية وإهانات لفظية والتميز في شتى المجالات ضد الاقليات المسلمة في الغرب.

ولم يكتف الغرب تاريخياً بشن حروب ضد العالم الإسلامي وإنما تبع ذلك بحملات استعمارية مدمرة على بلدانه. وفي هذا الإطار وظفت الاكتشافات العلمية والتطور الصناعي والتقني الذي حدث في الغرب من أجل تدعيم الهيمنة الاستعمارية واتساع رقعتها. فـ (ليبنتز) وهو يضع القواعد الجديدة لعلم الرياضيات كان يفكر في احتلال مصر ويقدم من أجل ذلك تقريراً مفصلاً للويس الرابع عشر.

ومع زيادة حركة الاستعمار الغربي في أنحاء متعددة من العالم صيغت نظريات التبرير للحركة الاستعمارية وتغطية استمرارها. فظهر ما يسمى بالنظرية البيولوجية السياسية<sup>(٢٠)</sup>، ومضمونها أن للدول الكبرى حقاً في التهام الدول

٢٠- وعمل هذه النظرية الفيلسوف الألمان أرنولد شينجلر (١٨٨٠-١٩٣٦) أهم أعماله "الحلال الغرب" و"البناء الجديد للرايح الألماني".

الصغرى، وأن الشعوب الصغيرة يجب أن تموت وتقنى أمام الدول الكبيرة. هذا ما أكدته (أرنست رينان) عندما أعلن: (أن الأوروبي خلق للقيادة كما خلق الصيني للعمل في ورشة العبيد وكل ميسر لما خلق له!!). وصحبت هذه النظرية الأرض أو الملك المباح، التي تعني إباحة استعمار الأقاليم التي تسكنها شعوب متخلفة عن ركب الحضارة وقد كتب بعض المستشرقين كتباً يوضحون فيها النظرية البيولوجية العرقية التي حاول المستعمرون تبرير أعمالهم بها، فكتب كوفييه (مملكة الحيوان)، وغوبينو (مقالة في التفاوت بين العروق الإنسانية)، وروبرت نوكس (عروق الإنسان السوداء)، وغوستاف لوبون (القوانين النفسية لتطور الشعوب). وتهدف هذه الكتب وغيرها إلى القول بأن الشرق ينتمي بيولوجياً إلى عرق محكوم وينبغي له أن يستعبد وهذا قدره ومصيره المحتوم.

وعن طريق الاستعمار نهبوا الثروات المتوفرة في بلدان العالم الإسلامي، حتى أن ثلاث دول أوروبية كانت تقسم فيما بينها ٩٣% من مجموع التحويلات الخارجية موزعة على هذا النحو: ٤٥% لبريطانيا، ٢٥% لفرنسا، ١٣% لألمانيا. كما أن الأجانب في مصر كان عددهم (٢٢٥٠٠٠) عام ١٩٢٠ وفي قبائلهم (١٦) مليون عدد سكان مصر آنذاك، ولكن الأجانب كانوا يملكون ٥٣% من الثروة العامة لمصر.

وبشكل عام فملف الاستعمار في العالم الإسلامي وعمليات الإرهاب والإبادة والقتل والوحشية والتدمير، لازالت ماثلة أمام أعين الشعوب الإسلامية.

فألزحف الاستعماري الغربي العنيف وقع على العالم الإسلامي، في وقت كانت الدولة العثمانية (رجل أوروبا المريض)، تعاني الكثير من أسباب الاضمحلال والضعف، وقد كانت أعراض هذا الضعف قد ظهرت على السطح في عهد السلطان مصطفى الثاني (١٦٩٥-١٧٠٣م) فعقدت معاهدة (كارلوفتز) عام (١٦٩٩م) والقرن السابع عشر يقترب من نهايته، فكانت هذه المعاهدة استهلالاً سيئاً للقرن الثامن عشر بالنسبة إلى العالم العربي والإسلامي. واستمرت العملية الاستعمارية الخبيثة تخترق بلدان العالم الإسلامي، وتقوض أسس البنيان في هذه الدول. ففي عهد السلطان عبد المجيد الذي اقترن اسمه بالتتظيمات أي فرمان: (١٨٥٤-١٨٥٦م) وتم بموجبها استبعاد الشريعة الإسلامية وبدأ تسيير شؤون الدولة وفق المنهج الغربي مما أدى إلى تعميق التبعية وتكريسها حتى وصلت ديون

الإمبراطورية في عهد السلطان عبد المجيد (ثلاثمائة مليون ليرة). يذكر السلطان عبد المجيد في مذكراته واصفاً الحالة الاقتصادية للدولة العثمانية قائلاً: (الدخل العام يقل عاماً بعد عام والإنتاج المحلي كان يضمحل يوماً بعد يوم فقد كنا منذ فترة التنظيمات، نأتي بكل أشياءنا من أوروبا، المنتجات الأوروبية غطت كل مكان، أصبحت عدة مصانع في طريقها إلى الزوال وهبط دخل الجمارك إلى الحد الذي لايجزي بسبب تلك المعاهدات المعقودة مع الدول الكبرى. لم تعد تكفي زيوتنا، الطرق غير موجودة، والتخاير صعب كان أراضي إمبراطورية تركت لأقذارها). كما نجم عن الاستعمار عمليات إبادة في أفريقيا وفي استراليا وفي أميركا الشمالية. كما ان حركات التحرر في الجزائر أو في فيتنام تحولت إلى حروب مدمرة. والاستعمار يعني أيضاً العبودية أي نفي ١٠ إلى ١٤ مليون رجلاً وامرأة بعيداً عن أوطانهم. وفي نفس الإطار تميز القرن التاسع عشر وهو عصر الثورة الصناعية بـ "بتصاعد الاستغلال الاقتصادي للمجتمعات المستعمرة ليصبح منهجياً".

والاستعمار مسؤول عن العديد من المشاكل الراهنة في العالم اليوم ساهم بما حدث في كشمير حيث لم يعلن عن الحدود إلا بعد مضي يومين على الاستقلال.... والنتائج لا تزال هناك.

وعندما يكون طابع الفكر الأوربي السائد هو الطابع الاستعماري (بالمعنى الحديث للمصطلح) ومن هنا يخرج الاستشراق ويندفع بهذا الاتجاه لخدم كل ما من شأنه تكريس الاستعمار، كتزويد الحكومات المستعمرة بالدراسات والتحليلات الوافية عن الشرق والبلاد المستعمرة، وكذلك تزيين صورة المستعمرين وتبرير ممارساتهم وإظهارهم بمظهر المنقذ والمحرر وحامل راية الحرية والحضارة، أو قد يكون المستشرق عاملاً في إحدى مؤسسات الدول الاستعمارية بصورة رسمية، كأن يكون مثلاً مستشاراً لوزارة المستعمرات في هذه الدول، كما هو الحال بالنسبة للمستشرق الفرنسي "هانوتو" الذي كان يعمل مستشاراً لوزارة الاستعمار الفرنسية، فنجد أنه يتجه في دراساته الاستشراقية إلى كل ما يخدم الحركة الاستعمارية لفرنسا في الشرق، بل يحاول توظيف رعييل من المستشرقين لهذا الغرض من خلال رسم مناهج بحثهم ودراساتهم الاستشراقية من وحي الدوافع الاستعمارية لبلاد الشرق الإسلامي ...

وهكذا صب الجهد الاستشراقي في الإطار الاستعماري لأوروبا بشكل مباشر أو غير مباشر. ومن نماذج ذلك ما كتبه "هانوتو" نفسه عن المسلمين وعقيدتهم واضعاً المقترحات الضرورية في نظرة لتوجيه سياسة فرنسا في مستعمراتها الإفريقية الإسلامية تحت عنوان "قد أصبحنا اليوم إزاء الإسلام والمسألة الإسلامية" وقد نشرت جريدة "المؤيد" في نهاية القرن التاسع عشر ترجمة لمقالته هذه نورد مقاطع منها "... في تلك البقعة الإفريقية التي أصبحت مقر ملك الإسلام، جاءت الدولة الفرنسية لمباغتته. جاء القديس لويس - الذي ينتمي إلى إسبانيا بوالدته - ليضرم نيران القتال في مصر وتونس، وتلاه لويس الرابع عشر في تهديده الإمارات الإفريقية الإسلامية، وعاود هذا الخاطر نابليون الأول، فلم يوفق في تحقيقه الفرنسيون إلا في القرن التاسع عشر، حيث أخذوا على دولة الإسلام التي كانت لا تنفي في متابعة الغارات على القارة الأوروبية، فأصبحت الجزائر في أيديهم منذ سبعين عاماً، وكذلك القطر التونسي منذ عشرين عاماً".

"... إذن فقد صارت فرنسا بكل مكان في صلة مع الإسلام، بل صارت في صدر الإسلام وكعبه، حيث فتحت أراضيها وأخضعت لسلطاتها شعبية وقامت تجاهه مقام رؤسائه الأولين، وهي تدير اليوم شؤونهُ وتجيبي ضرائبه، وتحشد شبابه لخدمة الجندية، وتتخذ منهم عساكر يذبون عنها في مواقف الطعان ومواطن القتال". "إن شعباً جمهوري المبادئ (شعب فرنسا) يبلغ عدد نفوسه أربعين مليوناً لا مرشد له إلا نفسه - لا عائلات ملوكية فيه يتنازع عن الحكم، ولا رؤساء يتناولون الرئاسة بطريق الوراثة - هو الذي تقلد زمام إدارة شعب آخر لا يلبث أن ينمو حتى يساويه في العدد، وهو ذلك الشعب المنتشر في الأرجاء الفسيحة والأصقاع المجهولة، والمتبع لتقاليد وعادات غير التي نقولها ونحترمها ... هو الشعب الإسلامي السامي الأصل، الذي يحمل إليه الشعب الآري المسيحي الجمهوري الآن ملح المدنية وروحها!! ليس الإسلام في داخلنا فقط، بل هو خارج عنا أيضاً ... قريب منا في "مراكش" تلك البلاد الخفية الأسرار، ... قريب منا في "طرابلس الغرب" التي تتم بها المواصلات الأخيرة بين مركز الإسلام في البحر الأبيض المتوسط وبين الطوائف في باطن القارة الإفريقية، قريب منا في "مصر" حيث تصادمت معنا الدولة البريطانية فصادمنا إيّاها في الأقطار الهندية، وهو موجود وشائع في "آسيا" حيث لا يزال قائماً في بيت المقدس وناشراً أعلامه على

"مهد الإنسانية مقر المسيح"، ويحسب أنصاره وأشياعه في قارات الأرض القديمة بالملايين وقد انبعثت منه شعبة في بلاد الصين فانتشرت فيها انتشاراً هائلاً حتى ذهب البعض إلى القول بأن العشرين مليوناً من المسلمين الموجودين في الصين لا يلبثون أن يصيروا مائة مليون، فيقوم الدعاء لله مقام الدعاء "لساكياموني" وليس هذا بالأمر الغريب، فإنه منتشر في الآفاق..."

"لا تظنوا أن هذا الإسلام الخارجي الذي تجمعه جامعة فكر واحد، غريب عن إسلامنا (في تونس والجزائر) ولا علاقة له به، لأنه وإن كانت البلاد (الإسلامية) التي تحكمها شعوب مسيحية ليست في الحقيقة (دار إسلام) وإنما هي دار حرب، فإنها لا تزال عزيزة وموقرة في قلب كل مسلم صحيح الإيمان، والغضب لا يزال يحوم حول قلوبهم كما تحوم أنثى الأسد حول قفص جلست فيه صغارها، وربما كانت قضبان هذا القفص ليست متقاربة ولا بدرجة من المتانة تمنعها عن الدخول إليها من بينها".

"يؤخذ مما تقدم أن جرائم الخطر لا تزال موجودة في ثنيات الفتوح وعلى أفكار المقهورين الذين أتعبتهم النكبات التي حاقت بهم، لكن لم تثبط همهم، نعم ليس لمقاومتهم رؤساء يشدون هذه المقاومة، ولكن رابطة الإخاء الجامعة لأفراد العالم الإسلامي بأسره كافلة بالرئاسة، ففي مسألة علاقتنا بالإسلام تجد المسألة الإسلامية والمسألة الدينية والمسائل الداخلية والخارجية شديدة الاتصال بعضها ببعض، وهذا ما يجعل حلها صعباً.

في التاريخ الحديث (٢١) يمكن أن يؤرخ العلاقة (المواجهة) بين المشرق (العالم العربي والإسلامي) والغرب. بدخول نابليون الفرنسي يملكها لم يستطع المسلمون الدفاع عن أنفسهم، وبالجيش العلمي اكتشف الشرقيون مقدار تخلفهم وانحطاطهم الحضاري لذلك اعتبر برنارد لويس حملة نابليون (١٧٩٥-١٨٠١م) أول قوة مسلحة عادت الطريق للغرب الحديث في الشرق الأوسط وأول شرارة كهربائية في طريق التغريب في الشرق الأوسط.

لقد كانت هذه العملية إيداناً ببدء مسيرة الهيمنة والسيطرة الغربية (الاستعمارية) على مقدرات العالم الإسلامي وثرواته.

إن تدهور حالة العرب والمسلمين التي أحاطت بفترة الاستعمار وظهور الثورة الصناعية في أوروبا أحييت المشاعر القديمة وأخرجت الشيطان من قمقمه. فالانتقام من العالم الإسلامي في ظل هذه الواقع الجديد أصبح ممكناً وخيراته في متناول السيد. وهذه المرة نجحت الحملات العسكرية الاستعمارية فانغمس العالم الإسلامي في ليل طويل ذاق المسلمون خلاله ويلات كبيرة وذلك في جسمه مسمار التخلف لقرون قادمة. كل شيء نهب، وكل شيء انتهك: الممتلكات، الحياة، الكرامة. وعمت حالة من اليأس واليأس كل المجتمعات الإسلامية واستغلت ثرواتها لدعم التقدم والتطور في بلاد الغزاة المستعمرين وبدا الفرق واضحاً بين معارك الفتوحات الإسلامية وحملات الإبادة الاستعمارية. وفي ظل هذه الظروف الجديدة شرع في تنفيذ استراتيجية واسعة لإفراغ الشعوب المستعمرة من مضامينها الثقافية والحضارية وأصبح يراد للإسلام، الذي صنع مجد المسلمين، أن يخرج من دياره أو، على الأقل، أن لا يظهر إلا في أدنى تعبيراته كالأحوال الشخصية أو بعض الطقوس التعبدية مثلاً. وللتأكد من نجاح هذه الاستراتيجية<sup>(٢٢)</sup> منع الأندليجان (السكان الأصليين) من أي سبيل للترقية الاقتصادية والاجتماعية كما حرم أبناؤهم من التربية والتعليم. وفي مقابل ذلك أعدت نخب منهم ألحقت ثقافياً بالمستعمر وهيئلت لتكون في الخدمة حالاً ولتضمن استمرارية مصالح أسياها مستقبلاً. غير أن الذي حدث هو أن الثقافة الإسلامية التي أريد لها أن تتطمس هي التي قاوم بها المسلمون وهي التي باسمها بزغت في ظلمة الاستعمار حركات النهضة (بدءاً بالأفغان إلى عبده ورضا والنورسي وابن باديس والبنا وغيرهم) وتوالت حركات مقاومة كثيرة وحروب تحريرية طاحنة إلى أن تحقق الاستقلال في كامل البلاد الإسلامية.

لقد تركت هذه الفترة جراحات عميقة وعميقة وعلى إثرها بدأت تظهر مشاكل بالغة الخطورة في ميادين شتى ميزت مرحلة ما بعد الاستعمار.

٢٢- الاستراتيجية كلمة أصلها يوناني مشتقة من كلمة استراتيجوس Strategos التي تعني القائد أو الحاكم وليس فقط القائد العسكري بل المدني أيضاً لأن الحاكم أو الإمبراطور في الأزمنة القديمة هو الذي كان يقود الجيش في ميادين القتال، فكل السياسات العسكرية والاقتصادية والاجتماعية الصادرة عن ذلك القائد سميت بالاستراتيجية.





الفصل التاسع  
القرن العشرين



## الفصل التاسع القرن العشرين

وشهد القرن العشرون الحرب العالمية الأولى والثانية، وحروب فيتنام، والشرق الأوسط، والخليج، والبلقان، وأفريقيا.

وفى السبيلية نشير إلى أنه إذا كان العالم قد شهد على مدى تاريخ البشرية صراعات دامية، فإن النصف الأول من القرن العشرين قد شهد نشوب حربيين عالميتين لعلهما كانتا أكثر دموية من أى حروب أخرى شهدها العالم. فقد التهمت هاتان الحربان أكثر من خمسينا مليوناً من البشر، بما قد يقترب من أعداد ما راح ضحية حروب العالم السابقة فى التاريخ المعروف ولكن مما يثير الانتباه فى هذا الصدد أن هاتين الحربين العالميتين لم تكونا بين حضارتين مختلفتين، وإنما كانتا داخل حضارة واحدة هى الحضارة الغربية. كما أن الحرب الباردة<sup>(١)</sup> أيضاً كانت

١- الحرب الباردة اصطلاح يطلق على العلاقات الجديدة التي نشأت بين المتصربين في الحرب العالمية الثانية خلال الفترة بين نهاية هذه الحرب وانهايار الاتحاد السوفيتي. عملياً كان قطبا الحرب هما الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي، وكان هدف كل منهما الحصول على مناطق نفوذ عسكري أو سياسي وتوسيعها كلما كان ذلك ممكناً، والطرفان، وإن كفا عن استخدام السلاح إلا أنهما لم يتوقفاً عن تطوير قدراتهما العسكرية والدخول في سباق تسلح لم يشهد له العالم مثيلاً من قبل وهذا السباق من أبرز سمات الحرب الباردة إضافة إلى سعي كل من الطرفين للاستئثار بمناطق نفوذ علمي حساب الآخر والمحاكة عن طريق اشغال حروب محدودة لاستنزاف الخصم، ولقد التزم الطرفان بالقواعد التي شكلتها هذه المرحلة ولم يتجاوزاها إلى حرب ساخنة حتى في اشد الأزمات بينهما كما هو الحال في أزمة صواريخ كوبا. الحرب الباردة، بعكس الحرب الساخنة التي تشعل فيها النيران ويتبادل فيها الأطراف القصف والضرب هي حرب استمرت بين الأعوام ١٩٤٥ إلى ١٩٩٠. وكان الاتحاد السوفيتي وحلفاؤه طرفاً من أطراف الحرب وكان هذا الطرف يسمى بالكتلة الشرقية أو المعسكر الشرقي. ومن الجانب الآخر، الولايات المتحدة وحلفاؤها وكانوا يعرفون بالمعسكر الغربي أو الكتلة الغربية. تمثلت الحرب بالشعور المتبادل بين الطرفين بالعدم الثقة وتقديم سوء النية على حسنها. وفي مرحلة من المراحل (أزمة الصواريخ الكوبية)، تنامت الشكوك بين الطرفين بما أوحى بالندلاع حرب عالمية ثالثة. وكانت الولايات المتحدة وحلفاؤها يتهمون الاتحاد السوفيتي بنشر الفكر الشيوعي في العالم بينما كان الاتحاد السوفيتي يتهم الكتلة الغربية بنشر الإمبريالية ومنع الحركات النورية. استمرت الحرب الباردة بعد الحرب العالمية الثانية حتى عام ١٩٩٠ بتفكك الاتحاد السوفيتي. وفي الفترة المذكورة، قامت عدة صراعات مسلحة بسبب الحرب الباردة كحرب كوريا، فيتنام والغزو السوفيتي لأفغانستان. وظلت تلك الصراعات العسكرية محدودة لعدم تعرض الكتل الكبيرة أو شعوبها للأذى. في الصراع الاستراتيجي بين الكتلتين، كان هناك صراع من نوع آخر تمثل في الصراعات التقنية وسباق التسلح كما لم يتغير الطرفان جهداً في عملية التجسس واختيال عملاء الطرف الند. وتجدر الإشارة ان الصراعات المسلحة الجانبية كحرب فيتنام وميلانها آزقت منام العالم في احتمال تطور تلك الصراعات إلى حرب عالمية نووية. كان

داخل حضارة واحدة ذات أيديولوجيتين مختلفتين. وهذا يعني أن الصراع بين بنى الإنسان لا يكون بالضرورة بين حضارات مختلفة. فالحضارة الحقيقية تعنى في جوهرها التقدم المادى والروحى للأفراد والجماعات، أى أنها ترتقى بالإنسان مادياً وروحياً، وتهذب من أخلاقه، وتحد من نزعاته العدوانية، وإنما يكون الصراع بين البشر من أجل مصالح ومطامع وأيديولوجيات متباينة وأهداف دينية أو سياسية، فهو إذن صراع قوى تهدف به إلى فرض سيطرتها وتسلطها على قوى أخرى.

أما الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨) أو الحرب التي "أنهت جميع الحروب" وفيها تم استعمال الأسلحة الكيميائية لأول مرة ولم يحرك العالم عدداً من الجنود مثلما حرك في الحرب العالمية الأولى. وتم قصف المدنيين من السماء لأول مرة في التاريخ وتمت فيها الإبادات العرقية.

وشهدت الحرب ضحايا بشرية لم يشهدها التاريخ من قبل، وتم تغيير الخارطة السياسية لأوروبا.

وتعد الحرب العالمية الأولى البذرة للحركات الإيديولوجية كالشيوعية وصراعات مستقبلية كالحرب العالمية الثانية، بل وحتى الحرب الباردة. حيث شكلت الحرب البداية للعالم الجديد ونهاية الأرستقراطيات والملكيات الأوروبية. وكانت الموجع للثورة البلشفية في روسيا التي بدورها أحدثت تغييراً في السياسة الصينية والكوبية كما مهدت الطريق للحرب الباردة بين القسبيين "الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة". ويُعزى سطوع بريق النازية لهزيمة ألمانيا في الحرب وترك الكثير من الأمور معلقة حتى بعد الحرب. وأخذت الحروب شكلاً جديداً في أساليبها بتدخل التكنولوجيا بشكل كبير في الأمور الحربية وبعدها كانت الحروب تخاض بتقابل جيشين متنازعين في ساحة المعركة بعيداً عن المدنية، فقد كانت المدن المأهولة بالسكان أصبحت ساحات للمعركة مما نتج عن سقوط ملايين الضحايا. واستعملت الدبابات لأول مرة في الحرب العالمية الأولى.

من نتائج الحرب الباردة انهار الاتحاد السوفييتي وميلاد النظام العالمي الجديد الذي نادى به الرئيس الأمريكي السابق جورج بوش الأب، عقب نهاية حرب الخليج الأولى، التي أسقطت شبه النظام الإقليمي العربي، وقد صبح النظام العالمي الجديد للولايات المتحدة الأمريكية القطب الذي كسب الحرب الباردة الانفراد بالسياسة العالمية وتطويعها وفقاً لمصالحها ورغباتها وفرض رؤيتها على الدول والتدخل في شؤونها وصار العالم يشكّل وفقاً للنمط الأمريكي من التعددية الحزبية إلى التجارة الحرة والحدود المفتوحة دون مراعاة لاية خصوصية دينية أو ثقافية ..

كان برنامج التسليح الألماني البحري يقوم على أن يكون لألمانيا أسطول بحري مقاتل يكون أقوى من أي قوة بحرية تملكها أعظم دولة بحرية معادية، وشهدت الحرب العالمية الأولى انهيار أربع إمبراطوريات عظمى وهى الروسية والألمانية والنمساوية - المجرية والعثمانية واستمرت أربع سنوات وخمس عشرة أسبوعاً، اشتركت فيها ثلاثون دولة، وجندت لها خمساً وستين مليون مقاتل، لقي مصرعه فيها ثمان ونصف مليون، وجرح أو أثر تسع وعشرون مليوناً<sup>(٢)</sup> واحتفظت المدن الأوروبية بذكرىات الموتى والمشوهين وآثار الغاز السام والخانق وأعمال الحصار والدمار والتمرد والثورة وحتى عندما انتهت الحرب حدثت تسوية معاهد فرساي ١٩١٩ التى كانت تسوية خراب ودمار للعالم أجمع لأنها كانت تسوية هلامية كتبت بطريقة نابوليونية متشددة ضد ألمانيا وطبقت بطريقة ويلسونية مائعة أعطت الفرصة الذهبية لظهور أخطر شخصية دموية فى التاريخ.

وهو أدولف هتلر<sup>(٣)</sup>:

وعلى الرغم من انتهاء الحرب الأولى عام ١٩١٨ إلا أن الصراع ظل مشتتلاً ولكن بنار هادئة ريثما تنفجر الخلافات فقفزت ألمانيا فى غضون سنوات قليلة وتأهبت من أجل السيادة العالمية ومرت بديكتاتورية هتلرية صارمة وطالبت بوحدة ألمانيا وضم الأقليات الألمانية فى البلاد المجاورة فى دولة الرايخ ونجح هتلر فى ذلك ثم طالب بمجال حيوى لألمانيا مما مهد لها الأرض للتوسع والانطلاق. وإذا كانت الحرب العالمية الأولى تميزت بالحرب الجالسة فالحرب الثانى تميزت بالحرب الخاطفة الكاسحة واستخدام استراتيجية الرعب فكانت الدول الصغرى تسقط فى أيام والكبرى فى شهور وأصبحت أوروبا من الترويح حتى

٢- عبد الحميد البطريق: التيارات السياسية المعاصرة، دار الفكر العربى، ١٩٩٩، ص ١٩٦.

٣- أدولف هتلر (٢٠ أبريل ١٨٨٩ إلى ٣٠ أبريل ١٩٤٥) - بالألمانية: Hitler Adolf). قائد حزب العمال الوطنى الاشتراكي وزعيم ألمانيا النازية من الفترة ١٩٣٣ إلى ١٩٤٥. فى الفترة المذكورة، كان يشغل منصب "مستشار ألمانيا"، ورئيس الحكومة والدولة. كان هتلر عطفاً مفوّهاً وذا جاذبية وحضور شخصي قويين. ويوصف الرجل كأحد الشخصيات الأكثر تأثيراً فى القرن العشرين ويعزى له الفضل فى انشغال ألمانيا من ديون الحرب العالمية الأولى وتشبيد الآلة العسكرية الألمانية التى قهرت أوروبا. فقاد سياسة هتلر التوسعية العالم إلى الحرب العالمية الثانية ودمار أوروبا بعد أن أشعل فيها نيرانها بضمها لبولندا. وبسقوط العاصمة برلين فى نهاية الحرب العالمية الثانية، أقدم هتلر على قتل نفسه وعشيقة ابنا براون فى قبو من أقبية برلين بينما كانت برلين غارقة فى بحر من الحراب والدمار.

اليونان ومن فرنسا حتى قلب الاتحاد السوفيني قد خضع للقوة النازية ورقص هتلر وهو يتناول النبيذ تحت برج ايفل الشهير. وقد ذهبت الحرب بأرواح العديد ممن شاركوا فيها ففرنسا خسرت جيلا كاملا من شبابها.

وتعد الحرب العالمية الثانية من الحروب الشمولية وأكثرها كلفة في تاريخ البشرية لأتساع بقعة الحرب وتعدد مسارح المعركة، فكانت دول كثيرة طرفاً من أطراف النزاع. وتكبد المدنيون خسائر في الأرواح إبان الحرب العالمية الثانية أكثر من أي حرب عرفها التاريخ، ويعزى السبب للقصف الجوي على المدن والقرى التي ابتدعها الجيش الألماني على مدن وقرى الحلفاء مما استدعى الحلفاء بالرد بالمثل، فسقط من المدنيين من سقط من كلا الطرفين. في نهاية الحرب، كان هناك ملايين اللاجئين المشردين، أنهار الاقتصاد الأوروبي ودمر ٧٠% من البنية التحتية الصناعية فيها.

وقامت القوات المسلحة الأمريكية بإلقاء قنبلتين نوويتين على مدينتي في اليابان وهما هيروشيما وناكاساكي في ٦ أغسطس ١٩٤٥ على التوالي أثناء الحرب العالمية الثانية وكان الغرض إجبار اليابان على الاستسلام بدون شروط. قتل جراء إلقاء القنبلتين زهاء ١٢٠,٠٠٠ شخص من جراء التأثيرات الناجمة من انفجار القنبلة النووية واعداد اكثر فيما بعد نتيجة للتأثيرات الإشعاعية للقنبلة النووية وكان ٩٥% من الضحايا مدنيين، بعد أسبوع واحد من إلقاء القنبلتين أعلنت اليابان في ١٥ أغسطس استسلامها بدون قيود او شروط ولحد هذا اليوم هناك آراء متضاربة حول استعمال الأسلحة النووية حيث يعتقد البعض ان الأمر كان ضروريا لإيقاف الحرب العالمية الثانية بسرعة للحيلولة دون اراقة المزيد من الدماء بينما يرى البعض الآخر ان استعمال القوة كان مبالغا فيه.

تم تصنيع القنبلتين في الولايات المتحدة وساهم علماء من المملكة المتحدة وكندا إضافة إلى علماء أمريكيين في تصنيع القنابل ذو الانشطار المصوب التي تم إسقاط إحداها على مدينة هيروشيما وقنابل الانشطار ذو الأنضغاط الداخلي التي تم إسقاط إحداها على مدينة ناكاساكي وكان الاسم السري لمشروع التصنيع هو مشروع مانهاتن وتم اختبار أول قنبلة في ١٦ يوليو ١٩٥٤ في منطقة تدعى صحراء ألاموغوردو Alamogordo الواقعة في ولاية نيو مكسيكو New Mexico

في الولايات المتحدة. اتخذ القرار بإسقاط القنبلتين من قبل الرئيس الأمريكي آنذاك هاري ترومان.

قبل إلقاء القنبلتين قامت الاستخبارات العسكرية الأمريكية بتزويد البيت الأبيض بقائمة من الأهداف التي اعتبرت كأهداف حيوية وهي: كيوتو، هيروشيما، يوكوهاما، كوكورا، نيكاتا ولكن تم حذف كيوتو من القائمة فيما بعد وتم استبدالها بناكاساكي. مدينتي هيروشيما وناكاساكي اختيرا لكونهما مركز اتصالات لحركات الجيش الياباني حيث لم توجد في أي من المدينتين مصانع عسكرية أو معسكرات ضخمة للجيش الياباني والنقطة الأخرى التي ساهمت في اختيار المدينتين هي كونهما لا تحتويان على سجون للمعتقلين من الجيش الأمريكي.

تم تكليف الطيار بول تيببتس Paul Tibbets الذي كان يقود طائرة من نوع B-29 بإلقاء قنبلة الولد الصغير التي كانت أحد القنابل ذو الانشطار المصوب على هيروشيما وتكليف الطيار تشارلس سويني Charles Sweeney الذي كان يقود طائرته من نوع Bockscar بإلقاء قنبلة الولد السمين التي كانت من قنابل الانشطار ذو الأنضغاط الداخلي على مدينة ناكاساكي وقد تعرض قرار وضع هاتين الطائرتين فيما بعد في متحف الطائرات الحربية الأمريكية لشمزازا من قبل الكثيرين.

أدرك المركز الرئيسي للاتصالات العسكرية في طوكيو أن هناك خلافا في اتصالاتها مع مدينتي هيروشيما وناكاساكي حيث قطعت جميع الاتصالات السلكية واللاسلكية مع المدينتين فأرسلت القيادة اليابانية مجموعة من الطائرات للاستطلاع بعد ٢٠ دقيقة حيث شاهد الطيارون اليابانيون سحابة ضخمة فوق المدينتين على بعد ١٦٠ كم ولم تدرك القيادة اليابانية تفاصيل ما حدث إلا بعد ١٦ ساعة عندما قام الرئيس الأمريكي هاري ترومان بتصريح حول إلقاء القنبلتين من البيت الأبيض.

وبعد سنوات من إلقاء القنبلتين لقي ٦٠,٠٠٠ آخرين حتفهم نتيجة التأثيرات الإشعاعية للقنبلة النووية إضافة إلى ١٢٠,٠٠٠ الذين لقوا حتفهم في الدقائق الأولى للالتفجارين وحسب الإحصاءات المحلية للمدينتين والتي قدمت عام ٢٠٠٤ وصل العدد الإجمالي للضحايا إلى ٢٣٧,٠٦٢.

وأفرزت أوروبا الحركة الفاشستية fascism<sup>(٤)</sup> والذي أفرز شباباً تربى على مبدأ " اعتقد - طع - حارب) وتشبعوا بالمثل التي يرمى إليها الفاشست وهي السيادة والسيطرة على الشعوب الصغيرة<sup>(٥)</sup> والنازية التي دمرت الكثير من الإنجازات الإنسانية حينما حكمت الأولى في إيطاليا والأخرى في ألمانيا. وديكتاتورية الجنرال بريمو دي ريفارا عام ١٩٣٤م، والجنرال كارمونا في البرتغال عام ١٩٣٩م. بعدما استولى على مدينة لشبونة الجنرال غوميز دي كوستا. وفي اليونان عام ١٩٢٥م مع الجنرال بنغالوس. وبلغاريا بزعامة تسانكوف بين عام ١٩٢٣ و ١٩٢٦م.

وخلفت الحرب خسائر بشرية جسيمة بلغت ٥٥ مليون قتيل و ٣٥ مليون جريح و ٣ مليون في عداد المفقودين وأصبحت مدن العالم خراباً وحطاماً ففي فرنسا تحطم نحو ٥٥,٠٠٠ ألف مصنع و ٢ مليون مسكن وأكثر من ٧٠٠٠ كيلو متر من السكك الحديدية و ٧٥٠٠ من الكبارى والجسور، وفي روسيا تهدمت مدن لا يقل عددها عن ١٧٠٠ وأكثر من ٧٠,٠٠٠ قرية وتشريد نحو ٢٥ مليون شخص وأكثر من ٣٠ ألف مصنع.

ولكل هذه الأمور أصبحت مسيرة العلاقة بين الغرب والعالم الإسلامي مليئة بنقاط التوتر والحذر وبؤر الانفجار والمواجهة. وبفعل حالة الحذر والترقب التي كانت تسود العلاقة التاريخية بين الطرفين أصبحت القضية معركة تاريخية مستمرة.

وكشف العنف الأوربي عن عبقريته الوحشية الفذه عندما اخذ أثناء الحروب العالمية يبني المصانع الضخمة لقتل البشر بالجملة وقد كانت هذه المصانع المقامة للقتل تبدأ عملها بعد فترة طويلة من التعذيب وكان التعذيب جسدي ونفسي

٤- اصطلاح الفاشية "fascism" مشتق من الكلمة الإيطالية fasces، وهي تعني حزمة من الصولجانات كانت تحمل أمام الحكام في روما القديمة دليلاً على سلطتهم. وفي تسعينيات القرن التاسع عشر بدأت كلمة فاشيا "fascia" تستخدم في إيطاليا لتشير إلى جماعة أو رابطة سياسية عادة ما تتكون من اشتراكيين ثوريين. وكان توظيف موسوليني لوصف الجماعة السريالية المسلحة السقي حشكتها في أثناء الحرب العالمية الأولى وبعدها أول موسوليني في زيه الفاشي مؤشراً على أن اصطلاح "fascisma" قد حظي بمعان أيديولوجية واضحة، وعلى الرغم من ذلك فعادة ما يفترق توظيف اصطلاح "الفاشية" "fascism" و"الفاشي" "fascist" إلى الدقة، فكثيراً ما تستخدم كاصطلاحات قذف إلى الإساءة السياسية للخصوم السياسيين والاقام لهم بالديكتاتورية ومعاداة الديمقراطية.

٥- على عبد اللطيف: الجالية الإيطالية في مصر، مكتبة الأجلو المصرية ٢٠٠٠، ص ٢٦.



ويتعرض فيه الإنسان بكل ما نجح فيه العقل الأوروبي في إنتاجه من وسائل امتهان الكرامة البشرية لقد تجاوزت وسائل العنف الأوروبي الحدود التي لا يمكن للعقل الإنساني تصديقه.

ومن سخرية التاريخ الهزلي الأوروبي أن الحلفاء كانوا يدعون أن الحرب قائمة في سبيل جعل العالم مكاناً آمناً!! وينعم بالديمقراطية والحرية وأعلن تشمبرلين أن بريطانيا قد أعلنت الحرب بدافع من أسباب عادلة!! ولما كان منطق الأرقام منطق حاسم نعرض إحصائيات قام بها الأوربية، أنفسهم كما قام بها خبراء منظمة هيئة الأمم المتحدة بلغ ضحايا الحرب الأولى عشرة ملايين نسمة. والثانية ثلاثين مليون من البشر، وهي أرقام تحمل اصدق الأدلة علي مقدار ما بلغه الغرب من عنف.

ويحفل تاريخ أوروبا بنماذج من الطغيان والاستبداد، وقد غني الفكر الإنساني بهذه الظاهرة، ونعطي نموذجاً لأشهر أساتذة الصدام في فترة عصر النهضة وامتد تأثيره حتى اللحظة الراهنة وهو "نيقولا مكيافيلي".

#### "ماكيا فيلي نموذجاً":

من مواليد فلورنسة عام ١٤٦٩. كان أبوه محامياً معروفاً بنزعه الإنسانية. بدأ حياته المهنية عام ١٤٩٨ في ميدان العمل السياسي. وإذا كان مكيافيلي قد ألف الكثير من الكتب والدراسات في حقول التاريخ، وخاصة تاريخ فلورنسة، والسياسة والدبلوماسية والاستراتيجية: فإن اسمه قد ارتبط تحديداً بكتابه الذي يحمل عنوان "الأمير".

المقولة المركزية التي يسهب مؤلف هذا الكتاب في تحليلها بالمبادئ الفكرية والفلسفية التي طرحها مكيافيلي هي تلك التي أكد فيها بأن "القوة تصنع الحق" في المنظار السياسي للطامحين إلى السلطة. كما رأى بأن الناس يجدون في القوة ما يدفعهم للخضوع لها. وكان مكيافيلي قد شغل منصب مستشار كبير في جمهورية فلورنسة عندما لم يكن قد بلغ الثلاثين من عمره. كما تولى العديد من الوظائف السياسية الرفيعة اثبت من خلال ممارستها بأنه سياسي ودبلوماسي بارع يعرف كيف يواجه المسائل الدقيقة ويحافظ بنفس الوقت على ولائه لوظيفته وللسلطة التي تمثلها. وقد عرف كيف يحافظ على مواقفه الا في حالة واحدة مثلت نوعاً من

الاستثناء في مسيرته وتخص علاقه بسلالة آل ميديتشي في فلورنسة الذين اختلف معهم واتهموه بالتآمر لحساب معارضيتهم مما جلب عليه غضبتهم ودفعهم إلى نبذه مما جعله يعرف لفترة من الزمن مرارة التشرد. لكن ذلك التشرد اعطاه هامشاً اكبر من الحرية حيث تحدث بهذا الخصوص عن التمايز الكبير بين ما كانوا يظهرون وما كانوا يبطنون.

بحث مكيافيللي تاريخ أوروبا خلال القرون الأربعة التي تلت انهيار الإمبراطورية الرومانية امتدت من القرن الثاني عشر وحتى السادس عشر والتي تميزت بكثير من الجمود والانحطاط وسيادة التوجهات الظلامية ومحاكم التفتيش Inquisition وتحجر المجتمع.

وقد ركز دراساته بشكل خاص على الحالة الإيطالية حيث حاول ان يبرز مفارقاتها وتناقضاتها من موقع المفكر والمشارك في صنع الحياة العامة. وكانت الفترة التي عاش فيها مكيافيللي، كما يصفها مؤلف هذا الكتاب، هي تلك التي شهدت اعمق التحولات الفكرية والسياسية في التاريخ الأوروبي الحديث، وهي الفترة المعروفة بعصر النهضة الأوروبي الذي كانت إيطاليا، وفلورنسة بشكل خاص، أحد منابته الأساسية على صعيد الفن والفكر والأدب ومفاهيم السياسة والحكم وسلطة الدولة. كما شهد القرن الخامس عشر في نهاياته، وبدايات القرن السادس عشر تزايداً وتكدساً كبيرين على صعيد الثروات وتوسعاً في حركة التجارة وتنامياً في دور سلطة رأس المال. هذه الظواهر كلها أدت في الواقع الاجتماعي إلى ظهور طبقات جديدة لم تكن ولاداتها بعيدة عن جو التوتر الكبير الذي تميزت فيه تلك الفترة، وخاصة بين انصار القديم وعلى رأسهم ممثلي الكنيسة الكاثوليكية وبين دعاة الثقافة الجديدة في شتى الميادين.

باختصار شهدت الفترة التي عاش فيها مكيافيللي احداثاً اقتصادية وسياسية كبيرة لم يكن اقلها انهيار عرش البندقية وظهور مشروعات ذات طابع استعماري مع ما رافق ذلك من نزعات توسعية باتجاه أسبانيا والبرتغال، وأيضاً ظهور الشركات الكبرى على صعيد التجارة مع ما رافقها من مفاهيم جديدة تتعلق بالأسعار والإنتاج والربح وتكدس الثروات هذه المفاهيم التي هزت أسس المجتمع القديم وأبرزت قيماً جديدة تقوم بشكل أساسي على المصلحة والمنفعة في مجال

المعاملات والعلاقات الاجتماعية. كانت تلك هي البدايات الحقيقية لقيام المجتمع الرأسمالي وصعود سلطة الطبقات البورجوازية.

وتزامن التبدل الاجتماعي العميق الذي عرفته بدايات القرن السادس عشر في أوروبا مع نهضة فكرية كان دعاة الفكر ذي النزعة الإنسانية، أو ما يمكن ان نطلق عليهم تسمية "الإنسانيين" هم اقطابها الحقيقيون، وهم من يتم اعتبارهم الآن بمثابة رواد الحضارة الأوروبية الحديثة. هؤلاء المفكرون عكفوا على دراسة تجارب الشعوب والأمم منذ زمن الإغريق والرومان القدماء وتأملوا تاريخ الممالك التي سادت لفترة من الزمن ثم انهارت وطواها الزمن. لقد حاولوا ان يفهموا أسباب نهوضها وعظمتها وأسباب انحطاطها وانهارها. وناقشوا أيضاً مختلف النظريات السياسية الخاصة بنظم الحكم وآليات عملها والقواعد التي تقيم شرعيتها عليها. وقد برزت ضمن هذا السياق أسماء مفكرين عديدين كان في طليعتها اسم مكيافيللي وخاصة في كتابيه الشهيرين "الأمير" و"المقالات" وكان من شأن الأفكار التي طرحها هؤلاء المفكرين ان ساهمت في الكشف عن الآليات الزائفة التي سادت في آليات ممارسة السلطة خلال العصر الوسيط في أوروبا.

وقد تمثل أحد المصادر الأساسية في تشرب مكيافيللي للفكر الإنساني الذي ساد في عصره في الأسرة التي عاش بكنفها اذ كان ابوه محامياً واسع الثقافة والاطلاع وذا نزعة إنسانية تبذت في تعلقه بالثقافة وبالتراث الإنساني منذ الحقب القديمة. وقد وجّه الأب ابنه بهذا الاتجاه وغرس فيه حب الثقافة والمعرفة. لقد انكبّ الشاب مكيافيللي على دراسة النتاج الفكري الإنساني واهتم بشكل خاص بدراسة فن السياسة وتاريخها، وحيث كانت قد بدأت بالاقتراب من موقع العلم "علم السياسة" المحكوم بمعطيات الواقع وعلاقات البشر وأدوات القوة.

وأبدي مكيافيللي منذ كتاباته الأولى كفاءاته الكبيرة كناقذ للواقع الذي كانت تعيشه إيطاليا. وقد اعتمد في نقده على رصد الواقع أولاً ورسم لوحة عيانية له كما هو وبكل معطياته وتلاوينه ومكوناته. لقد درسه "كما هو" وليس "كما ينبغي ان يكون"، واعتبر "مكيافيللي" باستمرار ان الخطوة الأولى في التأثير بأي واقع تتمثل قبل كل شيء بفهمه من خلال موازين القوى الحقيقية الموجودة فيه. وقد رفع مكيافيللي شعاراً، رفعه أيضاً المفكرون الإنسانيون كلهم، يقول بألوية "الفضيلة" والتي كانت بمفهومها السائد آنذاك بمثابة مرادف لـ "الرجولة الكاملة" وضرورة

التمييز عن الآخرين من أجل إمكانية تسييرهم وقيادتهم من موقع "الاقوى". فكرة "التمايز" عن الآخرين كانت في فترة مكيافيللي أحد أهم القيم في جميع الميادين حيث عنست مفهوم "البطولة" في الفن والأدب والسياسة والاقتصاد... الخ.. وكان هذا يتطلب في واقع الأمر تغيرات جوهرية عميقة في النظرة إلى العلاقات السائدة آنذاك والموروثة من خلال تجربة عدة قرون شكلت فترة العصور الوسطى.

وتكمن خصوصية المسيرة الفكرية والسياسية التي مثلها مكيافيللي في كون أنه بنى هذه المسيرة بالاستفادة من دروس التاريخ ومحاولة فهم الأسباب العميقة الكامنة وراء انتصارات الاقدمين وهزائمهم. وقام على أساس هذه الدروس بدراسة تجارب الحكم السائدة في عصره على أساس السلوك العملي لأصحاب القرار في علاقتهم بالولئك المعنيين بقراراتهم وذلك بالاعتماد على أساس "السلوك العملي" وليس على أساس معايير أخلاقية لا تمت بصلة إلى ذلك السلوك بل وتتناقض معه في أحيان كثيرة. باختصار ناقش مكيافيللي علاقات الواقع والنظم الاجتماعية وآليات عملها وتمفصلاتها ودور الحاكمين بالمحكومين فيها وعناصر القوة والضعف فيها على أساس معطيات الواقع، وعلى أساس "الفعل" وليس "القول".

ويقارن مؤلف هذا الكتاب بين ما فعله مكيافيللي على صعيد السياسة وما فعله "كالفن" في مجال الإصلاح الأخلاقي على أساس مبادئ الكنيسة، و"جان كالفن" هو مصلح ديني وكاتب فرنسي عاش في النصف الأول من القرن السادس عشر، وقد قاد حركة عرفت باسم "المكالفينية" والتي كان لها دور كبير على الصعيد الاقتصادي رغم أنها كانت دينية بحتة في الأصل. أنها مجدت العمل وأجازت مبدأ الاقتراض وهكذا ارتبطت إلى حد كبير مع ازدهار الرأسمالية. وساهمت "الكالفينية" على الصعيد السياسي بتطوير المبادئ الديمقراطية والقيم الثقافية. إن مثل هذه الأفكار وجدت أصداءها لدى مكيافيللي، وذلك من حيث المطالبة بالاستفادة من دروس التاريخ وفهم معطيات الواقع والتأقلم معها بقصد إمكانية التقدم إلى الأمام.

لقد درس مكيافيللي التاريخ القديم، واهتم بشكل خاص بدراسة الهزائم والانتصارات منذ حروب "البيلوبونيز" وخطط أثينا واسبرطة. وانتهى إلى استنباط العديد من النتائج التي اعتبرها ذات قيمة مستمرة وفي مقدمتها التأكيد على أهمية فهم الواقع والتأقلم مع الظروف المتغيرة بعيداً عن الأطر الجامدة والتصورات الذهنية التي قد لا تكون ذات صلة بالواقع، بل يفصلها عن هذا الواقع، الواقع نفسه.

وقد أولى مكيافيللي في تحليلاته أهمية كبيرة للاقتصاد الذي اعتبره بمثابة أحد المحركات الأساسية للتاريخ وللتطور الإنساني.

وقد أولى مكيافيللي أهمية خاصة أيضاً لدراسة "فن الحرب" كما جاء في عنوان أحد فصول هذا الكتاب وحيث يؤكد المؤلف بأن صورة مكيافيللي القائد والمنظر الحربي طغت اليوم بشكل شبه كامل على صورته كرجل سياسة وكديبلوماسي على الرغم من السنوات الطويلة التي أمضاها في مناصب دبلوماسية ضمن إطار حكومة فلورنسة ورغم أعماله الكثيرة حول السياسة وفنها.

لكن هذا لا يمنع واقع أن شغله الشاغل كان باستمرار هو التخطيط لـ "فن الحكم" والذي كان "فن الحرب" أحد أدواته الرئيسية وكانت مهمة مكيافيللي في فترة من الفترات هي إعادة تنظيم جيش فلورنسة وإجراء إصلاحات مطلوبة على صعيد اختيار المحاربين ورسم خطط الحرب. وكان موقع المسؤولية الذي وجد نفسه فيه ولمرة واحدة في حياته، مناسبة لا تعوض بالنسبة له كي يحقق نظرياته على أرض الواقع، وليس في ميدان السياسة، ولكن على صعيد "فن الحرب" هكذا أصبح المنظر رجل فعل وتطبيق على الواقع. لكن أثناء المواجهة مع الأسبانين عام ١٥١٢، هربت أعداد كبيرة من "الميليشيات" التي كان مكيافيللي قد عبأها على أساس مفاهيمه "الحرب" وكان ذلك بمثابة فشل ذريع بالنسبة له ونهاية لتقلده مناصب عليا في أية حكومة لاحقة، لكنه كان بنفس الوقت مناسبة للقيام بدراسات نظرية معمقة حول أسباب تلك الهزيمة. ولا يتردد مؤلف هذا الكتاب في التأكيد بأن كتابات مكيافيللي حول الحرب كانت معادلة على الأقل، لكتاباته حول السياسة. وقد كان كتابه "فن الحرب" من أواخر الأعمال التي قَدَّمها وظهر من خلالها بوضوح اهتمامه المستمر بكل ما يتعلق بالقوات العسكرية وقادتها وخططها وحملاتها. ومن الملاحظ بأن مكيافيللي خالف في أطروحاته حول "الحرب" الأفكار التي كانت سائدة في عصره وخاصة فيما يتعلق بطبيعة الجيوش ونمط قيادته وطالب بعملية إصلاح شبه كاملة للمفاهيم الدفاعية كما طالب بالعودة إلى تقاليد حربية مغرقة في القدم.

ودرس مكيافيللي أنماطاً عديدة من الحروب شهدتها إيطاليا في عصره. حروب بين الأحزاب المتصارعة ونزاعات داخلية وتدخلات أجنبية. ولاحظ بأن أهم السمات التي كانت سائدة آنذاك تمثلت بنقص الثقة المتبادلة بين جميع الأطراف والاعتماد في أغلب الأحيان على المرتزقة. إن مكيافيللي أكد في جميع كتاباته

رفضه القاطع والمانع لمفهوم "المرتزقة"، وقد أعاد هذا الرفض إلى عدة أسباب تعود "لتجارب المعاشة التي عرفها وعاشها هو نفسه وإلى خيار فكري لديه وإلى تعلقه ببعض القيم الأخلاقية والمدنية"، وكان يرى بأن "المرتزقة الذين يطالبون دائماً بالمزيد من المكاسب كانوا يقتلون كثيراً على خزينة الحكومات". ومن جهة أخرى كانوا في جميع الحالات يقومون بالخدمة مقابل المال وبالتالي لم يكن لهم أي ولاء حقيقي سوى لأولئك الذين يقومون بـ "توظيفهم".

بالمقابل دافع مكيافيللي عن فكرة تقول بأن "أبناء المدينة والبلاد وحدهم المهمدون بحياتهم وبممتلكاتهم يمكن أن يحاربوا ويقبلوا التضحيات التي تتطلبها الحملات العسكرية الحقيقية" وهو يؤكد دون أي غموض أو التباس بأن "المعنيين من أبناء البلاد بالحرب مؤهلون للانتصار ضد أولئك الذين يحاربون مقابل "المال". وفي الواقع تتمثل فلسفة "فن الحرب" لدى مكيافيللي، بالدرجة الأولى، على مقولة "غياب أية مصلحة وطنية لدى المرتزقة الذين قدموا من مشارب متنوعة ولا ينتمون إلى وطن محدد".

بكل الأحوال يبقى كتاب "حول الحرب" هو أحد أهم مؤلفات مكيافيللي إذ أنه يسمح إلى حد كبير، وأكثر من أغلبية أعماله الأخرى، بفهم شخصيته وبادراك اتساع معارفه وثقافته الموسوعية وأيضاً ميله الكبير نحو الدقة والاهتمام بالصغر التفاصيل والتأكيد على ضرورة الحسابات بأرقام دقيقة وليس تقريبية. ولعل من أهم الصفات التي تفرّد بها بالقياس إلى الذين سبقوه أو عاصروه من الذين قدموا أفكاراً حول التنظير الحربي هو أنه كان على دراية كبيرة بالأبعاد التقنية للمسائل العسكرية ولد "فن الحرب" بالمعنى الدقيق لهذا التعبير. أما الداء الأكبر الذي يرى به مكيافيللي الخطر الأكبر فإنه يتمثل في "الفساد" الذي يهدم أسس المجتمع ذاتها.

ومن الأفكار الأساسية في أطروحات مكيافيللي تأكيده المستمر والحازم على أن المصالح المادية تشكل محركاً أساسياً من محركات التاريخ. وإن وجود سلطة قوية يشكل أفضل الضمانات لصيانة هذه المصالح. وتبدو هذه الفكرة في حالة تصالح كامل مع فترة بدايات ازدهار الآليات الرأسمالية على صعيد الاقتصاد والمجتمع. مع التأكيد في الوقت نفسه على أهمية القيام بـ "قراءة" صحيحة لتجارب الأقدمين والاستفادة من حكمتهم، وحيث يقول في كتابه الشهير "الأمير" ما يلي: "لقد رجعت إلى تجارب الأقدمين وغادرت معهم واستوضحتهم عن الخلفيات

التي قامت عليها أعمالهم". وفي المحصلة النهائية يرى مكيافيللي أن "المجد والثراء" هما في طليعة الأهداف السامية التي ينبغي على الإنسان العمل من أجل تحقيقها. أما القانون فهو أمر مطلوب لكن بناء جيش أكثر أهمية منه، ذلك أن القانون بحاجة إلى جيش قوي يحميه، والناس "أكثر التزاماً بمصالحهم الفردية"، كانت النزعة الفردية قيمة أساسية في عصر مكيافيللي وقد دفع هذه النزعة إلى أقصاها عندما قال في جملة منقوشة على قبره: "أن أبلغ تعابير التأبين أقل عظمة من هذا الاسم".

#### برنارد لويس نموذج آخر

##### Bernard. Lews لويس

ولد برنارد لويس في لندن عام ١٩١٦، وهو مستشرق بريطاني الأصل، يهودي الديانة لعائلة يهودية أشكنازية، صهيوني الانتماء، أمريكي الجنسية. تخرج من جامعة لندن سنة ١٩٣٦، ودرس في باريس، وتتلذذ على كل من ماسينيون الذي كان يعنى عناية خاصة بتاريخ الفرق الإسلامية وبالتصوف. وعلى هاملتون جب الذي نال على يديه الدكتوراه عن أطروحته في تاريخ الإسماعيلية. عمل برنارد في جامعة لندن مدرساً في قسم التاريخ - مدرسة الدراسات الشرقية الإفريقية - حتى ترأس هذا القسم في أول أكتوبر ١٩٥٧، وظل رئيساً له مدة خمسة عشر عاماً. ثم انتقل إلى قسم دراسات الشرق الأدنى بجامعة برنستون بولاية نيوجرسي الأمريكية سنة ١٩٧٣، بالإضافة إلى عضويته الدائمة في معهد برنستون للدراسات المتقدمة. حصل برنارد على الجنسية الأمريكية سنة ١٩٨٢، وهو الآن أستاذ متقاعد، ومازال يحتفظ بمكانته العلمية في الجامعة. وظف برنارد علمه وإمكاناته وذكاءه لخدمة قضيته (المشروع الصهيوني) بأبعاده السياسية والثقافية، فتقاطع مع المشروعين الغربي الأوربي في مرحلة ومع المشروع الأمريكي في مراحل. ودون أن نزع أن برنارد لويس لم يكن يتقاطع مع الحقيقة. فهو في منهجه العلمي ليس رصيناً لا يمكن النيل منه ولكنه في الوقت نفسه كان يجيد جملة أمور:

- الانتقائية حيث يختار من الحقائق، ومن السياقات التاريخية ما يؤيد رواه.

- التعميم في غير محله حيث يعتبر الجزئية أساساً ويلغي الكلية، ويعتبر الفرد ويترك الجماعة، ويعتبر الفرق ويضرب عن الأصل.
  - وهو يجيد توظيف الحقائق الصغيرة على نحو يجعلك تعجب ببراعته وقدرته على الإقناع، ببدايات ومعلومات تنتزع من سياقتها لتوظف في سياقات أخرى.
  - وكصاحب قضية دخل برنارد دائماً بأراء مسبقة حاول أن يجد لها في عالم الإسلام والمسلمين شواهدا.
- كتب برنارد لويس كثيراً. وتداخل في تاريخ الإسلام والمسلمين، حتى اعتبر مرجعاً فيه، فكتب عن الحشاشين وعن أصول الإسماعيلية والفاطمية والقرامطة وكتب في التاريخ الحديث كتابات ليست في مستوى البحوث التي قدمها في الكتابات التاريخية، ذلك أن النزعة الصهيونية التي يصرح بها هو ويؤكدها سيطرت على كتاباته في التاريخ الحديث، فظهرت أقرب إلى الكتابات الإعلامية منها إلى الكتابات العلمية المنهجية. وكتب عن الإسلام والغرب، وعن صدام الحضارات تأسيساً لما كتبه زميله (صموئيل هنتنغتون)، وكان العنوان الفرعي لهذا الكتاب (المسيحيون والمسلمون واليهود في عصر الاكتشافات)، وكتب عن الشرق الأوسط: ألفا سنة من التاريخ من فجر المسيحية حتى يومنا هذا، وكتب عن الساميين وغير الساميين). عن (مركز المدينة المنورة لدراسات الاستشراق).
- يمثل برنارد شخصية دمثة، فهو سهل الأخلاق، لين العريكة، تخرج على يديه الكثير من طلاب الشهادات العالية العرب والمسلمين، الذين يحتفظون عنه بذكريات طيبة، وهو عذب الأسلوب، سلس العبارة، مقنع في إيراد الحجج وتوظيفها، ولا سيما لغير المختصين.

ومن أشهر مؤلفات برنارد لويس:

أهم مؤلفاته

- "العرب في التاريخ" (The Arabs in History)؛ ص ٢٥٦، لندن ١٩٥٠.
- 256 ص؛ لندن 1950
- "ظهور تركيا الحديثة" (The Emergence of Modern Turkey)؛ ص ٥٢٤، نيويورك ١٩٦١.



- "الحشاشون: فرقة متطرفة في الإسلام" (The Assassins: A Radical Sect in Islam)؛ ص ١٧٦، لندن ١٩٦٧.
- "المسلمون يكتشفون أوروبا" (The Muslim Discovery of Europe)؛ ص ٣٥٢، نيويورك ١٩٨٥.
- "يهود الإسلام" (The Jews of Islam)؛ ص ٢٨٠، نيويورك ١٩٨٧.
- "الإسلام: من النبي محمد وحتى فتح القسطنطينية" (Islam: From the Prophet Muhammad to the Capture of Constantinople)؛ ص ٣٥٢، نيويورك ١٩٨٧.
- "لغة السياسة في الإسلام" (The Political Language of Islam)؛ ص ١٨٤، شيكاغو ١٩٨٨.
- "العرق والرق في الشرق الأوسط" (Race and Slavery in the Middle East)؛ ص ٢٢٤، نيويورك ١٩٩٠.
- "عالم الإسلام: إيمان وشعوب وثقافة" (The World of Islam: Faith, People, Culture)؛ ص ٣٦٠، نيويورك ١٩٩١.
- "الإسلام والغرب" (Islam and the West)؛ ص ٢٤٠، نيويورك ١٩٩٣.
- "الإسلام في التاريخ: أفكار وشعوب وأحداث في الشرق الأوسط" (Islam in History: Ideas, People and Events in the Middle East)؛ ص ٤٩٦، شيكاغو ١٩٩٣.
- "تشكيل الشرق الأوسط الحديث" (The Shaping of the Modern Middle East)؛ ص ٢٠٠، نيويورك ١٩٩٤.
- "ثقافات متناحرة: مسيحيون ومسلمون ويهود في عصر الإكتشاف" (Cultures in Conflict, Christians, Muslims and Jews in the Age of Discovery)؛ ص ١٢٦، نيويورك ١٩٩٤.
- "الشرق الأوسط: تاريخ موجز لألفي عام" (The Middle East: A Brief History of the Last 2,000 Years)؛ ص ١٩٩٥، نيويورك ١٩٩٥.
- "كمال أتاتورك: تحويل صورة أمة" (Kemal Atatürk: Transforming the Image of a Nation)؛ ص ١٤١، ١٩٩٥.
- "مستقبل الشرق الأوسط" (The Future of the Middle East)؛ لندن ١٩٩٧.

- "الهويات المتعددة للشرق الأوسط" (The Multiple Identities of the Middle East)؛ ص ١٧٦، لندن ١٩٩٨.
  - "فسيفساء الشرق الأوسط" (A Middle East Mosaic)؛ ص ٤٩٦، نيويورك ٢٠٠٠.
  - "ما الخطأ؟" (What Went Wrong؟)؛ ص ٢٠٨، لندن/ نيويورك ٢٠٠٢.
  - أزمة الإسلام: الحرب المقدسة والإرهاب المدنس (The Crisis of Islam: Holy War and Unholy Terror)؛ ص ١٩٠، نيويورك.
- وينتمي برنارد لويس إلى نخبة من المفكرين<sup>(١)</sup> والباحثين التاريخيين وقادة الفكر الإستراتيجي في الولايات المتحدة، أمثال صاموئيل هانتغتون (Samuel Huntington)، صاحب نظرية "صراع الحضارات" التي استقاها من مقالة للويس بعنوان "عودة الإسلام، وفرانسيس فوكوياما (Francis Fukuyama)، القائل بـ "نهاية التاريخ"، الذين تبنت أفكارهم ونظرياتهم الداعية، في جلّها، إلى تكريس النظرة الأحادية إلى العالم من بوابة الإمبراطورية الأميركية المنتصرة، مجموعة من صنّاع القرار في واشنطن، من المحافظين الجدد، وروجت لها مؤسسات الأبحاث السياسية والإستراتيجية، وصارت كتبهم على قائمة المبيعات الأكثر رواجاً وتغطية على الصعيد الإعلامي.
- نجحت هذه المجموعة ودعاتها والمروجين لأفكارها ومناهجها الفكرية الاستغلالية في أدلجة التتميط، المستشري أصلاً في المجتمع الأميركي، لصورة العرب والمسلمين السلبية، وفي إعطائه بعداً فلسفياً وفكرياً عميقاً، خاصة بعد أحداث (سبتمبر) ٢٠٠١ وارتداداتها الداخلية والخارجية. وعلى خلفية استشرى ثقافة الخوف من الإرهاب التي اجتاحت المجتمعات الأميركية منذ تلك الأحداث، انتشرت على جميع المستويات الثقافية والعقائدية، بما في ذلك تلك التي تعتدّ بليبراليتها، الكثير من التعميمات النمطية التبسيطية والمتعجرفة التي وجدت أرضية خصبة لها في الأوساط الإعلامية الأميركية المعادية أصلاً للعرب والمسلمين. مثالاً على تلك التعميمات التي أصبحت متداولة على ألسنة النخب كما العامة: "هذا هو الإسلام"؛ "المسلمون أعداء التغيير"؛ "هم هكذا!!"؛ "كان المسلمون وسيظلون على ما

٦- خليل الصغير: ليتذكر المسلمون نعمة الاستعمار، مجلة مدارات عربية (لبنان) العدد ٤ - الأحد، ديسمبر ٢٠٠٤.

هم عليه؛ "الإسلام نقيض الديمقراطية"؛ "العرب معادون للديموقراطية"؛ "الإسلام ضد الحرية"؛ "إنهم يكرهوننا لأننا نحب الحرية".. إلخ. وزاد في تقشي هذه الظاهرة وجود "مستشرقين"، من أمثال برنارد لويس، يملكون من الخلفية الثقافية والفكرية والمؤهلات الأكاديمية والبحثية والخبرة في الطرح والنقد والمجادلة وصناعة الرأي ما يسدّد مرامهم ويؤيّد طروحاتهم المؤدلجة.

ولقد وقف المفكر العربي- الأميركي الراحل د. إدوارد سعيد - وهو أحد صناع الثقافة الغربية في الربع الأخير من القرن المنصرم والناقد الأهم لحركة "الإستشراق" ندأً عنيداً وناقداً صارماً لتلك الشريحة من المستشرقين الذين "خانوا رسالتهم كبخاتة".

وقد كان له رحلة مخصصة مع "عميد الإستشراق" برنارد لويس، مفنداً مزاعمه وتعميماته، ومبرزاً حجم التناقضات التي وقع فيها في أبحاثه وتحليلاته، وكاشفاً حقيقة مقاصده ومراميه لا سيما لجهة التزامه التصوّر الصهيوني، بشكلٍ سافرٍ ومبطنٍ في آن. لكن سعيد لم يوفق في مساعيه النقدية في التصدي لهؤلاء "المستشرقين الجدد" لأسباب عدة أبرزها أنه عربي الأصل، وبالتالي فهو لم يكن محايداً- من وجهة نظر أميركية- في مواجهة مفكر يهودي مثل لويس، حيث اتهمه بأنه لم يَر إلى حركة الإستشراق إلا من زاوية مؤامراتية تخدم المصالح الإمبريالية على حساب شعوب المنطقة.

أما أكثر نقاط النقد لأفكار برنارد لويس إثارة للجدل فهي تلك التي تتصل بأسلوب التتميط والتعميم الذي يمارسه لويس في حق العرب والمسلمين. فهو ينتقي موارده بشكلٍ يصعب على النقاد محاججته أو التشكيك بصحتها. وهو يستشهد، إضافة إلى آيات من القرآن الكريم وأحاديث الرسول، بوقائع تاريخية، قديمة وحديثة، تنتمي إلى حقبة معينة وتتصل بفئة أو مجموعة أو مجتمع إسلامي بعينه، ثم يقوم بتحليلها وإسقاط نتائج ذلك ومدلولاته، بشكلٍ تعميمي سافر، على العرب/ المسلمين جميعاً وعلى امتداد تاريخهم، أو على حقبة كاملة منه.

في كتابه "مستقبل الشرق الأوسط الصادر عام ١٩٩٧، كتب برنارد لويس نبؤاته عن مستقبل المنطقة ودولها وشعوبها على أعتاب القرن الواحد والعشرين. وقد عرض الكتاب لمجمل الطروحات الفكرية والسياسية والإستراتيجية التي كانت حينها على قمة أولويات البحث. وازداد الاهتمام بها ليأخذ أبعاداً معلومة بعد أحداث

أيلول (سبتمبر) ٢٠٠١ وانطلاق الحملة الأميركية في سياق "الحرب على الإرهاب".

لعل أبرز هذه الطروحات: مقاربتة لفكرة "دمج الحرية والإيمان بشكل لا يستثني أحدهما الآخر" كحل لمشاكل الإسلام السياسي؛ وتعمقه في تحليل مفهوم الجهاد لدى الحركات الأصولية الإسلامية، ومقارنته بجهاد الصليبيين المسيحيين في القرون الوسطى؛ إلى مقاربتة مستقبل الصراع بين تلك الأصولية الإسلامية والديموقراطية الليبرالية، رغم ميل البعض من تلك الحركات، كما في تركيا وإيران والجزائر، للقبول باللعبة الديموقراطية كوسيلة للوصول إلى السلطة ومن ثم العمل للقضاء على العناصر والأفكار "المعادية لشرع الله". وبعد مقولة تبني وتنظيم وانتشار إرهاب الحركات الأصولية، "الإرهاب في موطنها أثناء وجودها في صفوف المعارضة والإرهاب خارج حدود بلادها عندما تصل إلى السلطة"، يصل لويس أخيراً إلى القضية المركزية المتمحورة حول الصراع العربي الإسرائيلي. في هذا المجال، يبين لويس أن الحل لن يتأتى إلا عن طريق التغيير الجذري لأنماط التفكير في العالم العربي والإسلامي. ويرى إلى سيورة التغيير ابتداء من قبول واعتناق مبدأ التعاون في حل النزاعات، ونمو الحد الأدنى من بنية الاحتكاك والتواصل بين إسرائيل وجيرانها وصولاً إلى "التأقلم". بل أبعد من هذا، فقد يتطور التأقلم مع الوقت ليغدو تسامحاً، والتسامح قبولاً، والقبول ثقة، وقد تتطور الثقة إلى صداقة..."

#### أزمة الإسلام :

"أزمة الإسلام: الحرب المقدسة والإرهاب المدنس"، هو الكتاب قبل الأخير لبرنارد لويس وقد صدرت طبعته الأولى مطلع عام ٢٠٠٣، أي بالتزامن مع الاحتلال الأميركي للعراق. ويمكن اعتبار هذا الكتاب المتوسط الحجم (١٩٠ صفحة) تكملة للكتاب الذي سبقه "أين الخطأ؟".

في مقدمته، يتضمن الكتاب أربع خرائط تاريخية للعالم الإسلامي هي: عصر الخلفاء: تظهر المد الإسلامي منذ انطلاق الدعوة عام ٦٢٢ م. وحتى عام ٧٥٠ م. إبان العصر الأموي؛ الإمبراطورية العثمانية: تتضمن الإمتداد الجغرافي للدولة الإسلامية منذ عام ١٣٠٠ م. وحتى عام ١٦٨٣ م. (تاريخ فشل الجيش العثماني

في دخول فيينا)؛ (٣) عصر الإمبريالية: التقسيمات الاستعمارية لتركيا الإمبراطورية العثمانية بين الدول الأوروبية (بريطانيا، فرنسا، إيطاليا، إسبانيا وروسيا)؛ (٤) الشرق الأوسط الحديث.

حسب برنارد لويس، بدأ التاريخ عند المسلمين مع انطلاق الدعوة الإسلامية نفسها، وهو السبب في تحديد التقويم بتاريخ هجرة النبي محمد من مكة إلى المدينة المنورة. أما ما سبق ذلك، من تاريخ لحضارات الأمم التي سبقت واندثرت، فلم يتعد الاهتمام به درجة ارتباط ذلك بما جاء في القرآن من روايات وأمثلة عن تلك الأمم والشعوب التي كانت تقبع في درك "الجاهلية". وأما التاريخ الإسلامي فيمثل، بالنسبة للمسلمين، نتيجة حتمية لمشئئة الله، وهو بذلك ذو شأن ديني وفقهي-قانوني هام، في حين لا يحمل تاريخ غير المسلمين مثل هذا البعد الإلهي.

لهذا ظل الاهتمام بالموروث التاريخي لفترة ما قبل الإسلام، في بلاد هي مهد الحضارات الإنسانية التي تنتشر الشواهد عليها في كل مكان، في حدوده الدنيا. فقد انقرصت لغات الأقدمين ودفنت مآثرهم تحت الرمال، حتى جاء البحاثة وعلماء الآثار الغربيين ليعيدوا نبشها ودراستها وفك رموزها.

ظل الإسلام، لأكثر من ألف عام، يمثل المصدر المقبول الوحيد للقوانين والتشريعات الخاصة والعامة في حياة المسلمين. ولم يتغير هذا الواقع حتى في ظل وقوع معظم البلاد والشعوب الإسلامية تحت احتلال الدول الأوروبية لها.

لهذا يبدو الفارق شاسعاً بين عالم الإسلام وبقية دول العالم، حين يتعلق الأمر بالشؤون السياسية، محلية كانت أم دولية. إذ لا يجتمع رؤساء الدول الإسكندنافية من وقت لآخر لمناقشة قضايا البلاد البروتستانتية؛ ولا هي من عادة زعماء اليونان ويوغوسلافيا وبلغاريا والاتحاد السوفيتي أن يتناسوا خلافاتهم الإيديولوجية لعقد اجتماع على خلفية العقيدة الأرثوذكسية؛ وكذلك لم تحاول الدول الآسيوية التي يعتنق غالبية سكانها البوذية تشكيل تجمع بوذي في الأمم المتحدة. إن مجرد التفكير في تشكيل تجمعات ضمن هذا الإطار في العالم الحديث قد تبدو غريبة وبلا معنى. لكنها ليست كذلك في العالم الإسلامي. ففي خلال مراحل الحرب الباردة جميعها، كان ممثلو أكثر من خمسين دولة إسلامية، من جمهوريات وممالك وإمارات، ومقن دول محافظة وثورية، رأسمالية واشتراكية، مدعومة من الشرق والغرب، يشكلون تجمعاً دولياً يلتقي بشكل دوري ليتعاونوا بشأن قضايا تهم بلادهم وشعوبهم.

أحد أسباب هذا التميز في الموقف السياسي الإسلامي يعود إلى المستوى العالي من الإيمان والممارسة الدينية لدى المسلمين عامة مقارنة باتباع الديانات الأخرى. السبب الآخر والأهم هو أن الإسلام ليس طريقة عبادة وحسب، وإنما هو أيضاً هوية وانتماء. فبالنسبة إلى الكثير من المسلمين، يمثل الإسلام الهوية والانتماء بحيث يتفوقان على أي هوية أو انتماء آخرين.

أما عن الموجة الثورية الحديثة في الإسلام فتقوم على عدة ركائز. أحد هذه الركائز الشعور بالإذلال، وهو شعور مجموعة من الناس اعتادت أن ترى إلى نفسها كحامية وحيدة للحقيقة الإلهية. إنها تؤدي واجباً إلهياً بتبشير الكفار بالدين الحنيف. لكنها لا تلبث أن تجد نفسها واقعة تحت سيطرة هؤلاء الكفار أو هي متأثرة إلى حد كبير بهم، وبشكل أدى إلى تغيير أنماط حياة المجموعة. إضافة إلى الإذلال، هنالك الإحباط المتأني من فشل جميع الخيارات المستوردة من الغرب لتغيير أحوال الشعوب. وبعد الإذلال والإحباط جاءت الركيزة الثالثة الضرورية للبعث - الثقة بالنفس من جديد والشعور بالقوة. هذا الشعور انطلق وتنامى خلال أزمة النفط عام ١٩٧٣، حين اتخذت الدول العربية المنتجة للنفط، موقفاً داعماً لمصر في حربها ضد إسرائيل، باستخدام النفط كوسيلة مؤثرة جداً. الثروة الناتجة عن ارتفاع أسعار النفط، والفخر، والثقة بالنفس، تم تعزيزها بركيزة أخرى هي: إحتقار الغرب وأخلاقياته.

غير أن السؤال الذي يشغل تفكير صناع السياسة الغربيين اليوم هو البحث عما إذا كان الإسلام، أصولياً كان أم تقليدياً، يشكل تهديداً للغرب؟

يشرح برنارد لويس معنى الجهاد كواجب ديني مقدس، مفاضلاً بين مفهومين للجهاد: جهاد أخلاقي غايته تهذيب النفس وترويضها وجهاد حربي في سبيل الأمة. وهو يستشهد في ذلك بآيات من القرآن الكريم وأحاديث النبي محمد. إلى ذلك فهو يربط مفهوم الجهاد بالسياق التاريخي للفتح الإسلامي، غرباً باتجاه إسبانيا والبرتغال وجنوب غرب فرنسا وجنوب إيطاليا، وشرقاً باتجاه وسط آسيا والهند والصين.

إن مفهوم الجهاد الحربي لدى لويس ينطلق من خطين: الجهاد الهجومي، وغايته نشر الدين الإسلامي، وخط الجهاد الدفاعي، وغايته الذود عن بلاد المسلمين. لكن العالم، في نظر المسلمين، مقسوم إلى ثلاث مناطق: "دار السلام"،

وهي بلاد المسلمين، و"دار الحرب"، وهي بلاد الكفار، و"دار الصلح"، وهي بلاد أهل الكتاب، أو المشركين، أو الكفار، ممن عقدوا صلحاً مع المسلمين يدفعون بموجبه جزية لقاء عدم احتلال بلادهم أو محاربتهم.

ولم يتوقف التزام مبدأ الجهاد الهجومي على زمن الفتوحات الإسلامية الأولى بل امتد حتى السنوات الأخيرة من عمر السلطنة العثمانية. فقد اجتاحت الأفغان، عام ١٨٩٦، منطقة "كوش" الجبلية في شمال الهند، والتي كان يطلق عليها اسم "كافرستان" - أي بلاد الكفار، لتصبح بعد احتلالها "تورستان" - أي بلاد النور. كما أطلق العثمانيون على بلغراد، والتي كانت مركزاً متقدماً في حربهم ضد النمسا في أواخر القرن السابع عشر، اسم "دار الجهاد". وكانت وزارة الحرب التي أنشأها محمد علي باشا في مصر، حسب الهيكلية والتنظيم الفرنسي، تدعى "ديوان الجهادية" والوزير القائم على شؤونها يوصف بـ "ناظر الجهادية".

على الرغم من تعريفه لصفتي الجهاد الفردية والعامّة، ينتقد لويس أولئك الذين يجهدون حالياً للتقليل من أهمية صفته الحربية درأً لشبهة العنف والإرهاب التي ألصقت به. وحسب رأيه، فقد افترق مفهوم الجهاد في العصور الحديثة "قداسته" بينما حافظ على بعده الحربي البحت، وهو ما يبدو جلياً في أدبيات الحركات الإسلامية الناشطة في كشمير والشيشان وفلسطين.

يقول لويس أنه غداة سيطرة الدول الأوروبية على منطقة الشرق الأوسط، مطلع القرن الماضي، لم تقم بضم تلك البلدان إلى سيادتها المطلقة بالشكل التقليدي الذي مارسته في بقية المستعمرات والملحقات الأخرى حول العالم. فقد أوكلت عصبة الأمم حينها إلى كل من فرنسا وبريطانيا انتداب تلك البلدان وإدارتها ضمن مهمة واضحة الأهداف وهي تدريب تلك الشعوب، أو تهيئتها لإدارة شؤونها ذاتياً واستقلالها لاحقاً عن سلطة الانتداب، وذلك ضمن فترة قصيرة جداً، بين الحربين العالميتين. وقد تم، مع نهاية الحرب العالمية الثانية، إعلان انتهاء فترة الانتداب ومنحت تلك البلدان استقلالها، فيما بقي القسم الأكبر من شبه الجزيرة العربية خارج سيطرة الدول المستعمرة.

مع ذلك، فقد كان التأثير السلبي لتلك الحقبة كبيراً جداً في نظر شعوب المنطقة. ورغم تأكيد لويس على أن هذا التأثير ومضاعفاته السلبية كانا كبيرين، إلا أنه يعتبره أدنى بكثير، ولأسباب غير أحادية الجانب، وهو على خلاف ما صورته

الأدبيات الوطنية بعد ذلك. فقد كان لتلك الفترة أيضاً حسنها، خصوصاً على صعد إنشاء البنية التحتية، والخدمات العامة، ونظم التعليم والتغييرات الاجتماعية التي أدت إليها لدى تلك الشعوب، لا سيما لجهة إنهاء ممارسة "العبودية" والانخفاض الكبير في انتشار ظاهرة تعدد الزوجات، مع أنه لم يقض على هذه الظاهرة بالكامل. ويمكن بوضوح تلمس الفارق بين مرحلتَي الاستعمار والاستقلال، وذلك بإجراء مقارنة بين البلدان التي وقعت تحت نير الاستعمار، كمصر والجزائر مثلاً، وتلك التي لم تخسر استقلالها، كالسعودية وأفغانستان. فالسعودية مثلاً لم تعرف الجامعات إلا في فترة متأخرة وبأعداد قليلة جداً. وفي حين يبلغ عدد سكان المملكة ٢١ مليون نسمة، فإن عدد الجامعات فيها لا يتعدى الثماني فقط مقارنة مع سبعة معاهد عليا أنشأها الفلسطينيون منذ الاحتلال الإسرائيلي عام ١٩٦٧. أما العبودية فلم يتم حظرها في السعودية حتى العام ١٩٦٢، فيما لا تزال حقوق المرأة مسلوكة حتى اليوم.

يعيد برنارد لويس سبب فشل المسلمين في مواجهة تحديات الحداثة إلى تمسكهم الطوطمي بأمجاد تاريخهم وموروثهم من هذا التاريخ. وهو ما يؤدي إلى انسداد الأفق أمام المحدثين في نظرهم الموضوعية إلى ما تعاني مجتمعاتهم من تخلف، وتمسك الأصوليين بدوغمائية ظالمة للإسلام وللعالم.

وفي سياق اشتغاله على مقولة تخلف المجتمعات العربية وقصورها عن اللحاق بركب الحداثة، يعود لويس ليستشهد بسيل من إحصائيات التقارير الصادرة عن المؤسسات الدولية، كالأمم المتحدة والبنك الدولي، والتقارير شبه المستقلة الصادرة عن المؤسسات العربية والغربية غير الحكومية، التي تبرز وضاعة مركز الدول العربية والإسلامية مقارنة مع بقية دول العالم على كافة الصعد التنموية البشرية، اقتصادية وصحية وتربوية وثقافية وتكنولوجية. مثال ذلك أن لاتحاد تضم ٢٧ دولة هي الأكثر مبيعاً للكتب في العالم، تبدأ بالولايات المتحدة وتنتهي بفيتنام، ولا تتضمن بلداً إسلامياً واحداً. فيما الأمثلة على صعيد التخلف الاقتصادي لا تعد ولا تحصى، ومنها أن الناتج المحلي الأعلى بين الدول ذات الأغلبية الإسلامية سجلته تركيا، في المركز الـ ٢٣، بسكانها البالغ عددهم ٦٤ مليون نسمة، متخلفة بذلك عن الدانمارك التي لا يتجاوز عدد سكانها ٥ ملايين نسمة.



يقول لويس إن شعوب الشرق الأوسط على يقين متزايد من حجم الهوة التي تزداد اتساعاً بين الفرص التي يوفرها العالم الحر وبين الوضع المزري من الفقر والاضطهاد الذي يعانون منه. ردة الفعل الطبيعية هي أولاً ضد الحكام وثانياً ضد القوى العظمى، وفي طليعتها الولايات المتحدة، التي تدعم وتحمي هؤلاء الحكام حفاظاً على مصالحها. لهذا، لا يبدو مستغرباً أن يكون جميع المشاركين في هجمات الحادي عشر من أيلول (سبتمبر) في نيويورك وواشنطن هم من المملكة العربية السعودية ومصر، أي من الدول التي يعتبر حكامها من أهم أصدقاء الولايات المتحدة في المنطقة. أما أكثر الزعماء العرب شعبية لدى العامة في السبعينات فقد كان معمر القذافي، في حين تبوأ عرش الزعامة الشعبية في الثمانينات والتسعينات صدام حسين، وهذا بحد ذاته دليل ساطع على عمق المأزق الذي تعاني منه هذه الشعوب.



## الفصل العاشر نهاية التاريخ



## الفصل العاشر

### نهاية التاريخ

فى الأيام القادمة وعندما يكتمل القمر ستتهار عاد<sup>(١)</sup> كما ينهار كوخ صغير أصابته الصاعقة !!

سادساً: العصر المعاصر (معاربة الإرهاب "الإسلام!!!") :

ولم يهدأ العنف الغربي لحظه بعد الحرب العالمية الثانية وانما اخذ يجمع كل قواه من جديد وتحالف مع العنف الأمريكي وبدأ مرحلة اخري من العنف والتدمير ولم تكد تنته الحرب في أوروبا حتي كشفت أمريكا عن عنفها الجهنمي والقت قنابلها الذرية على مدينتي هيروشيما وناجازاكي ومحت معالمهما في لحظات قليلة وقتلت مئات الآلاف من المدنيين (سيأتى فى حينه).

وسلح العنف الأوروبي العناصر الصهيونية وهي عناصر أوروبية وأمريكية في عقلها وتكوينها وأخذت تلك العناصر التي ورثت العنف الأوروبي عام ٤٨ في تطبيق ذلك العنف في فلسطين فقتلت وخربت وحرقت وشردت كما قتل وحرق وخرّب وشرد العنف الغربي وأقامت الصهيونية بمعاونة الغرب دوله علي أشلاء ضحاياها من الفلسطينيين وكشف العنف الصهيوني عن وحشيته العام بعد الآخر ولا زال يقتل ويعذب الأحرار من شعب فلسطين حتي اليوم ويهدم القرى ويطرد النساء والأطفال<sup>(٢)</sup>.

وانطلقت إنكلترا (حامية الحريات!!) أيضاً بعد الحرب الثانية في إثارة الرعب في مستعمراتها وعادت فرنسا إلى الهند الصينية لتتابع أعمال العنف وتخرّب وتقتل الأحرار ثم تجبر علي التسليم ولكن أمريكا تحتل مكانها هناك لتكشف عن مقدراتها علي العنف.

ثم تبدأ فرنسا من جديد أعمال العنف في الجزائر لتقتل وتخرّب وتصرع ملايين من شعب الجزائر وتضيف صفحات سوداء جديدة إلى تلك الصفحات السوداء التي لطخها العنف الأوروبي.

١- المقصود بعاد هنا الولايات المتحدة الأمريكية.

٢- يكفي للدليل على ذلك إلقاء نظرة سريعة على القنوات الإخبارية الموضوعية يوماً بل وكل دقيقة!!!.

وشهد العالم في السنوات الأخيرة العديد من التغيرات الأيدلوجية التي دفعتة إلى حقبة جديدة وشكل غير مسبوق من الصراعات والحروب والتدمير وتحول العالم عبر إنهيار سور برلين وسقوط الشيوعية بعد أن كان ثنائي الأقطاب (بتوازن القوى بالاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة الأمريكية) إلى عالم أحادي القطب تقوده الولايات المتحدة الأمريكية (حامية الحرية والعدالة!!).

أما الحرب في فيتنام فهي قصة دامية طويلة فصولها تمخضت عن اعتقال سبعة ملايين في معسكرات الاعتقال وقتل نحو ١٦٠ ألف وتعذيب ٧٠٠ ألف وسجن ٣٥٠ ألف داخل ١٦ ألف معسكر اعتقال ووصفت بأنها حرب قذرة بشعة استخدم فيها أسلحة محرمة دولياً وإنسانياً<sup>(٣)</sup>.

وقد أدى هذا النموذج الغربي لصراع الحضارات إلى خلق عقدة عظيمة لدى الغرب، فهو حضارة العقل والعلم والحرية والعدالة والتقدم والعمران.. التاريخ تاريخه، والعلم علمه، والقيم قيمه، والثورة ثورته، والحاضر حاضره، والمستقبل مستقبله، واللغات لغته، والثقافة ثقافته، وخلق عقدة نقص لدى الشعوب غير الأوروبية إذ إنها ناقلة ومقلدة وتابعة ومتعلمة وهامش على المركز وفي محيطه.. الغرب بيدع وهي تستهلك. الغرب يفكر وهي تنقل!!

وأصبح العالم يعاني من ويلات الحروب والتدمير والإبادة أضعاف ما كان يعاني وهو في الوضع الثنائي القطب وهو الوضع الذي تسعى فيه كل حضارة أو بالأحرى قطب من الأقطاب للهيمنة على العالم ولذا فالغالب المتوقع في حال سيطرة ثنائي الأقطاب على العالم حدوث مصادمات فيما بينهم وهذا المشهد متكرر على مدار أزمنة التاريخ فمن الصراع الدائر بين الفرس والروم إلى إنكلترا وفرنسا إلى الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة الأمريكية وبين كل حقبة وأخرى من هؤلاء تتنوع الأمثلة وتتعدد الأشكال لحضارات تتصارع لتحقيق الهيمنة على العالم أما أن توجد حضارة واحدة يظهر من واقع العالم أنها الحضارة المسيطرة المهيمنة ثم بعد ذلك نرى مزيداً من الحروب والويلات والتدمير وملامح الاضطراب على الساحة العالمية بادية لا تخفى على أي ناظر فهذا هو المشهد الذي لا بد من الوقوف عنده وتأمله ملياً للوصول إلى لبه ومضمونه.

٣- لمزيد من التفاصيل أنظر برتراند راسل: جرائم الحرب في فيتنام، ترجمة يحيى عويس، الشركة المتحدة ١٩٧٠، ص ٦٢.

إن وضع تصور حاكم للعلاقات بين الحضارات المختلفة كان الهم الشاغل للعديد من المفكرين والسياسيين والمنشغلين بتحليل الوضع الراهن للمنظومة العالمية حتى يمكن التوصل للفهم الناضج الواعي لطبيعة الأحداث ومن ثم محاولة الانتفاع بها وسوقها في الاتجاه المفيد النافع للبشرية وبناءا على ذلك فقد انطلقت العديد من النظريات تحاول جاهدة فهم وتحليل الواقع ومحاولة توجيه دفته إلى ما فيه النفع لعموم البشرية وظهرت أقوى تلك الأطروحات أو بالأحرى ما كتب له العيش منها على النحو التالي:

ومع انهيار الاتحاد السوفييتي وانفراد الولايات المتحدة الأمريكية بقيادة العالم بدأت نظريات صدامية بالصعود إلى السطح والظهور لتفسير كيفية تعامل القطب الأحادي مع العالم في ضوء الواقع الجديد ومن هذه النظريات ما خرج به الأمريكي الجنسية الياباني الأصل 'فوكوياما' في عام ١٩٩٢ بما يسمى ويعرف بنظرية "نهاية التاريخ".

تلك النظرية التي انتشرت سريعا لتتداعى بسرعة أكبر ومفادها تصوير انتصار الرأسمالية على الأرض أنها نهاية التاريخ وأن الإنسان الأمريكي هو من وصل إلى أقصى مستوى حضاري ممكن وبالتالي فهي نظرية نهاية الإنسان والتاريخ.

وخلص إلى أن الديمقراطية الليبرالية بإمكانها أن تشكل فعلاً "منتهى التطور الأيديولوجي للإنسانية، والشكل النهائي لأي حكم إنساني". وهو يعتقد أن الإسلام هزم الديمقراطية الليبرالية في أجزاء متعددة من العالم الإسلامي، وهو يشكل تهديداً كبيراً للممارسات الليبرالية، حتى في البلدان التي لم يستطع استلام السلطة فيها مباشرة. وأن الإسلام صار بعد انتهاء الحرب الباردة في أوروبا يشكل تهديداً للغرب.

وهو يعتبر نهاية الشيوعية هي الانتصار النهائي للديموقراطية الليبرالية. ولهذا الاعتبار فإنه لا شيء أصبح يقلق الهيمنة الغربية وأن العالم ستنتهي أيامه دون أن يقع شيء يمكن أن يوصف بالتاريخي في العلاقات بين الأمم. ثم تلا هذا المشهد مشهد آخر في أواخر صيف ١٩٩٣ م وكانت أول شرارة أشعلت المشهد مقالة نشرت في صحيفة (الشؤون الخارجية Foreign Affairs)

للمفكر الأمريكي صمويل هنتنجتون<sup>(٤)</sup> ورد على فوكوياما بدراسة مختلفة يتوقع فيها عكس ما ذهب إليه تماماً.

وحاول فيها قراءة مستقبل العالم المعاصر وقرر فيها أن الصراع في خلال القرن القادم سيكون صراعاً بين الحضارات وليس صراعاً اقتصادياً أو أيديولوجياً وقد حدد في نظريته تلك سبع حضارات أساسية وهي الحضارات: الغربية، والإسلامية، والكونفوشيوسية واليابانية، والأرثوذكسية، والأمريكية اللاتينية، وربما الإفريقية!

وكل حضارة تستند على دين معين ومجموعة من القيم. أما الصراع فيحدث بين هذه الحضارات بسبب النمو الديموغرافي المتسارع والعولمة التي تزحف باستمرار.

وقد أثارت مقالة هنتنجتون عاصفة من الانتقادات والجدالات والسجلات وقد اختزل هذه الحضارات محرر صحيفة الإيكونوميست (بريان بيدهام)، إلى ثلاث حضارات رئيسية وهي: الغربية والإسلامية والكونفوشيوسية ثم قلل من شأن هذه الأخيرة ليصل إلى نتيجة تقضي بأن الصراع التقليدي بين الجارين اللدودين الإسلام والغرب عائد إلى الواجهة في القرن الحادي والعشرين!

لقد سقطت أوهام فوكوياما سريعاً.. وتحولات العالم المعاصر وإرهاصاته تؤكد أن التاريخ لم ينته.. بل ربما يكون أمام بوابته الحاسمة، وها هو (هنتنجتون) يذعر الغرب، فيطرح رؤية تمثل التحولات المعاصرة، والدوافع الكامنة في الحضارات الأخرى، ولا تستهين بقدراتها الذاتية في انتشارها نفسها من حمأة التبعية والتخلف لتكون نداءً مكافئاً للغرب!

و(هنتنجتون) يخشى على الغرب من رايات الصلوة الإسلامية - الكونفوشيوسية (في إشارة إلى التعاون النووي بين الصين وبعض الدول الإسلامية)، ويدهام يرى أن الأصولية النامية في العالم الإسلامي قد تضع مستقبل الغرب (وليس مصالحه فقط) على كف عفريت! لأنها (الأصولية) لن تتعامل مع الغرب إلا في إطار العداء التقليدي.

٤- البروفيسور صامويل هنتنجتون، أستاذ العلوم السياسية في جامعة هارفارد ومدير في معهد الدراسات الاستراتيجية في هارفارد، هنتنجتون، الذي كان عضواً في مجلس الأمن القومي في إدارة كارتر والذي لا يزال يساهم دائماً في نقاشات ضبط السياسة الخارجية الأمريكية.



## ونظراً لأهمية نظرية مدام الحضارات نستعرضها فيما يلي : نظرية مدام الحضارات

### هنتجتون؟

يبدأ هنتجتون من فرضية أن التاريخ ينتهي مرة واحدة فقط بالنسبة لكل حضارة مثلما حدث للإمبراطوريات الرومانية والعباسية والمغولية والعثمانية والبريطانية.

ويلاحظ أن حضارة الغرب بدأت في التآكل منذ بداية القرن العشرين وتساءل عما إذا كانت حضارة الغرب قادرة علي صحوة تقيها حدة اتجاهها إلى الانحدار، أجاب زاعما بأن حضارة الغرب مختلفة اختلافا جوهريا في تطورها وديناميكيته عن كل الحضارات التي قامت منذ سنة ١٥٠٠، لأنها تشهد استمرارية في التحديث والتصنيع مما يعطيها قدرة علي التجديد والتواصل.

ويتفق هنتجتون مع كارول كويجلي في كتابه تطور الحضارات والذي يبشر بأن حضارة الغرب قد انتقلت من مرحلة الاقتتال لتكون منطقة أمان حيث لا يتصور قيام حروب بين دول غربية وحيث يشكل الغرب إمبراطورية عالمية تتكون من نظام معقد من النظم الكونفيدرالية والفيدرالية تتبنى التزاما بانتهاج سياسات ديموقراطية تعديدية وانتهى إلي أن الغرب أصبح مجتمعا ناضجا يدخل مرحلة ذهبية وينعم بالرفاهة بدون منافسات من حضارات أخرى.

وتعرض نظرية تفوق الحضارة الغربية إلى عوامل تآكل الحضارة الغربية فيحددها بانتشار الجرائم والمخدرات والعنف، وتفكك الأسرة. وهبوط الإسهام في النشاط الاجتماعي، والإفراط في الفردية، وانحسار الأنشطة الفكرية والتعليمية مؤكدة بأنه للحفاظ علي قوة الحضارة الغربية يجب أن ينجح في مواجهة ادعاءات التفوق المعنوي من قبل المسلمين والآسيويين.

ونظراً لأن أمريكا تشكل القوة الأعظم التي تمثل حضارة الغرب، راجت النظرية تستشرف ما أسمته بسمات المجتمع الأمريكي فأوردت أن أمريكا بلد منشق يجد نفسه في ورطة وتتحدد معالمه القومية، ثقافيا بحضارة الغرب، وسياسيا بالعقيدة الأمريكية التي تتمحور حول قيم الحرية والديموقراطية والفردية والمساواة أمام القانون والمؤسسية وحماية الملكية الخاصة.

وعندما تناولت النظرية أوروبا ذهبت إلى أن أوروبا يمكن أن يصيبها الضعف إذا لم تحافظ على العامل الأساسي المشترك وهو المسيحية. وأكدت أن اضمحلال المسيحية بين أهل الغرب باعتبارها المحور الثقافي يهدد وجود الحضارة الغربية التي لا يمكن أن تعتمد فقط على عقيدتها السياسية وعن تكامل أمريكا وأوروبا في تشكيل وتمثيل حضارة الغرب، تقول النظرية أن أوروبا بدون أمريكا ستتحول إلى جزء صغير ومتآكل بين بلاد العالم يقع على شبه جزيرة صغيرة على مشارف أوراسيا وتعترف النظرية بعدوانية الحضارة الغربية فتقول إن حضارة الغرب خطيرة على العالم لأنها قد تسفر عن حرب شاملة بين الحضارات، فيما تزداد الحضارات الآسيوية والإسلامية قوة. ورغم أن حرب العولمة في نظرها غير محتملة فإنها ليست مستبعدة وقد تنشب نتيجة صراع حضارات مختلفة والأغلب أن تشمل المسلمين في جانب وغير المسلمين في جانب آخر. وتصورت النظرية أن طرفي الصراع هما أمريكا وأوروبا وروسيا (والهند) في جانب، والصين واليابان والإسلام في جانب آخر مستشرفة خطورة ما أسمته بالصحوحة الإسلامية والديناميكية الاقتصادية الآسيوية وللحفاظ على الحضارة الغربية، دعت النظرية إلى مزيد من التعاون السياسي والاقتصادي والعسكري، والى إدخال دول وسط أوروبا في الناتو. والعمل على استكمال تغريب أمريكا اللاتينية، وأهمية وقف نمو القوة العسكرية الإسلامية التقليدية وغير التقليدية، إلى جانب إبطاء اتجاه اليابان للابتعاد عن الغرب، وضرورة قبول روسيا كقوة إقليمية رئيسية، مع الحفاظ على التفوق في التقدم التكنولوجي والعسكري.

ويرى الأستاذ محمد الطرابلسي أن الصدام بين الحضارات بحسب هنتجتون هو تواصل للصراع القبلي ولكن على نطاق عالمي بما أنه ينطلق من فكرة أن الحضارات ما هي الا قبائل إنسانية كبرى وأن الفروق الثقافية هي التي تحتل الموقع المركزي في تصنيف البشر والتميز بينهم.

ومن أخطر النتائج التي يتوصل إليها هنتجتون أيضاً تأكيداً بأن الهوية الثقافية تحدد من خلال الصراع مع الآخر، ولذلك فإن الهوية تترسخ في أعلى أشكال الصراع أي الحروب. فبالحروب يتحقق التماسك الاجتماعي لأن وجود عدو مشترك من شأنه إزالة الانقسامات داخل القبيلة الواحدة (أي الحضارة الواحدة) ويدفعها إلى الوعي أكثر بثقافتها وبضرورة حمايتها وانتصارها. ولذلك يدحض

هنتجتون الدعوة إلى حضارة عالمية مشتركة معتبرا أنها "بدعة" استعملها الغرب لمواجهة الحضارات الأخرى، وأملا كاذبا لا يمكن تحقيقه، وهو يدعو إلى ذلك بالتقريب بين التحديث والتغريب، فالتحديث وحده يمكن أن تشارك بقية الحضارات الغرب فيه، أما الحضارة الغربية فتبقى حسب صمويل هنتجتون ثقافة تميز الغرب عن غيره. وانسجاما مع هذا المنطق قسم العالم إلى عالمين: العالم الغربي الموحد ذي الخصائص المشتركة التي جعلت منه كتلة متجانسة من قبل حتى عملية التحديث التي انطلقت في القرن السابع عشر.

أما العالم الآخر فهو "الباقى"، أي بقية العالم، وهو حسب هنتجتون عالم متعدد الحضارات كالإسلام والصين والهند وحتى الأرثوذكس المسيحيين ولا تجمع بين هذا "الباقى" نفس القيم والخصائص المتوفرة لدى الحضارة الغربية.

وبما أن كتاب هنتجتون ليس مؤلفا في علم الاجتماع كما قال ذلك بنفسه وإنما هو تصور وتفسير لتطور السياسة الكونية بعد الحرب الباردة، فإن صاحب الكتاب يتوقع أن تكون العلاقة بين الحضارة الغربية وبقية الحضارات وبخاصة الإسلامية منها علاقة صدامية، فصدام الحضارات هي النتيجة الحتمية للسياسة في عالمنا الجديد، وهي السياسة المقامة على العرق محليا وعلى الحضارات كونيا، بما سيؤدي إلى صدام للحضارات يحل محل الصراعات القومية والاقتصادية والإيديولوجية التي عرفها العالم القديم حسب هنتجتون. ويتوقع منظر صدام الحضارات أن تكون أخطر هذه الصدامات هي تلك التي سيكون مسرحها خطوط التماس بين مختلف الحضارات حيث يقول في كتابه: "كما أن أخطر الصراعات الثقافية هي تلك التي على طول خطوط التقسيم الحضاري وفي عالم ما بعد الحرب الباردة، الثقافة قوة مفرقة ومجمعة في الوقت نفسه، الشعوب التي تفصل بينها الإيديولوجيا تجمع بينها الثقافة وتقرب بينها، مثلما حدث في الألمانيتين والكوريتين، وكما بدأ يحدث بين أكثر من صين..."

ويريد هنتجتون من وراء هذا الكلام التأكيد على أن وحدة المجتمعات لا تقام على أساس القيم الإنسانية المشتركة كالديمقراطية واحترام حقوق الأقليات، أو على المصالح الاقتصادية أو الظروف التاريخية أو التقارب الإيديولوجي وإنما على أساس "صلات" القربى "الثقافية" اعتبارا وأن "أشكال التطور السياسي والاقتصادي السائدة تختلف من حضارة لأخرى"، ولذلك يستنتج هنتجتون أن الصراعات

المرجحة أكثر من غيرها للتحويل إلى حروب واسعة هي الصراعات القائمة بين جماعات ودول من حضارات مختلفة، وأن أخطر تلك الصراعات هي تلك التي ستقوم على طول خطوط التقسيم الحضاري ومنطقتا المتوسط والشرق الأوسط هي إحدى خطوط هذا التقسيم التي يتنبؤ هنتجتون بأن تشهد إحدى أخطر حلقات الصدام الحضاري.

وحتى نفهم أكثر المقاييس التي اعتمدها هنتجتون في تقسيم العالم إلى: غرب - وباقي، فإنه يتوجب الوقوف على السمات التي ذكرها في كتابه صدام الحضارات وهي حسب زعمه خصائص ثمانية متأصلة في الحضارة الغربية وتميز الغرب عن غيره وهي:

- ١- التراث الكلاسيكي من الإغريق والرومان<sup>(٥)</sup>.
  - ٢- المسيحية الغربية الكاثوليكية والبروتستانتية (ما عدا الأرثوذكسية).
  - ٣- اللغات الأوروبية.
  - ٤- الفصل بين السلطتين الروحية والدنيوية.
  - ٥- حكم القانون.
  - ٦- التعددية الاجتماعية وقيام المجتمع المدني.
  - ٧- الهيئات التمثيلية.
  - ٨- النزعة الفردية.
- لا شك وأن هذه السمات هي خصائص مميزة للغرب في عصرنا الراهن، وهي خصائص تشكل قاعدة موضوعية لنزوع البلدان الغربية نحو إقامة التجمعات الاقتصادية والسياسية.

والذي يشير الدهشة في تصنيف وتحليل هنتجتون هو سكوتة عن الديانة اليهودية بالرغم من تأكيده بأن الديانة عنصر أساسي للتمييز بين الحضارات، ولم يشر إلى الصراع المحتمل بين الإسلام واليهودية، وبين اليهودية والمسيحية. والأسوأ من هذا فإنه لم يستخدم الديانة كمعيار للتصنيف إلا عندما جاء على ذكر الحضارة الإسلامية، فالحضارة الغربية نسبة إلى الغرب وهو مجال جغرافي، والكونفوشيوسية نسبة إلى فيلسوف الصين كونفوشيوس الذي عاش في القرن الرابع

٥- انظر مقدمة طلعت الشايب، ص ١١.

ق. م واليابانية نسبة إلى بلاد اليابان والهندوسية نسبة إلى بلاد الهند، والسلافية الأرثوذكسية نسبة إلى عرق ودين، والحضارة الأفريقية نسبة إلى القارة الأفريقية وحضارة أمريكا اللاتينية نسبة إلى قارة أمريكا اللاتينية. اختيار معايير متعددة للتمييز بين الحضارات يعتبر إخلالاً بالمنهجية العلمية التي يجب أن تتبع في مثل هذه الموضوعات، المنهجية العلمية تتطلب تحديد المعايير والمفاهيم وبالتالي كان على هنتجتون أن يصنف جميع الحضارات باستخدام معيار واحد فقط، وفيما لو استخدمنا الدين كمعيار للتصنيف بين الحضارات سيكون عندنا الحضارات التالية: الحضارة المسيحية والحضارة الإسلامية والحضارة البوذية والحضارة اليهودية.

وعلى أية حال فإن تقسيم هنتجتون للحضارات المعاصرة مثير للتساؤل فإذا كانت الحضارة تحدد بعناصر موضوعية أساسية: الديانة واللغة والعبادات والمؤسسات، وذاتياً بالتطابق والتماثل، فلماذا هذا التمييز بين الحضارة الغربية وحضارة أمريكا اللاتينية؟، فأمريكا اللاتينية مثل أمريكا مثل أمريكا الشمالية، قارة استوطنها الأوروبيون الذين جاءوا بالديانة المسيحية والعبادات والتقاليد الأوروبية وكذلك باللغات الأوروبية، وإذا كان عنصر الثقافة الهندية في أمريكا اللاتينية أكثر أهمية في بعض بلدان أمريكا اللاتينية منه في أمريكا الشمالية، فإن عنصر الثقافة الأفريقية أكثر تأثيراً في أمريكا الشمالية منه في بلدان أمريكا اللاتينية، فإن أمريكا الشمالية وأمريكا اللاتينية الجنوبية مزجت حضارتهما من عناصر حضاراتية أوروبية وعناصر من حضارات أخرى. لكن السؤال الذي لم يطرحه هنتجتون على نفسه هو لماذا تختلف أمريكا اللاتينية عن أمريكا الشمالية؟

وإذا لم تكن الأرثوذكسية تعبيراً عن الثقافة الغربية فماذا تكون، فإن الشعب السلافي الأرثوذكسي هو شعب أوروبي يتبنى الثقافة الغربية، وأكثر من ذلك ليس هناك اختلاف كبير بين الأرثوذكسية والمسيحية. لهذا لا نعرف لماذا يعزل هنتجتون المسيحية الأرثوذكسية من أشكال المسيحية الأخرى؟ ولماذا يتجاهل أفريقيا مسيحيين ومسلمين وغير ذلك؟ وإن كانوا كذلك فلماذا هم متخلفون؟ أنه ليس من الصعوبة الإشارة إلى المركزية الأوروبية في تحليلات خطاب صدام الحضارات.

المركزية الأوروبية: حتى يقتنعنا خطاب صدام الحضارات بتميز الغرب ويتفرد به عن الحضارات الأخرى قدم لنا هنتجتون مجموعة من السمات وهي:

١- الميراث الكلاسيكي: إن موارث الغرب من الحضارة الكلاسيكية متعددة بما في ذلك الفلسفة اليونانية والعقلانية، والقانون الروماني، واللاتينية، والمسيحية.

٢- الكاثوليكية والبروتستانتية: أولاً الكاثوليكية ثم الكاثوليكية والبروتستانتية هي تاريخياً أكثر خاصية متفردة وهامة في الحضارة الغربية. خلال معظم الألف سنة الأولى من عمرها، كانت الحضارة الغربية يطلق عليها العالم المسيحي الغربي، وقد وجد شعور جماعي حسب قول هنتجتون فيما بين الشعوب المسيحية حيث أنهم كانوا متميزين عن الأتراك مقارنة بالأندلسيين والبيزنطيين وآخرين، خرجت من أجل الله والثروة في غزوها للعالم في القرن السادس عشر. حركة الإصلاح الديني والحركة المضادة للإصلاح وإنقسام العالم الغربي إلى شمال بروتستانت وجنوب كاثوليكي هي الأخرى إحدى المظاهر التي يقدمها هنتجتون والتي تميز التاريخ الأوروبي، وحسب رأيه هذا لا ينطبق على الشرق الأرثوذكسي وعن خبرة أمريكا اللاتينية.

تابع أولاً: الغرب والآخر

٣- اللغات الأوروبية: اللغة هي العنصر الثاني بالنسبة لهنتجتون والتي تأتي بعد الديانة كعنصر للحضارة، الغرب يختلف عن الحضارات الأخرى في تعدد لغاته، اليابانية، الهندية، والماندارينية والروسية والعربية معروفة بأنها اللغات الأساسية لحضاراتها.

٤- فصل السلطة الدينية والنيوية: بالنسبة لهنتجتون الحضارة الغربية والحضارة الهندوسية ينفصل فيهما الدين عن السياسة، وفي الحضارة الإسلامية الله هو القيصر، وفي الحضارة الكونفوشيوسية في الصين وكذلك في اليابان قيصر هو الله، وفي الأرثوذكسية الله الشريك الأكبر للقيصر، وحسب رؤية هنتجتون انقسام السلطة ساهم في تطور الحرية في الحضارة الغربية.

٥- سيادة القانون: وهي فكرة موروثه عن الرومان، إن فكرة سيادة القانون وضعت الأساس للنظرية البنائية أو نظرية الحكم الدستوري وحماية حقوق الإنسان، بما في ذلك حقوق الملكية، وضد الممارسات التعسفية. في معظم

الحضارات الأخرى كان القانون عاملاً أقل أهمية في تشكيل الفكر والممارسة.

٦- التعددية الاجتماعية: تاريخياً المجتمع الغربي درج على أن يكون إلى درجة كبيرة مجتمعاً تعددياً.

٧- الكيانات التمثيلية: التعددية الاجتماعية أدت مبكراً إلى بروز طبقات اجتماعية، مجالس نيابية ومؤسسات أخرى لتمثيل مصالح الأرستقراطية، ورجال الدين، والتجار وجماعات أخرى. هذه الكيانات زودت بأشكال من التمثيل والتي خلال مجرى التحديث تطورت إلى مؤسسات الديمقراطية الحديثة. وحسب قوله هذا التمثيل على المستوى الوطني بالتالي أصبحت تحكمه درجة من الاستقلالية على المستوى المحلي، لم يحدث مثيله في أقاليم أخرى من العالم.

٨- الفردية: يشير هنتجتون إلى أن العديد من الخصائص السابقة للحضارة الغربية ساهمت في إثبات إحساس من الفردية وتقاليده من الحقوق والحريات الفردية متفردة بين المجتمعات المتحضرة. الفردية حسب رأيه تظل العلامة المميزة للغرب بين حضارات القرن العشرين.

يرى هنتجتون أن هذه الخصائص هي التي أعطت للغرب تلك الخاصية المتفردة، هذه الأفكار والممارسات والمؤسسات ببساطة كانت أكثر إنتشاراً في الغرب منه في أية حضارة من الحضارات الأخرى، إنها تشكل على الأقل جزءاً من الجوهر الأساسي المستمر للحضارة الغربية، وهي أيضاً وإلى حد كبير العوامل التي ساعدت الغرب على أن يأخذ بزمام القيادة في تحديث ذاته والعالم، غير أن الذي لم يذكره هنتجتون أن هذه الخصائص لم تلد مع الغرب كما يحاول هنتجتون إقناعنا به، ولكن جاءت عبر قرون طويلة من التطور الاقتصادي والاجتماعي والسياسي بل إن أغلبها لم يكن موجوداً قبل القرن الخامس عشر. فعلى سبيل المثال الموروث الإغريقي والروماني لم يستخدمه الأوروبيون إلا عندما أدركوا أهميته في مواجهة أيديولوجيا الإقطاع. ومما يدعو للاستغراب أن مفكراً مثل هنتجتون يعمل على تأصيل الحضارة الغربية في التراث الإغريقي في حين يستبعد أصحاب هذا التراث من الحضارة الغربية. وهذا يوضح الخلل في منهجية هنتجتون الذي يزعم بأنها علمية.

فكيف هي كذلك وهو لا يتوخى الموضوعية؟. والملاحظ أن هنتجتون لم يذكر لنا لماذا ظهرت البروتستانتية؟ ولم يذكر الحروب الطاحنة التي كانت بين الكاثوليك والبروتستانت. ولماذا تسود الكاثوليكية في الجنوب والبروتستانتية في الشمال؟ والأسوأ من هذا لم يوضح لنا هنتجتون كيف يكون تعدد اللغات ميزة للحضارة الواحدة؟ وإذا أخذنا في الاعتبار أن اللغة تعكس ثقافة هذه الشعوب، فكيف يمكن تجاهل ذلك؟ والأسوأ من هذا أن خطاب صدام الحضارات يتجاهل الظروف التاريخية والتي جعلت من الغرب كياناً حضارياً متفرداً فالفصل بين السلطات الروحية والسياسية لم يأت إلا بعد صراع عنيف مع السلطات الحاكمة باسم الحق الإلهي، وأن التاريخ يذكر لنا بأن هذا الفصل بين السلطات لم يتحقق في أوروبا إلا بعد ظهور البورجوازية الأوروبية وما ترتب على ذلك من تداعيات فاعالم كما نعرف جميعاً من التاريخ لم يعرف الحكومات الدينية إلا في التاريخ الأوروبي في العصور الوسطى ولم يعرف الإنسان أسوأ من ممارسات محاكم التفتيش Inquisition وعصور الظلام Dark ages في أوروبا في الوقت الذي كانت فيه حضارات مزدهرة مثل الحضارة العربية الإسلامية ومن الأخطاء التي وقع فيها صاحب صدام الحضارات الرؤية الميكانيكية في خطابه عند طرحه للتعددية واستنتاجاته المبسطة حول نشأة المؤسسات الديمقراطية والبرلمانية المعاصرة بدون التعمق في التحليل أبعد من ذلك. هذه الأسباب كلها تجعل طرح صدام الحضارات يتجاهل الظروف التاريخية التي جعلت من الغرب كياناً حضارياً متفرداً.

وبعد ذلك يستطرد هنتجتون قائلاً (إن تفكك الاتحاد السوفيتي قد أزاح التحدي الخطير الوحيد للغرب وكننتيجة لذلك فاعالم الآن وسيظل يتشكل بأهداف وأولويات ومصالح الدول الغربية الرئيسية، ربما مع المساعدة من حين إلى آخر من قبل اليابان، وكقوة عظمى وحيدة باقية فإن الولايات المتحدة بالاشتراك مع بريطانيا وفرنسا تتخذ القرارات الحاسمة في القضايا السياسية والأمنية، والولايات المتحدة بالاشتراك مع ألمانيا واليابان تتخذ القرارات الحاسمة في القضايا الاقتصادية.

الغرب هو الحضارة الوحيدة التي لها مصالح جوهرية في كل حضارة أخرى أو إقليم آخر ولها القدرة على التأثير على سياسات واقتصاديات وأمن كل حضارة أو إقليم. المجتمعات من حضارات أخرى تحتاج عادة إلى المساعدة الغربية لتحقيق أهدافها وحماية مصالحها.



ويضيف هنتجتون (الغرب يهيمن كلياً الآن وسيبقى الأول في القوة والنفوذ في حالة حسنة نحو القرن الواحد والعشرين. غير أن تغيرات تدريجية وجوهرية هي الأخرى تحدث في توازنات القوى بين الحضارات، وأن قوة الغرب بالقياس إلى تلك التي لدى الحضارات الأخرى سوف تستمر في الإضمحلال وفي الوقت الذي تتلاشى فيه صدارة الغرب، كثير من قوته ببساطة سيتبخر وما يبقى منها سينتشر على أسس إقليمية بين الحضارات الرئيسية العديدة ودولها الأساسية. إن أكبر أهم زيادة في القوة سوف تحدث ستكون للحضارات الآسيوية، مع بزوغ مجتمع الصين التدريجي وهو الذي على الأرجح يتحدى الغرب من أجل النفوذ العالمي. وهذه التحولات في القوة بين الحضارات تؤدي الآن وسوف تؤدي إلى إحياء وتأكيد الذات الثقافية المتزايدة للمجتمعات غير الغربية ورفضها الممتزج للثقافة الغربية).

ينتقل هنتجتون إلى توضيح مظاهر تدهور قوة الغرب مقارنة بالحضارات الأخرى محدداً ثلاثة مظاهر أساسية وهي: السكان، والإنتاج الاقتصادي، والقدرة العسكرية، بالنسبة للسكان يرى بأن الغربيين شكلوا أقلية تتناقص بثبات من سكان العالم. ومن الناحية الكيفية، فالتوازن بين الغرب وسكان الحضارات الأخرى هو الآخر أخذ في التغير، الشعوب غير الغربية تصبح أكثر صحة، وأكثر تحولاً نحو حياة المدن، أكثر تعليماً، وأفضل تعليماً. مدة الحياة والعمر في هذه الأقاليم ارتفعت إلى درجة هامة بزيادة تختلف من ١١ سنة في أفريقيا إلى ٢٣ سنة في شرق آسيا.

الإنتاج الاقتصادي: أي حصة الغرب من المنتج الاقتصادي العالمي هو الآخر ربما يكون وصل إلى أوجه في العشرينات وأخذ في الهبوط بشكل واضح عند الحرب العالمية الثانية. في عام ١٩٩٢ كان للولايات المتحدة الأمريكية أكبر اقتصاد في العالم، وأول عشر اقتصاديات على القمة شملت أولئك الخمس من الدول الغربية بالإضافة إلى الدول الرائدة من خمس حضارات أخرى: الصين، اليابان، الهند، روسيا، والبرازيل.

ويشير هنتجتون إلى أن الغرب سيبقى الحضارة الأكثر قوة محتفياً بحالة جيدة وهو يدخل العقود المبكرة من القرن الواحد والعشرين. فيما بعد ذلك سيكون بإمكانه أن يستمر في أن تكون له زيادة هامة في البحث العلمي وتنمية المهارات وتطوير المقدرات ولتجديد التقنية المدنية والعسكرية. الهيمنة على مصدر القوة

الأخرى قد آلت بشكل متزايد إلى أن تصبح مشتتة بين الدول الأساسية والدول الرائدة للحضارات غير الغربية.

ويستابع هانتغتون<sup>(١)</sup> أن "النزاع الأصلي في العالم الجديد لن يكون في صورة أولية أيديولوجيا، أو اقتصادياً، بل سيكون ثقافياً على مستوى الانقسامات العظيمة للإنسانية. وستبقى الدول القومية هي الأكثر قوة في الشؤون العالمية، لكن النزاعات السياسية الدولية ستحصل بين الأمم والمجموعات من حضارات مختلفة. إن صدام الحضارات سيكون خطوط المعركة في المستقبل".

ويحدد هانتغتون مصادر النزاع بأنها تعود إلى اختلاف التاريخ واللغة والثقافة والتقاليد، والأكثر أهمية هو الدين. كما تعود إلى أن العالم بات مكاناً صغيراً، وازداد التداخل بين الشعوب من الحضارات المختلفة. كذلك تعود إلى عمليات التحديث الاقتصادي والتغير الاجتماعي، في عالم يفصل فيه الناس عن هوياتهم الخاصة العميقة الجذور، وإلى أن نمو الوعي الحضاري يتعزز بالدور المزدوج للغرب. فمن ناحية، الغرب هو في قمة القوة، وفي الوقت عينه، وربما نتيجة لذلك، هناك عودة إلى الجذور بين الحضارات غير الغربية.

ومن مصادر النزاع أيضاً، يقول هانتغتون، أن الخصائص الثقافية والاختلافات هي الأقل قابلية للتحول، وأخيراً أن المناطقية الاقتصادية تتزايد. ومن الأمثلة التي يعرضها "أن الثقافة والدين هما أيضاً من الأسس (...) التي جمعت معاً عشر دول إسلامية غير عربية: إيران، باكستان، تركيا، أذربيجان، كازاخستان، قرغيزستان، تركمانستان، طاجيكستان، أوزبكستان وأفغانستان".

كما يرى أن هناك انقساماً ظهر بعد نهاية الحرب الباردة "ما بين الكاثوليكية والأرثوذكسية، وخطر هذا الانقسام يمتد الآن بين فنلندا وروسيا، ودول البلطيق وروسيا، قاطعاً وبيلاروسيا وأوكرانيا، فاصلاً، أكثر فأكثر، ما بين أوكرانيا الغربية الكاثوليكية وأوكرانيا الشرقية الأرثوذكسية. ويتجه الخط غرباً ليفصل ترانسلفانيا عن بقية رومانيا، ويخترق يوغوسلافيا، وبالتحديد على امتداد الإمبراطوريتين العثمانية والهابسبورغية".

٦- أحمد عياش: "صدام الحضارات" وسيناريو الحرب العالمية المقبلة، جريدة النهار اللبنانية، عدد أكتوبر ٢٠٠١.

ويتحدث هانتنغتون ملياً عن النزاع ما بين الحضارتين الإسلامية والغربية، الذي بدأ قبل ١٣٠٠ عام. ويشرح "مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية، وانبعاث القومية العربية والأصولية الإسلامية، وتزايد اعتماد الغرب على نفط دول الخليج الفارسي، واندلاع حروب عديدة بين العرب وإسرائيل (بفعل الغرب)".

وتطرق أخيراً إلى نزاعات آسيا، ولا سيما بين المسلمين والهندوس. هذه أمثلة مقتطفة من مقالة هانتنغتون التي تخلص إلى القول: "الحضارة الغربية هي غريبة وحديثة في آن واحد. والحضارات غير الغربية تحاول أن تصبح مدنية، من دون أن تصبح غريبة وفي المستقبل المتصل لن تكون هناك حضارة عالمية، بل سيكون عالم من حضارات مختلفة، وعلى كل منها أن تتعلم التعايش مع الأخرى".

وما ذكره هانتنغتون ليس أمراً جديداً كل الجدة، ولكن الظروف التي طرح فيها أفكاره وتوقيت هذا الطرح هو الذي هيأ المناخ لنشرها ومناقشتها على نطاق واسع فقد جاءت هذه الأفكار بعد نهاية الحرب الباردة، وفي أعقاب ما تنبأ به الرئيس الأمريكي السابق نيكسون من صراع حتمي بين الغرب والعالم الإسلامي، وقال العديد من مفكرى الغرب أن الإسلام هو الخطر القادم أو العدو البديل بعد سقوط الاتحاد السوفييتي.

إن ما ذكره قال رينهولد نيبور<sup>(٧)</sup> (١٨٩٢-١٩٧١) Renhold Niebur (أحد أشهر رواد النظرية الواقعية في العلاقات الدولية في القرن العشرين، يفسر السلوك الاستراتيجي من كيسنجر مرورا ببرجنسكي حتى بوش ورامسفيلد إن الذي يسيطر على الشرق الأوسط يسيطر على أوروبا who ever controls the Middle East also controls Europe.

وكذلك يعزز ما نقله الكاتب الفرنسي Marius Peltier عن زعيم الثورة البلشفية فلاديمير لينين الإدراك الاستراتيجي الأمريكي إن الطريق إلى باريس يمر عبر المغرب the road to Paris goes through the Maghreb، ويقصد المغرب العربي، ويظهر أن قول لينين قد ارتبط بثورة الريف التي قادها عبد الكريم الخطابي ضد الأسبان في منطقة الريف، ولأهمية المغرب العربي الإستراتيجية في التنافس بين القوى الأوروبية وضد الاستعمار الفرنسي التي

٧- أنظر مقالة أحمد سليم البرمان: الشرق الأوسط: إعادة للتفكير، مجلة السياسة الدولية، العدد ١٦٤، أبريل ٢٠٠٦.

يعتبرها أستاذ الجيوبوليتيكا الأمريكي المعاصر، سول كوهن Saul Cohn البوابة الخلفية لأوروبا وهذا يفسر القلق الأوروبي في التطورات السياسية على بوابته الخلفية.

إن مفهوم الشرق الأوسط في الدوائر الغربية سواء في بريطانيا أو الولايات المتحدة فيما بعد، ارتبط بآسيا العربية ومصر ليبيا بالإضافة إلى بلاد فارس، إيران حالياً وإلى حد ما، في بعض الأحيان تركيا عندما يراد لتركيا أن تلعب دور في الشرق الأوسط كما هو حال حلف بغداد.

ويذكرنا الآن أستاذ النزاعات الدولية الأمريكي مايكل كلاير Michael Klaire في مقاله له في مجلة Nation الأمريكية في عددها يونيو ٢٠٠٣، أي بعد احتلال الولايات المتحدة للعراق 'إن الحرب أوضحت أن نقطة الارتكاز المركزية للتنافس الدولي هي منطقة جنوب ووسط آسيا، أي من أفغانستان والجمهوريات الآسيوية الإسلامية حتى العراق، الذي اعتبره ولیم هملتون أستاذ التاريخ الأمريكي قلب الشرق الأوسط The Heart Land of the Middle East ويتساءل هملتون 'هل احتلال هذا القلب هو السبب الإستراتيجي الرئيسي للغزو؟' ويجب عن تساؤل هل نفسه إن احتلال العراق يمثل أهمية إستراتيجية كبرى للولايات المتحدة؟.

ويعتبر الجغرافي البريطاني هالفورد ماكندر أول من نبه إلى أهمية نقطة الارتكاز الجغرافي The Geographical Pivot of History في محاضراته في الجمعية الجغرافية الملكية البريطانية في يناير ١٩٠٤، لقد وضع إصبعه على شرق أوروبا نقطة الارتكاز الجغرافي والتي أطلق عليها عام ١٩١٩ قلب اليابس في أوراسيا، التي كان الاتحاد السوفيتي يسيطر عليها، وطرح نظريته المشهورة التي أثرت في الفكر الإستراتيجي في أوروبا وأمريكا خلال القرن العشرين وحتى الآن 'من يسيطر على شرق أوروبا يسيطر على قلب اليابس ومن يسيطر على قلب اليابس يسيطر على جزيرة العالم ومن يسيطر على جزيرة العالم يسيطر على العالم، ويقصد ماكندر بجزيرة العالم القديم آسيا وأوروبا وأفريقيا، ولقد فهم نابليون أهمية قلب اليابس قبل ماكندر عندما توجه إلى روسيا وكذلك تأثر قيصر ألمانيا ولیم الثاني وهتلر وموسليني بأهمية قلب اليابس للسيطرة على أوروبا والعالم.

وقد طرح نيقولاى سبيكمان نظرية حافة اليابسة Rimland والتي اعتبر السيطرة عليها يسيطر على أوراسيا وبالتالي يسيطر على العالم، ونلاحظ أن حافة اليابس هي الهلال الداخلي عند ماكندر هي الهلال أو قوس الأزمات عند بريجنسكي وهي العالم العربي الإسلامي وتسمية الولايات المتحدة الشرق الأوسط الكبير، والذي لا زال يشكل السيطرة على نقطة السيطرة على العالم كما يؤكد الاستراتيجيين الغربيين من ماكندر حتى بريجنسكي مستشار كارتر للأمن القومي الأمريكي، وبول وولفويتز مهندس احتلال العراق نائب وزير الدفاع الأمريكي الأسبق ومدير البنك الدولي الحالي.

يقول ولیم هملتون أن الخبراء الإستراتيجيين في وزارة الدفاع الأمريكية وفي مجلس الأمن القومي الأمريكي، قد تأثروا بنظرية ماكندر، فالعراق عندهم قلب المنطقة العربية الآسيوية، وحسب رأيه ماذا يعني احتلال العراق، السيطرة على البترول، وأن تعين أي حكومة تريدها لتتحكم في خطوط المواصلات الإستراتيجية وتطل على الخليج العربي وتتحكم في الهلال الخصيب وتصبح المنطقة حسب رأي هاملتون تحت الهيمنة الأمريكية من القاهرة حتى إسلام آباد، أي أن تكون المنطقة تحت مظلة السلام الأمريكي Pax Americana.

ولا يخرج احتلال العراق عن نطاق قول نيبور، بأن من يسيطر على الشرق الأوسط يسيطر على أوروبا، ولكن من الناحية التاريخية أن نقطة الارتكاز الجغرافي العربي إذا أخذنا مفهوم ماكندر هي مصر في الشرق الأوسط، ولذلك كان يتردد في الدوائر الأمريكية لا حرب بدون مصر، في حالة الصراع العربي والإسرائيلي، ولذلك كان الهدف الإستراتيجي الإسرائيلي عند مناحيم بيغن في كامب ديفيد هو إخراج مصر من معادلة الصراع العسكري بين العرب وإسرائيل في الشرق الأوسط ولقد أخطأ العرب آنذاك في عزل مصر لأنهم وقعوا في الفخ الإسرائيلي.

وإذا أخذنا التاريخ الحديث والمعاصر فإن نابليون عندما قام بحملة على مصر والشام ١٧٩٨-١٨٠١ كان يريد أضعاف الإمبراطورية البريطانية من خلال قطع اتصالها مع الهند ذرة التاج البريطاني وكانت عبقرية المكان المصري في ذهن نابليون وبعدها تنبّهت بريطانيا لأهمية مصر الإستراتيجية للسيطرة على الشرق الأوسط.

إن دور نقطة الارتكاز مع قلب الشرق الأوسط ارتبط بالأيديولوجيا فقد كانت الفكرة الرابطة من صلاح الدين أو قطز رابطه دينية وكذلك كانت في عهد محمد علي باشا قد تكون توحيد أيديولوجي قومي أو ديني ولكن نلاحظ أيضا أن نقطة الارتكاز الجغرافي كانت لها أهمية ودور مؤثر في القرن العشرين، دور عدم الانحياز ودعم حركات التحرر الأفريقية ثم القومية العربية كانت مصر نقطة الارتكاز الجغرافي أعطتها دورا رائدا على مستوى العالم الثالث واحد أعمدة دول عدم الانحياز أكسبتها أهمية إستراتيجية في نظر القوى العظمى وكانت حملة العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦ على مصر من خلال رؤية خطر دور نقطة الارتكاز الجغرافي في الجزائر ودعم الثورة الجزائرية أو الوقوف ضد مخططات بريطانيا في منطقة قلب الشرق الأوسط حلف بغداد ودعم حركات التحرر منطقة الجزيرة العربية وأفريقيا وعندما قامت الوحدة بين مصر والشام (١٩٥٨-١٩٦١) استغفرت القوى الغربية الأوروبية والأمريكية وإسرائيل خطر هذه الوحدة خاصة لارتباطها بالمد القومي وهي تدل على وعي إستراتيجي قد تكون أكثر من وعي النخبة السياسة العربية ومبني على التجربة الألمانية والإيطالية عندما قامت الوحدة في كليهما وهددت ألمانيا أوروبا بالسيطرة عليها بعد أن كانت الولايات الألمانية ممزقة فقادت بروسيا حملة الوحدة الألمانية؟

وإذا نظرنا إلى حرب ١٩٦٧ وبعض النظر عما قبل حولها، فهي تخطيط إستراتيجي لإحباط دور نقطة الارتكاز الجغرافي العربي لإضعافه وإبعاده عن نطاقه العربي الآسيوي أو الجناح الغربي الأفريقي.

أعاد هنري كسنجر الاعتبار للجيوبوليتكا الألمانية بعد أن حلت عليها النعمة بأنها سبب الحرب العالمية الثانية ويعتبر كسينجر بحق الجنرال هوسهوفر الأمريكي وكان متأثرا بمتريخ النمسا وزير خارجية النمسا وسياسته في مؤتمر فيينا 1815 وسياسة توازن القوى ولذا عندما تولى منصب مستشار الرئيس الأمريكي للأمن القومي في عهد نيكسون ثم وزيرا للخارجية الأمريكي وضع نصب عينه إخراج الولايات المتحدة من مستنقع فيتنام ثم فتح قنوات دبلوماسية مع الصين الشعبية والتركيز على إستراتيجية توازن القوى لمواجهة الاتحاد السوفيتي.

وكان نيكسون وبليعاز من هنري كسينجر قد تبني إستراتيجية للحرب بالوكالة Proxy Forces حسب مبدأ نيكسون وفي الشرق الأوسط اعتبر إيران شرطي

الخليج العربي في عهد الشاه، ولكن بحسه الجيوبولتيكي كان ينظر إلى نقطة ارتكاز الجغرافي العربي 'ارض الكنانه' فقد كانت سياسة مصر قائمة على عدم الانحياز واقرب للاتحاد السوفيتي في التعاون السياسي وخاصة بعد حرب ١٩٦٧ ولذلك كان الهدف الإستراتيجي لكسينجر إبعاد نقطة الارتكاز عن الاتحاد السوفيتي ثم جرّها إلى الجانب الغربي فكانت سياسة الخطوة خطوة وخروج السوفيت قبيل حرب أكتوبر ١٩٧٣ نقطة البداية في الإستراتيجية الإسرائيلية الأمريكية في احتواء خطر نقطة الارتكاز الجغرافي على إسرائيل باعتبار أكبر قوة عربية وتاريخها في جميع الفترات التاريخية يثبت ذلك وهذا ما تحقق فيما بعد تراجع الدور العربي بعد مصر دولياً وإقليمياً وفي عدم الانحياز وفي منظمة الوحدة الأفريقية بعد أن كانت مركز ثقل عدم الانحياز وأفريقيا؟

أما بالنسبة للقلب العربي كما سماه هملتون كما ذكرنا سابقاً فإن القلب العربي الآسيوي كان قد وقف ضد اجتياح الثورة الإيرانية إلى منطقة الخليج العربي فقد استطاع العراق سواء بقرار سياسي داخلي مستقل أم بإيعاز من إدارة كارتر أن تدخل الحرب لاحتواء الثورة الإيرانية وتأثيراتها ورغم الأنفاق العسكري للدول البترولية فأنها لولا قوة القلب لم تستطيع أن توقف الزحف الثوري الذي كان في عنفوانه ولكن بعد نهاية الحرب العراقية الإيرانية ١٩٨٨ كان هو الخطر المتمثل الذي سوف يهدد المصالح الإسرائيلية والأمريكية وهذا ما صدر في التقرير عن مركز الدراسات الإستراتيجية التابع لوزارة الدفاع الأمريكية قبيل غزو الكويت تحت عنوان Iraq Power and U.S. Security in the Middle East 1990 وكان لا بد من القفز على القلب بعد احتواء نقطة الارتكاز الجغرافي، ونشهد الآن تفتيت القلب وإنهاء فكرة القومية من قاموس السياسي العربي، بحل حزب البعث والجيش العراقي وطمس الهوية العربية وهذا تماماً ما اتفق عليه في إستراتيجية إسرائيل في الثمانينات ١٩٨٢ ثم التقرير الإستراتيجي الذي تم تقديمه عام ١٩٩٦ إلى نتنياهو تحت عنوان استراتيجية إسرائيل عام ٢٠٠٠ ؟

فالتقرير الأول حول إستراتيجية إسرائيل ١٩٨٢ فهو يؤكد طرحه على تقسيم المنطقة العربية إلى كانتونات سياسية وعلى رأسها العراق إلى ثلاث دويلات أما تقرير ١٩٩٦ فإنه يؤكد صراحة على إنهاء فكرة القومية العربية باعتبارها خطر على التوازن الإقليمي وعلى مستقبل إسرائيل كما كانت فكرة القومية قوة وراء بروز

عبد الناصر وشعبيته في العالم العربي والدور القيادي لنقطة الارتكاز الجغرافي فإنه لا بد من الانتهاء كلياً من هذه الفكرة العقيدية في منطقة القلب العربي الإسلامي.

#### مستقبل النظام الإقليمي العربي :

إن غياب نظام أمني عربي أدى إلى تفكك أمني في المنطقة العربية، وأن عقد اتفاقات أمنية ثنائية كما أشرنا أو تكتلات من خارج المنطقة أدت إلى توتر ونزاع بين الدول العربية وزيادة الإنفاق العسكري مما انعكس سلباً على واقع الأمن القومي العربي وعدم استقراره.

أن العالم العربي يملك طاقات البشرية والموارد الاقتصادية والموقع الإستراتيجي الذي يجعله يلعب دوراً فعالاً في النظام الدولي في حاله استغلال هذه الطاقات والموارد.

إن الاستراتيجية الأمريكية الحالية تهدف إلى إيجاد صراع داخلي في المنطقة العربية تحت شعار الإسلام المعتدل والمتطرف، وقد تتسحب وتترك القوى القطرية تواجه التحديات الداخلية.

لقد علمنا تاريخ أوروبا قول تشرشل في الحرب العالمية الثانية عندما تحالف مع ستالين ضد هتلر، قولته المشهورة "أنني أتحالف مع الشيطان ضد هتلر" وفي حالة التهديد المستمر للمصالح الأمريكية والغربية فقد تصل إلى نتيجة تتفق مع السياق التاريخي عبر العصور وهو التحالف مع الطرف القوي حتى وإن اختلف معه الذي يثبت قدرته على التحدي والوجود.

والخلاصة، أن إعادة فعالية النظام العربي المتدهور وأمنه في النظام الدولي مرتبط من خلال استقراء التاريخ وكما ذكرنا ماكيندر في أوروبا وجزيرة العالم، فالعالم العربي قد تكون قوة محركاً للتاريخ إذا أخذنا قراءة التاريخ، بأن الارتكاز الجغرافي والقلب الآسيوي العربي هما مفتاح السيطرة على الشرق الأوسط ومن يسيطر عليهما يستطيع أن يتحكم في الشرق الأوسط الكبير وبالتالي يسيطر على جزيرة العالم، العالم القديم، وبالتالي يعيد دوره داخل النظام الدولي.

ولم تعد مقولة صموئيل هنتجتون عن صدام الحضارات مجرد مسألة أكاديمية وإنما تحولت إلى استراتيجية كونية تتبناها أمريكا ومن ورائها العالم الغربي كله بمؤسساته ورموزه.



وكما ركز هنتجتون على أن الإسلام هو الحضارة المرشحة لأن يصطدم الغرب بها فإن إعلان أمريكا الحرب على أفغانستان يوم السادس من أكتوبر ٢٠٠١ جاء ليعلن أنها حرب على الإسلام. وإذا كانت نقطة البداية من كابول فإن أمريكا تبحث عن مناطق حيوية جديدة لتشملها الحرب وبالطبع فهي مناطق في العالم الإسلامي وكما قال بوش: إن الصبر سيكون مبدأ هذه الحرب وإذا كان التركيز اليوم على أفغانستان ثم العراق فإن المعركة أوسع وعلى كل بلد أن يختار ولا وجود للحياة في هذه الحرب، وحين نصف هذه الحرب بالعالمية الثالثة فليس هذا من قبيل الوصف الأدبي ولكنه تعبير عن حقيقة ما يجري على الأرض. فقبل بداية إعلان الحرب على حكومة طالبان في أفغانستان حشدت أمريكا جهودًا هائلة لتكوين ما زعمت أنه تحالف دولي ضد الإرهاب وبلغت الدول المشاركة في هذا التحالف حوالي ٦٠ دولة تتعاون في إطار أمني وسياسي ومخابراتي كما شاركت أكثر من ٣٠ دولة في اتخاذ إجراءات اقتصادية ضد ما أطلقت عليه أمريكا الشبكات الاقتصادية للمجموعات التي تزعم أنها إرهابية وفي نفس الوقت بلغت المقاتلات الأمريكية المشتركة في الحرب حوالي ٥٠٠ مقاتلة وأربع مجموعات من حاملات الطائرات تدعمها أكثر من ١٥٠ سفينة حربية بينها عشر بوارج ومدمرات مسلحة بصواريخ كروز وتوما هوك، ثم حشدت من القوات البرية والخاصة ومشاة الأسطول ما يتعدى حجمه ٢٥٠ ألف رجل يعني أننا فعلاً أمام حرب عالمية ثالثة وسوف نمتلكنا الدهشة حين نعلم أن حجم قوات طالبان التي تتحرك كل هذه الجيوش من أجل محاربتها هي عبارة عن أسلحة قديمة لا تبلغ معشار ما حشدته أمريكا وهو ما جعل المراقبين والمحللين يعتقدون أن الحرب العالمية الثالثة لا تقصد أفغانستان وحدها ولكنها حملة عسكرية جديدة على العالم الإسلامي الانتصار فيها من وجهة النظر الأمريكية تحقق على الأرض أيضًا شعار نهاية التاريخ الذي أعلنه فوكوياما عقب تحقيق النصر بلا حرب على الاتحاد السوفيتي القديم. ومن منظور التحليل النفسي فإن التصريحات التي أطلقها بوش، وباراك، وتشيني، وبلير وغيرهم من تأكيد التفرقة بين الإسلام والإرهاب هي جزء من حيل الدفاع لإخفاء الحقيقة التي تنشب أظافرها في ضمائرهم وهي أن المقصود بالحرب هو الإسلام وأن الإرهاب ليس سوى عنوان أو الرمز الكودي لبيان أن الحرب على أفغانستان هي حرب عالمية على الإسلام وفي الواقع فإن الإعلام في أمريكا

والغرب الذي يبدو أكثر اندفاعًا وأقل تحفظًا من الساسة يكشف هذه الحقيقة بوضوح فمثلاً رئيس تحرير انترناشيونال هيرالد تريبيون يتحدث عن أن النظام العالمي الجديد هو صدام الحضارات وأنه لابد من وضع حد للوهم الذي يفرق بين الإسلام كدين وحضارة وبين الإرهاب. إن إحدى المجالات الغربية المتخصصة وضعت على غلافها هناك شيء خاطئ في الإسلام. ومن ثم فالحقيقة أنه لا يمكن تجاهل حقيقة أن الحرب العالمية الثالثة للغرب النصراني على الشرق المسلم هي حرب دينية ثقافية وحضارية وهذه الحرب مطلوب فيها رقبة المسلمين أولئك الذين لا يزالون يتحدثون عن التمسك بالإسلام في مواجهة طوفان الهيمنة للحضارة الغربية الطاغية.

ولمن يريد أن يعرف لمن الحكم اليوم فليقرأ هذه السطور من جديد!!

## المراجع



## قائمة المراجع

- ١ - القرآن الكريم.
- ٢ - التوراة.
- ٣ - الإنجيل.
- ٤ - إبراهيم أبو خزام، علاقة الحضارات، مجلة دراسات، العدد ٢٠، لسنة ٢٠٠٥.
- ٥ - اتش جى ويلز: موجز تاريخ العالم، ترجمة: عبد العزيز توفيق جاويد، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٩.
- ٦ - أحمد سعيد سعيدان: مقدمة لتاريخ الفكر العلمى فى الإسلام، سلسلة عالم المعرفة، عدد ١٣١ لسنة ١٩٨٨.
- ٧ - أحمد سليم البرصان: الشرق الأوسط: إعادة للتفكير، مجلة السياسة الدولية، العدد ١٦٤، أبريل ٢٠٠٦.
- ٨ - أحمد عياش: صدام الحضارات" وسيناريو الحرب العالمية المقبلة، جريدة النهار اللبنانية، عدد أكتوبر ٢٠٠١.
- ٩ - أحمد فؤاد باشا: التراث العلمى للحضارة الإسلامية، ط١، دار المعارف ١٩٨٣.
- ١٠ - ادوارد سعيد: الاستشراق، ترجمة كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، الطبعة السابعة، ٢٠٠٥.
- ١١ - اسحق عبيد: محاكم التفتيش "نشأتها ونشاطها" كلية الآداب ١٩٨٥.
- ١٢ - السيد عبد العزيز سالم: دائرة معارف الشعب، عدد ٦١ لسنة ١٩٥٩.
- ١٣ - الطاهر أحمد مكي: دراسات أندلسية فى الأدب والتاريخ والفلسفة، ط٢، دار المعارف ١٩٨٣.
- ١٤ - الكسندر ستيبتشيفيتش: تاريخ الكتاب، القسم الأول، ترجمة محمد الأرنؤوط، سلسلة عالم المعرفة ١٩٩٣ العدد ١٦٩.
- ١٥ - أنور محمود زناتى: زيارة جديدة للاستشراق، ط١، مكتبة الأنجلو المصرية ٢٠٠٦.
- ١٦ - برتراند راسل: جرائم الحرب فى فيتنام، ترجمة يحي عويس، الشركة المتحدة ١٩٧٠.

- ١٧- توبى هف: فجر العلم الحديث، ترجمة محمد عصفور، سلسلة عالم المعرفة، أغسطس ٢٠٠٠ سنة، عدد ٢٦٠.
- ١٨- توماش ماستاك: السلام الصليبي، ترجمة بشير السباعي، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة، رقم ٦٢٠.
- ١٩- جان شارل سورنيا: تاريخ الطب، ترجمة ابراهيم البجلاتي، سلسلة عالم المعرفة، عدد ٢٨١، مايو ٢٠٠٢.
- ٢٠- جمال حمدان: إستراتيجية الاستعمار والتحرير، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٩.
- ٢١- جمعة الجندى: ملامح العنف والإرهاب الصليبي في بلاد الشام، مكتبة مدبولي، ط١، ٢٠٠٦.
- ٢٢- جوستاف لوبون: حضارة العرب، ترجمة: عادل زعتر، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- ٢٣- حسان حلاق: عندما كانت صقلية معبراً للتفاعل الحضارى بين العرب والغرب، مجلة العربي، العدد ٥٣١ فبراير سنة ٢٠٠٣م.
- ٢٤- حسين مؤنس: قرطبة، درة مدن أوروبا في العصور الوسطى، مجلة العربي، عدد ٩٥، أكتوبر ١٩٦٦.
- ٢٥- خليل الصغير: ليتذكر المسلمون نعمة الاستعمار!، مجلة مدارات غربية (لبنان) العدد ٤ - الأحد، ديسمبر ٢٠٠٤.
- ٢٦- دونالد هيل: العلوم والهندسة في الحضارة الإسلامية، ترجمة: أحمد فؤاد باشا، سلسلة عالم المعرفة، عدد ٣٠٥، يوليو، ٢٠٠٤.
- ٢٧- رضوان السيد: مجلة الفكر العربي، العدد ٣١.
- ٢٨- ريلي سميث: الحملة الصليبية الأولى وفكرة الحروب الصليبية، ترجمة محمد فتحى الشاعر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٢، ١٩٩٩.
- ٢٩- ساسى سالم الحاج: نقد الخطاب الاستشراقي، ج١، دار المدار الإسلامي، بيروت، ٢٠٠٢.
- ٣٠- سعيد أيوب: المسيح الدجال، الفتح للإعلام العربى.
- ٣١- سعيد عبد الفتاح عاشور: أوروبا العصور الوسطى (جزءان) مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٨٦

- ٣٢- أضواء جديدة على الحروب الصليبية، المكتبة الثقافية، عدد ١١٨ أكتوبر، سنة ١٩٦٤.
- ٣٣- الحركة الصليبية (جزءان)، أوربا العصور الوسطى، مكتبة الأنجلو المصرية.
- ٣٤- سليمان إبراهيم العسكري: تربية العنصرية وازدواجية المعايير، مجلة العربي، عدد ٥٧٠ سنة ٢٠٠٦.
- ٣٥- شاخت وبوزورث: تراث الإسلام (الجزء الثاني) ترجمة حسين مؤنس وإحسان صدقي، سلسلة عالم المعرفة، عدد ٢٣٤، الكويت أغسطس ١٩٧٨م.
- ٣٦- شكرى النجار: لم الاهتمام بالاستشراق"، مجلة الفكر العربي، العدد ٣١.
- ٣٧- شوقي أبو خليل: الإسقاط فى مناهج المستشرقين والمبشرين، ط١، دار الفكر المعاصر، بيروت ١٩٩٥.
- ٣٨- صمويل هنتنغتون - صدام الحضارات (إعادة صنع النظام العالمي) ترجمة طلعت الشايب منشورات - سطور - مصر - ١٩٩٨.
- ٣٩- عبد الجبار الرفاعي: متابعات ثقافية، مؤسسة المرتضى العالمية بيروت/ ١٤١٤.
- ٤٠- عبد الحميد البطريق: التيارات السياسية المعاصرة، دار الفكر العربي، ١٩٩٩.
- ٤١- عبد الرحمن بدوى، دور العرب في تكوين الفكر الغربي، دار الآداب - بيروت.
- ٤٢- عبد العزيز بن عثمان التويجري: صراع الحضارات فى المفهوم الإسلامى، من منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة.
- ٤٣- عبد العزيز محمد الشناوى: أوروبا فى مطلع العصور الحديثة، ج١، ط٣، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٧.
- ٤٤- عبد الله محمد الأمين: الاستشراق فى السيرة النبوية، المعهد العالمى للفكر الإسلامى، القاهرة، ١٩٩٧.
- ٤٥- عبد المعطى شعراوى: أساطير إغريقية (الآلهة الكبرى) مكتبة الأنجلو المصرية ٢٠٠٥.

- ٤٦- على عبد اللطيف: الجالية الإيطالية في مصر، مكتبة الأنجلو المصرية ٢٠٠٠.
- ٤٧- غالب علي جميل: صحيفة ٢٦ سبتمبر، العدد رقم ١١٧٠.
- ٤٨- فيليب تايلور: قصص العقول، ترجمة سامي خشبة، سلسلة عالم المعرفة، العدد ٢٥٦ لسنة ٢٠٠٠م.
- ٤٩- مالك بن نبي: انتاج المستشرقين وأثره في الفكر الاسلامي الحديث، مطبعة دار البيان ١٩٧٠.
- ٥٠- محمد البهي: الفكر الإسلامي في تطوره، مكتبة وهبة، القاهرة.
- ٥١- محمد الحبش: العالم الإسلامي والغرب، قراءة في المشهد الثقافي، والحضاري، مؤتمر الإسلام والغرب في عالم متغير الذي انعقد في قاعة الصداقة بالخرطوم ١٢ و١٣ و١٤/١/٢٠٠٤.
- ٥٢- محمد باقر الحسيني: مجلة آفاق عربية، السنة الرابعة العدد الأول، سبتمبر ١٩٧٨.
- ٥٣- محمد محفوظ: الإسلام، الغرب، وحوار المستقبل، ط١، المركز الثقافي العربي، ١٩٩٨.
- ٥٤- محمد مفيد الشوباشي: العرب والحضارة الأوروبية، المكتبة الثقافية، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٥.
- ٥٥- محمد كرد علي: بين المدنية العربية والأوربية "سلسلة الألف كتاب الثاني"، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٢.
- ٥٦- محمود أحمد الحفني: زرياب، الدار المصرية للتأليف والترجمة.
- ٥٧- محمود حمدي زقزوق: الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، دار المعارف، القاهرة ١٩٩٧.
- ٥٨- كلايد كلوكهون: الإنسان في المرأة، ترجمة شاكر مصطفى سليم، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر بغداد، نيويورك ١٩٦٤.
- ٥٩- لسيوبولدو توريس بلباس: تاريخ إسبانيا الإسلامية، ج٢، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة ٢٠٠٢، رقم ٤١٢.
- ٦٠- نجم عبد الكريم "الطاغية الذي فرض على الشعب أن يأكل التبن والشعير" بجريدة الشرق الأوسط بتاريخ ١٥ أبريل ٢٠٠٣، العدد ٨٩٠٤.



- ٦١- نجيب العقيقي: المستشرقون، دار المعارف ١٩٦٤.
- ٦٢- هوارد تيرنر: العلوم عند المسلمين، ترجمة فتح الله الشيخ، المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٤، المشروع القومي للترجمة، عدد ٦٤٤.
- ٦٣- وليم الصوري: الحروب الصليبية (أربعة أجزاء)، ترجمة حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٥.
- ٦٤- يوسف عز الدين: أثر تراثنا الحضاري في حضارة الغرب، مجلة النور، عدد ١٧٢، يونيو ٢٠٠٦.

